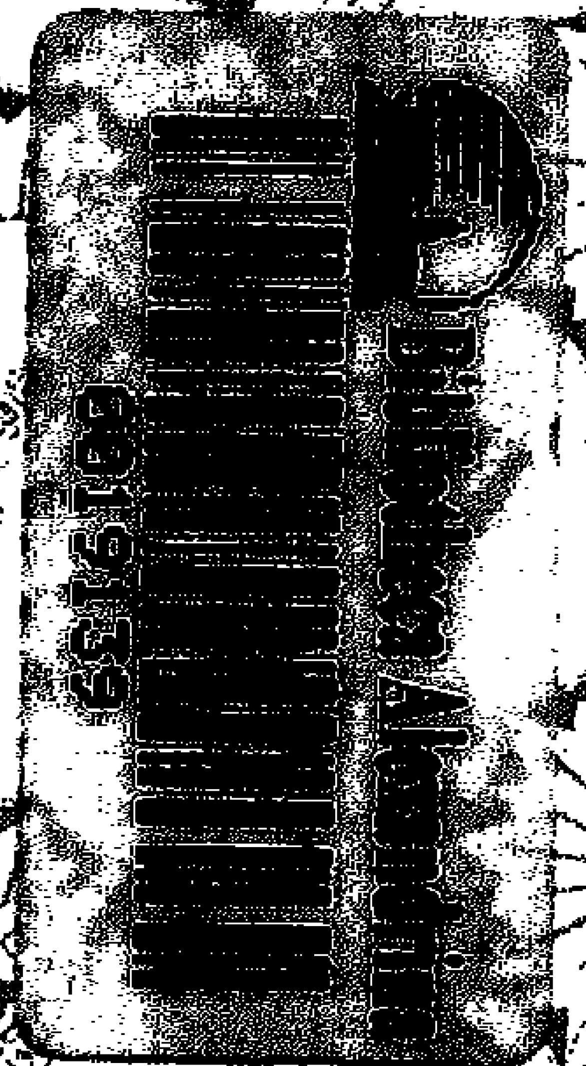
الدكتورة ليلى الصبّاغ

نساء ورجال

تنوّع

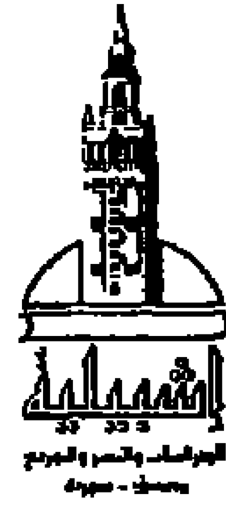
في الأدب والسّياسة وإصلاح المجتمع





نساء ورجال

في الأدب والسياسة وإصلاح المجتمع



التّنفيذ:
إشبيلية للدّراسات والنّشر والتّوزيع
دمشق ✉ ٤٣٦٣ ، سورية

الإخراج والإشراف الفنّي: فراس السّباعي

الدكتورة ليلى الصبّاغ

نساء ورجال

تنوّع

في الأدب والسّياسة وإصلاح المجتمع



الطبعة الأولىٰ
أيلول (سبتمبر) ١٩٩٥
الندوة الثقافية النسائية
دمشق، جادة الحريري
شارع زُهير بن أبي سُلمىٰ، الروضة

طبع هٰذا الكتاب بإشراف

جمعية الندوة الثقافية النسائية بدمشق

أستجابةً لرغبة المتبرّعين لها إسهاماً في نشر وطبع،

كتبٍ لأدباء مرموقين أعتزازاً بهم، وتقديراً لهم،

وكتبٍ لأدباء شباب تشجيعاً وتقديراً لمواهبهم.

وهي تشكر جميع من آزرها في مشروعها الثقافيّ هٰذا،

وبخاصّة السيدة الكريمة

خيرية رضا سعيد

إهداء تقدير

إلى مؤسسات «جمعية الندوة الثقافية النسائية»
اللائي كنّ أولَ مَن عمل من نساء دمشق،
وبثقةٍ بالنّفس، وشجاعةٍ، وإيمان،
على إنشاء جمعيةٍ نسائية ثقافية
هدفُها الارتقاءُ بفكر الإنسان العربي، والمرأة بصفةٍ خاصّة،
واللائي لا يزلن مُثابراتٍ على خطوهن المبارك،
بإخلاصٍ، ونشاط.

ليلى

المحتوى

المقدمة ١١

من أعلام الأدب

منارة الهند الدائمة : رابندرانات طاغور ١٧

أعلام في السياسة

الخليفة الأموي : عبد الملك بن مروان ٥٥
الخليفة العبّاسي : هارون الرشيد ٧٧
الشهيد : نور الدين زنكي ٨٥
الملكة الأسطورة : سميراميس ٩٧
الملكة المأساة : ماري ستيوارت ١٠٧

أعلام في إصلاح المجتمع وخدمته

المرأة ذات المصباح : الإنكليزيّة فلورنس نايتينغل ١٣١
بطلة كفاح : الروسيّة كاترين برشكوفسكي ١٣٩
امرأة وعطاء : الأمريكيّة فرانسيس فيلار ١٤٧
نابليون الحركة النسائيّة : الأمريكيّة سوزان أنطوني ١٥٥
فيلسوفة سلام : الأمريكيّة جين آدامز ١٦٩
صورة من الحركيّة النسائيّة الخيّرة : الإنكليزيّة إيفانجلين بوث . . ١٧٩

المقدمة

إذا كان للكاتب أن يطرح، في ٱفتتاحيّة كتابه، بعض ملامح محتوىٰ ذٰلك الكتاب، وأسباب كتابته له ونشره، ليُعرِّف القارئَ بفحواه، قبل أن يتمّ ٱقتناؤه له، أو يشرع في مطالعته، فإنني أقول بإيجاز:

إنّ هٰذا الكُتيّب يضمّ مجموعةً من «أحاديث ومحاضرات»، أُلقي معظمها في دمشق، وقلةٌ منها في مدنٍ عربيّة أخرىٰ، كالجزائر، والقاهرة، خلال الخمسينات والستينات من هٰذا القرن، وكان لها مناسباتها، وروابطها مع الموضوع الملقىٰ. وقد تمّ إلقاؤها إمّا عبر الإذاعة، أو من علىٰ منصّة بعض المؤسّسات، والجمعيّات الثقافيّة، وأخصّ بالذكر منها «جمعيّة الندوة الثقافيّة النسائيّة»، التي لا تزال ـ حتّىٰ ساعتنا هٰذه ـ ناشطةً جدًّا في المجالين الثقافيّ والٱجتماعيّ. فهٰذا الكُتيّب يحتوي إذًا، ما يمكن أن يُطلق عليه العاملون في حقل الأدب: بعض نماذج من **أدب الإلقاء.**

وإنّ نشر مثل تلك «الأحاديث والمحاضرات» في كُتيّب للمطالعة، يعني، في الواقع، تغييرًا في طبيعتها الأولىٰ: **فأدب الإلقاء قد يختلف قليلاً عن أدب المطالعة** في حجمه، وبُنيته، وأسلوبه. فهو، في هٰذا التحويل، سيفقد بعض عناصره، ومن أهمّها «الصوت»، بٱنفعالات صاحبه المختلفة، وتموُّجاته

المتنوّعة، التي قد تدعم القدرة علىٰ التعبير والتأثير، أو تُضعِفها، ولا سيّما إذا كان المطروح في الحديث، أو المحاضرة، شعرًا.

ويُذكّرني هٰذا الأمر بالأديبة الأمريكيّة «بيرل باك» صاحبة رواية «الأرض الطيّبة»: فقد آنتسبت، علىٰ الرغم من تقدُّمها النسبيّ في السنّ، وشهرتها في كتابة «الرواية»، إلىٰ «جامعة كولومبيا»، لتتعلّم «فنّ كتابة القصّة للإذاعة»، التي كانت قد ظهرت في زمنها لأول مرّة وسيلةَ إعلام قيّمة، لأنها كانت تعتقد، عن حقٍّ، بأنّ بُنية «القصة الملقاة» تُغاير بُنية «القصة المؤلّفة للمطالعة» التي مارستها هي.

وهٰذه «الأحاديث والمحاضرات» لا تدور حول موضوعٍ واحد، يتسلسل ويتواصل في تشعُّباته وفصوله، وإنما تُعالج موضوعاتٍ شتّىٰ لا رابطة بينها، ومع ذٰلك فإنها تجمعها «نوعيّةٌ واحدة» يمكن أن تُصنّف تحتها، وهي أنها «تراجِمُ» شخصيّاتٍ ذات شأن، كان لها دورها المحرّك والفاعل في التاريخ، وإنجازاتها المتنوّعة في الحضارة العربيّة، والحضارة الإنسانيّة. ولا بدّ من الإشارة هنا إلىٰ أنها لم تُعالَج بالأسلوب التاريخيّ الأكاديميّ، الذي قد يحمل بعض جفافٍ وجفاء، وإنما بأسلوبٍ أدبيّ، وإنْ كان هٰذا الأسلوب لم يُخرجها عن حقائقها التاريخيّة.

وبعض أولٰئك «الأعلام» من الشخصيّات المترجَمة، عربيٌّ، وبعضها الآخر أجنبيٌّ؛ وقليلها من الرجال، وكثيرها من النساء؛ وفئة منها بعيدة عنّا نسبيًّا في الزمن، وأخرىٰ معاصرة؛ وثلّةٌ منها لناشطين وناشطات في ميدان السياسة، وقسم لعاملاتٍ في خدمة المجتمع وإصلاحه، وواحد منها فقط لمبدع في حقل الأدب والفنّ. وفريق منها قد أُطيل الحديث عنه، وآخر قد أُوجز. ومن ثَمّ فقد يُلاحَظ بعض لاتوازن، أو تساوٍ في كمّ المعلومات التي عُرّفت بها كلُّ شخصيّةٍ ودُرست، لأنّ «أدب الإلقاء» ليس حرًّا حريّة «أدب المطالعة»، إذ هو مرتبطٌ بالزمن المخصّص له، الذي

يتحكّم تحكُّمًا كبيرًا في بُنيته كما هو معروف. فهو في هٰذه «الأحاديث والمحاضرات»، قد تراوح بين عشرين دقيقة في حديث الإذاعة، ونصف ساعة إلىٰ ساعة في المحاضرات.

وقد حوفظ علىٰ تلك «الأحاديث والمحاضرات» كما أُلقيت، وكما كانت عليه، لتبقىٰ الصورة الأصليّة التي قُدِّمت بها دون تعديل.

وربّما يُتَساءل: وما الداعي لنشر تلك «التراجم»، وقد مضىٰ علىٰ إنشائها وإلقائها من الزمن ما مضىٰ؟

إنّ هناك عدّة عوامل، في الواقع، وراء هٰذا النشر:

أولًا: إنّ تراجم الشخصيّات الفاعلة في تاريخ الإنسانيّة لا تَبلىٰ، ولا يُصيبها التقادم، فهي حيّةٌ أبدًا في بُنية الإنسانيّة، ومن حقّها علىٰ الأجيال المتلاحقة، أن تُظهَر، وتُبرَز، ويُجدَّد الحديث عنها دون توانٍ، وبٱستمرار، لأنها الجسم الحيّ والمشخِّص لحركة الإنسانيّة في مسيرتها عبر الزمن. وهي، بسِيَرها وأنواع فعّاليّاتها، تعطي للتاريخ معناه الإنسانيّ، وتُقرِّبه من أفهام الناس، وتُحبِّبه إليهم، وتُغذّي ذواتهم وتُغْنيها، فهي الدَّفْق الحياتيّ المجدِّد والمتجدِّد، وهي القدوة، والعبرة، والحافز، والأمل. وقد أدرك مؤرّخونا العرب هٰذه السِّمات بعمقٍ، عندما أكثروا من كتب «التراجم».

ثانيًا: كان لتلك «الأحاديث والمحاضرات» عن تلك الشخصيّات، بعض صدًىٰ محبَّبٍ في وقتها، إمّا لأنها أَمتعت نفوس مستمعيها ببعض جديد، أو أَفادتهم بفحواها، أو نمّت معرفتهم. ونشْرُها اليوم علىٰ جمهور أوسع، وأحدث، من الجمهور الذي ٱستمع إليها آنذاك، قد يُحقِّق ما حقَّقته في الماضي من فوائد، علىٰ الرغم من بعض تغيُّرٍ في طبيعتها الإلقائيّة. ناهيك أنّ بعض الشخصيّات المترجَم لها، ولا سيّما الأجنبيّة منها، قد لا تكون معروفةً كثيرًا لدىٰ بعض القرّاء «العرب» ولها قيمتها الإنسانيّة

الكبيرة، وقد تغدو مثارًا لبحوثٍ ودراسات أوسع وأعمق، ترفد المثقّف العربيّ بالجديد المفيد.

ثالثًا: قد تصبح واحدًا من الأدلّة لمؤرِّخ «التاريخ الثقافيّ لسورية» خلال الخمسينات والستينات من هٰذا القرن، عندما لم يكن ذٰلك النشاط علىٰ ما هو عليه الآن، كمًّا ونوعًا، ولا سيّما «النشاط الثقافيّ النسائيّ» منه.

والأمل أن يجد القارئ العربيّ، في هٰذا السِّفر الصغير، ما أُرِيدَ له من أهدافٍ في الماضي والحاضر.

والله وليُّ التوفيق.

من أعلام الأدب

- منارة الهند الدائمة رابِنْدرانات طاغور

منارة الهند الدائمة

رابِنْدرانات طاغور

«إنه نفحةٌ من أحضان الهملايا، فيها سُمُوُّ الذُّرىٰ ونبلها، وعواطف السهل وأمتدادها... فكما أنّ الهملايا مُلكٌ لأمّها الأرض، لا مُلكٌ لأرضها الهند، فإنّ «رابِنْدرانات طاغور» حَلالٌ للإنسانيّة، لا مُلكٌ لآسيا... لقد كان عالمًا في نفس، وكانت عبقريّته كدوحةٍ تعالت فأمتدّت فروعها في كلّ أرض، وتعمّقت فتخلغلت جذورها في كلّ زمن، وحملت من ثمار الفلسفة والفنّ، المتنوّع الجديد، والناضج الغزير؛ فهو شاعر الغناء العميق، وصِنْو الطبيعة وواحدها، وداعية القوميّة والتضحية، ورسول الحبّ والسلام، وروائيٌّ ممتاز، وقاصٌّ بارع، وناقدٌ نافذ النظرات. جَمَع في أدبه أرتعاشاتِ حياة العصور التي قضت، وأنتفاضات العصور التي أتت. ومثّل في روحه أتجاهاتِ الفكر الشرقيّ القديم، وتيّارات الفكر الغربيّ الحديث، ومدّ الهند بروحانيّاتها وعمقها إلىٰ العالم، وحمل العالم بسعته وتفرّعاته إلىٰ الهند. وقد تحلّل الفنّ في روحه إلىٰ أطيافه بألوانه الشتّىٰ؛ فكان موسيقيًّا مُجيدًا، وممثّلًا فذًّا، ومصوّرًا أسترعت صُوره أهتمام النقّاد، وتهافت عليها المعجبون. لقد كان لحنًا مقدّسًا، أنشده «نهر الغانج» لدنياه، فكان ميلاد الهند الجديدة، وبثّه إلىٰ العالم فردّد النغم مترنّمًا ولم يعش فيه. فإذا كانت الأجيال ستشعر شعره، فلأنه عاش في كلّ نبضة من نبضات الحياة، وأنسجم مع كلّ دقيقة من دقائقها؛ فأحبّ ذرّة الرمل علىٰ شواطئها، وعشق الإنسانيّة وتعاطفها. وستمرّ الأزمنة الآليّة التي نعيشها، وأصداء شعره تتغنّىٰ بروحانيّاتها المتأصّلة، مُهدهدةً بعضًا من يأسها»... هٰذا ما نعىٰ به «إدوار طومسون»

علىٰ أسلاك البرق، «رابندرانات طاغور» في السابع من شهر آب سنة ١٩٤١، عندما فوجئ العالم، وهو في بُحرانه الحربيّ الناري، بأنّ «طاغور» قد قضىٰ، وأنّ «منارة الهند الدائمة» ـ كما لقّبه «المهاتما غاندي» ـ قد ٱنطفأت.

وقد ٱستشرق «رابندرانات طاغور» الدنيا في مدينة «كلكُتّا» في الهند، في السادس من أيّار سنة ١٨٦١م، فيكون عند وفاته قد أغلق دورة الثمانين من عمره. وقد طلع علىٰ الدنيا، في الفترة التي أخذ فيها الأدب البنغاليّ يتحرّر من قيود الماضي وعبوديّته، والحركة القوميّة تنبعث صاخبةً في نفوس الشبيبة، تؤجّجها حركةٌ فكريّة، دفعها الناهضون بها إلىٰ الذّروة والأوج. وقد حالفه الحظّ أنه وُلِد «طاغوريًّا»، أي في العائلة التي يُمْكنه فيها أن يجرّب الحياة القوميّة بمعناها الحرّ الزاخر؛ فعائلة طاغور، عائلة براهميّة من العائلات الرئيسة القديمة، إلّا أنها أُخرجت من عداد البراهميّين الأصيلين، لأنّ بعضًا من أفرادها تقاسَم في الماضي الطعام مع المسلمين، فٱبتعد عنها البراهميّون المتعصّبون، ونبذوها، وٱمتنعوا عن التزاوج معها، والٱختلاط بها. وٱسم العائلة القديم «بانرجي»، أما «طاغور» فمعناه «السيّد»، وهو لقبٌ جديد أغدقه المستعمرون الإنكليز علىٰ البراهميّين: «ثاكور». ومع أنّ هٰذه الأسرة لا مكانَ حقيقيّ لها في التنظيم البراهميّ، إلّا أنها كانت في الواقع، أكثر تعصّبًا من المجموعات البراهميّة الأصيلة.

وقد تفتّح «رابندرانات» للدنيا في منزل «الطواغير» في «جُوراسانكو»، القلب الحركيّ لكلكتّا. وتلقّىٰ الحياة من أبٍ متعصّب دينيًّا، حارب بشتىٰ الوسائل حركة التنصُّر الهنديّة، وعمل علىٰ إثارة الشعور البراهميّ ضدّ الأجانب، بإنشاء جمعيّة تضمّ شملهم هي «البراهمو ساماج». كما بذل المال السخيّ لإنشاء مدارس براهميّة قوميّة، تحارب شبيبتُها الغربَ الماديّ، المتكالب علىٰ الهند والبنغال. ومال هٰذا الأب، في أواخر حياته، للهندوسيّة المتعصّبة، فٱنسحب من المجتمع، وعاش في عزلة فكريّة تأمّليّة، ونال من مواطنيه لقب «المهارشي» أي «الحكيم». وقد تلقّف رابندرانات الحياة أيضًا من أمٍّ، ما لبثت أن تُوفّيت وهو لا يزال في المهد صبيًّا. وإذا كانت بعض البيوت تفرض روحها علىٰ ساكنيها، فإنّ «جوراسانكو» لم يكن لها

روحٌ خاصّة، أو بتعبير آخر، فإنه كان لها روحٌ وأرواح؛ فإذا كانت رغبة رابندرانات في حياة اَجتماعيّة، ففي البيت أخوته السبعة، وعددٌ كبير من الخدم؛ وإذا كان يميل للوحدة، ففي المنزل الكبير من الزوايا والغرف ما يكفي؛ وإذا أراد الاَنطلاق وراء حريّة الطفولة، ومرحها، وألعابها، ففيه حدائقُ واسعة وأجواء ملائمة. وفي الواقع، إنّ رابندرانات لم يكن ليشعر بالأُلفة والتعاطف إلّا مع والده. ولما كان هٰذا الأخير كثير التغيُّب، فقد اَنكمش الطفل علىٰ نفسه، واَنصرف إلىٰ العزلة والخيال، «بعيدًا ـ كما خطّ في مذكراته فيما بعد ـ عن مماليكي الفاسدين... فكثيرًا ما كنتُ أقضي سحابة نهاري إلىٰ نافذتي، أرسم في مخيّلتي ما يجري في العالم الخارجي.. وعالمي. وقد كنت أشعر أحيانًا بخوف يتملّكني، ولكنني لا ألبث أن أحسّ أنّ معي زميلًا لا ينفكّ عن صحبتي، وإن لم أكن أعرف ماذا أسمّيه.. لقد أحببتُ روح الطبيعة المستجدّة حولي، حبًّا لا تعبّر عنه الألفاظ. فقد كانت تكشف لي كلّ يوم بل كلّ ساعة لونًا من ألوان الجمال».

وإذا كان كلّ فردٍ يمرّ بطفولته بأحزان شتّىٰ، يشعر بوخزها إلىٰ النهاية، رغم أنّ الحياة تبرهن له علىٰ تفاهتها، فإنّ طاغور مرَّ في طفولته بالكثير منها. وهي لا تختلف في جوهرها وتفصيلاتها عن أحزان أيّ طفل آخر، بالعدد أو بالصفة. فقد آلمته تجاربه الأولىٰ في المدرسة كما آلمت الكثيرين غيره، فكرهها. وساعده والده علىٰ الاَنفلات منها، فقدّم له أساتذةً خاصّين يفتحون أمامه أبواب المعرفة بحرّية واَنطلاق. وهٰكذا رفض أن ينال تعليمًا رسميًّا مقيّدًا، وأن يمتلك شهادة تثبت علمه... وقد حاربته الصحف، حتّىٰ بعد ما نال «جائزة نوبل»، بأنه لا يحمل شهادة علميّة ما، وطالبت بإلحاحٍ ألّا يُقبل كفاحص في فحوص الشهادة الهنديّة العامّة!

وهٰكذا عاش «رابندرانات»، ولديه من الوقت ما لا يعكّره، أو يقطعه، اَنطلاقٌ إلىٰ المدرسة أو عودة منها. فهو حرّ في قراءة ما يشاء، وحرّ في التجوُّل في حدائقه، وحرّ في التفكير والتأمّل، وفي الاَحتكاك بالطبيعة أو المجتمع. فنشأ وهو يؤمن بأنّ الطبيعة قد حلّت محلّ الأمّ التي فقدها، وأنها بمظاهرها المتنوّعة، تحنو عليه حنوّها. فقد قال: «لقد كنت كلّما أشرق عليَّ فجرُ يوم جديد، أَخِفُّ إلىٰ

الحديقة في اللحظة التي أستيقظ فيها، فأعيش مع يقظتها. ويبدو لي أنّ عَبَق الأوراق والحشائش، وقد بلّلها الندىٰ، يعانقني بشغف، وأنّ الفجر بحواشيه المذهّبة، وأشعّة شمسه الخافتة، يُحَيّيني بأبتسامة من خلال أوراق النخيل المرتعشة. إنّ الطبيعة لي كالطفل، يقابلني بيدٍ مقبوضة، ويسألني كلّ يوم بثغر باسم، ما الذي تظنّني قد جمعت عليه يدي؟ وهل كان من الممكن أن يجمع إلّا كلّ عجيب، وغريب، وجميل؟!».

وبعد مرض قصير، حمله والده معه من جوّ «جوراسانكو» المدنيّ إلىٰ الريف، إلىٰ «بولبور»، ذٰلك المكان الذي أرتبط أسمُه بأسمه، للمدرسة التي أقامها بقربه. وقد هامت نفس «رابندرانات»، المتفتّحة بعنف للحياة، والعَطِشة لإغداق الحبّ، بطبيعة البنغال؛ ذٰلك الأمتداد الشاسع الذي أنتشرت في أرجائه شجراتٌ وشجيرات.. تلك السهول المنطلقة بعيدًا إلىٰ الأفق، تلك الأنهار المنحدرة وقد غلّلتها أضواء المساء الحمراء... تلك الأزهار التي ترتعش وتتفتّح تحت لمسات أشعة القمر.

وفي كتابه «بانغالا لاكشمي» يخطّ رابندرانات صورة حيّة لأرضه البنغال، وذٰلك الحبّ الأصيل والعميق، الذي ربطه بها طيلة حياته، فتوطّد وثبت. فقد كتب يقول: «في حقولك وعلىٰ أنهارك، وفي الآلاف من بيوتك القائمة في بساتين «المانغو»، وفي مراعيك وصوت الحَلَب يرتفع، وفي ظلال أشجار الموز الوارفة، وفي المعابد الإثني عشر علىٰ ضفاف الغانج، إنك تشرفين، أي «لاكشمي بنغالا»، علىٰ أعمالك المستمرّة بدأب، ووجه باسم.. وأنت لا تشعرين أنّ أولادك خاملون في عالم البشر هٰذا.. إنك وحدك، أي أرضي، تبقين مستيقظةً عندما ينام الآخرون، مندفعةً في عملك؛ فمن صباح لصباح تفتّحين الأزهار للعبادة، ومن ظُهر لظُهر تطردين أشعّة الشمس المحرقة بثوبك الواسع من الأوراق. ومع الليل، تغطّي أنهارك، التي تنادي التربة للراحة، القمم التعبة بأذرعها المثة. أمّا في ظهيرة يوم الخريف هٰذا، وقد أخذتِ قسطًا من الراحة، فإنك تجلسين بين الأزهار المرتعشة، وأبتسامةٌ خفيّة تضيء شفتيك... إنّ عينيك المحبّبتين، توزّعان العفو والبركة بنظرات صامتة هادئة..

ولا يمكنني، أي «لا كشمي»، أن أتمالك نفسي من البكاء وأنا أنظر إلىٰ صورتك. أنت التي ضحّيت بنفسك ونسيك الحبّ، وأنت صامتة ساكنة».

لقد ٱستنشقتْ روح «رابندرانات»، وهو طفل، وبعمق، سحر ما حوله، حتّىٰ لُقِّب بـ «خلجة الطبيعة». ولكنّ الطبيعة التي تَمثِّل روحها، هي القريبة من مساكن البشر، لا الطبيعة المجرّدة؛ أي طبيعة يملؤها الإنسان: فأنهاره تزخر بالمراكب، وأرضه بالمراعي، والبيوت، والأكواخ. فالبشر ضرورةٌ لازمة لأكتمال جمال الطبيعة، لأنهم هم الذين يُشِعُّون عليها الحياة والجمال. «فيا أيها العالم، طالما أنني لا أحبك وأعيش فيك، فلن يجد نورُك ضياءه». أمّا الجبال العارية الجرداء المتعالية للسماء، فقد مجّتْها نفسه اللهفة لصداقة البشر، لأنها تحجب عنهم ٱنعكاسات الحياة والوجود.

ويرتسم بروده النفسيّ تجاه هٰذه المظاهر الطبيعيّة، في خطابه لجبال الهملايا، حيث يقول:

مذ طفولة الأرض، أي هيمالايا، ٱنبثقتِ من ثدي الأرض الممزّق
وكنتِ تتطاولين من قمّةٍ إلىٰ قمّة، تتحدّين الشمس.
ثم أتىٰ الزمن الذي قلتِ فيه لنفسك: كفىٰ ٱرتفاعًا
فقد توصلتْ فعّاليتُك المغرمةُ بملاحقة الغيومِ الشاردة حدَّها
وتوقّفتِ لتُحيِّي اللامتناهي.
وٱنبرىٰ الجمال، الذي لا يُسأل عن تصرّفاته، يزيِّنُك بالأزهارِ والطيور.
ولكنك، أي هيمالايا، بقيتِ في وحدتكِ
كعالِم، يقرأ كتابًا أرَثَّه الزمن، وبصفحاتٍ حجريّةٍ باردة لا عدَّ لها
وإنّنيَ لا أعرف ماذا خُطَّ فيها: أتاريخُ الوحدةِ بين «شيڤا» الناسك الإلٰهي، و«باهاڤاني» الحبّ المقدّس؟
أم مأساةُ القوةِ والعطبِ السريع؟!

ولم يلبث «رابندرانات» أن غادر «بولبور» إلىٰ «كلكتّا»، ليُرسَل منها إلىٰ

«أكاديمية البنغال»، ثمّ إلىٰ «أكاديمية سان كسافيه». ولكنه رفض التلاؤم مع الدراسة المنتظمة، وهو الذي اعتاد الحريّة، فعاد إلىٰ نمط دراسته السابقة، وأخذ يعُبّ علم الغرب وأدبه، وشِعر الشرق وفلسفته. فاطّلع علىٰ مستحدثات العلم، وقرأ لـ «شكسبير»، و«ميلتون»، و«لامارتين»، و«هوغو»، وتعمّق في «الفيشنافا»، وهي مقطوعات بنغاليّة وجدانيّة. وشرع قلمه يخطّ، وهو في الخامسة عشرة من عمره، أشعارًا ومسرحيّات، عبّر فيها عن تعلّقه بالحياة وحبّه لها. ولكنّه كان يحسّ بضعفها أمام ما يجيش في عقله من أفكار مُثقلة. فغادر الهند إلىٰ إنكلترة، ليلتحق «بمدرسة برايتون». ولكنّه كان يقضي معظم وقته في كليّة آداب جامعة لندن، يستمع إلىٰ المحاضرات فيها. ولم تَستهوِهِ حياة العلم والأدب في بريطانيا، فغادرها بعد عام عائدًا إلىٰ الهند، وهو لا يحمل من رحلته، إلّا ذكرىٰ مناظر جديدة، ومعرفةً أعمق بمسرحيات «شكسبير»، وروحًا حيرىٰ تتوق إلىٰ التعبير عن نفسها. فنشر سنة ١٨٧٧، كصدىٰ لاحتكاكه المباشر مع الغرب، مقالًا عن آمال البنغاليّين ويأسهم، عرض فيه، لأوّل مرّة، فكرته التي ستلاحقه، أو يلاحقها طيلة حياته، وهي حاجة الشرق للغرب، والغرب للشرق. فلو مُزجت حريّةُ أوربّا الفكرية بتقليدية الهند وتحفّظها، وفنون أوربّا بفلسفة الهند، لطلع علىٰ العالم فجرُ حضارةٍ متسامية جديدة.

ولكنه أحسّ أنّ هٰذه المقالات النثريّة لا تسكب عواطفه، وإنما تنفّس عن عقله، ولا تخفّف ضغط ذاته الباطنيّة. فروحه تتخمّر، وشخصيّته ثقيلة، ورؤاه غير واضحة، وفرديّته تطغىٰ علىٰ كلّ ظاهرة من ظواهر الحياة، وقلبه كغابةٍ واسعة لا حدود لها، تائهٌ بين طيّات خضرتها. وانطلقت، من روحه القلقة هٰذه، باكورة شعره «أناشيد المساء»، التي عرفه مواطنوه من خلالها بأنه شاعرٌ مجدِّد، وعرفه العالم بأنه مستشفٌ نفسي، تعمّق في روح المراهقة وسكب دراسته شعرًا. ورغم أنّ هٰذه الأناشيد تمثّل خيالًا لم ينضج بعد، ومرحلة من الحياة يكون تفكير الفرد فيها مريضًا، كما يقول الشاعر «كيتس»، ورغم أنّ جمالها لا ينبثق من عمق معانيها ـ كما سيحدُث لشعر طاغور فيما بعد ـ وإنما من تكرار بعض الألفاظ الموسيقيّة فيها،

إلّا أنها تعتبر ثورة في الشعر البنغالي. إذ لم يَحْذُ فيها «رابندرانات» حَذْو الشعراء من مواطنيه، وإنما آستخدم فيها من الألفاظ الرقيقة، والمعاني الأجنبيّة، والموازين الشعريّة الجديدة، ما أكسبها شهرتها. وتعتبر هٰذه الأناشيد، أعظم مرحلة في حياة رابندرانات شاعرًا، «فللأوّل مرّة ـ كما قال في مذكّراته ـ كنتُ أكتب ما أعنيه حقًّا، وأطرح فيها أحاسيسي ونغمات نفسي، وألحان موسيقاي المتواترة». وترنو علىٰ هٰذه الأناشيد مسحة من القتامة تنسجم مع نفسه الحزينة، ولذا أطلق عليها هٰذا الآسم. وإنّ مطلع هٰذه الأناشيد ـ وهو «روح المساء» ـ ليُنبي عن مجموعها. فقد أعطىٰ لصوت نفسه الداخليّ المراهق، صفة صوت قد ضلّ في تيه المساء، وأنشد:

أي روح المساء! جلستَ وحيدًا تحت السماء اللامحدودة، آخذًا العالم في أحضانك

راخيًا عليه خُصَل شعرك المنسدل، مُكِبًّا فوقه بوجهك الزاخر بالحبّ والجمال.

وبهدوء كنت تسرُّ إليه. فهل لي أن أسألك عن تلك الأناشيد التي كنت تتمتمها في أذنه؟

لقد سمعتُ هٰذه الكلمات يومًا بعد يوم، ولكنني في يومي هٰذا لا أفهمها..

وطرقتْ تلك الأناشيد أذني يومًا يتلوه يوم، ولكنني في ساعتي هٰذه لا أسمعها..

فالكرىٰ يُثقل أجفاني ويُغمضها، وكتلة من التفكير تضغط روحي وتقيّدها..

ولكنّ صوتًا في أعماقي يتجاوب مع صوتك،

صوتًا يطلب المنفىٰ من هٰذا العالم، ويغنّي بآنسجام معك، كأنه جار لك.

أي روح المساء! ساكنٌ في أرضك، قد ضلّ طريقه في أرض روحي الغريبة هٰذه..

إنه يبحث عنك ويتشوّق إليك.
أي روح المساء! كم من الذكريات، والأغاني، وتنهُّدات الفكر، قد ضلّت طريقها في ظلامك..
إنّ أشباحها الهائمة تملأ فراغك..
فهي تجوب في قلب الأبديّة الهادئ، كقطع مهمشّمةٍ من عالم بشريٍّ محطم.

وتفتّقت نفس «رابندرانات» المظلمة هٰذه فجأةً، وأشرق فجرها المنير الحارّ بـ «أناشيد الصباح». وكانت تلك الأناشيد تفجّر نفسه الداخلية خارجًا: فقد تساقطت فرديّته تحت طرق العالم الخارجيّ، وانطلقت نفسه العبقريّة، المفكِّرة بوضوح، من خلال جنبات الاهتمام الذاتيّ، وشقاء المراهقة الغامض: «لقد سقط فجأة عن عيني ذٰلك الستار القاتم، ووجدتُ العالم يسبح في إشعاعات عجيبة، وموجات من الجمال والفرح تتقاذفه من كلّ جانب.. وإذا بتلك الإشعاعات تنفذ خلال ثنايا الحزن والألم التي تجمّعت في قلبي، فانكشف لي الضوء العالمي البرّاق».

ويعبّر شعره، في حركة متلاطمة، عنيفة ومستمرة، وفي معانٍ سعيدة واضحة، عن الحريّة الفجائيّة التي أحبها، والطموح الجامح الذي استغرق نفسَه، فأخذ يهفو للدنيا، وللزمن، وللحياة حوله. ويظهر هٰذا في قوله علىٰ لسان «نهر»:

إنني أنا.. أنا سأحطّم الحجر، وأنفذ خلال الصخور، وأفيض علىٰ الأرض وأملؤها نغمًا.
سأنتقل من قمّةٍ إلىٰ قمّة، ومن تلٍّ إلىٰ تلّ، وأتعمّق في وادٍ وواد
وسأضحك بمِلء صدري، وبصوتٍ رنّانٍ خافق
وبتصفيقٍ من ضفتيّ، سأجعل الزمن يسير في ركابي.

وفي قصائده «أناشيد الصباح»، تظهر انعكاسات العِلم الغربيّ واضحة. إذ فيها يُبدي رابندرانات اهتمامًا شديدًا بهٰذا العلم، الذي اعترفه وتذوّقه وحيدًا، ويبيّن فيها لمواطنيه أنّ إهمالهم إبداعاته الفكريّة، وقوانينه، سيقودهم إلىٰ الهاوية.

وقد عالج في قصائده تلك، الكثير من النظريّات العلميّة، معالجةً شعريّة ساحرة، ممزوجةً بفلسفة حيّة عميقة. وأكثر ما تعشّقه من تلك النظريّات، ما يشرح منها تاريخ الأرض. ففي قصيدته «الحياة الأبدية» و«الموت الأبديّ»، يقدّم لنا حُججًا علميّةً تستند إلىٰ أحدث ما ظهر في هٰذا المضمار. وتغلِب علىٰ أناشيده روح التفاؤل، لأنه كان مؤمنًا، وظلّ مؤمنًا، بالتتابع اللانهائي للحياة وخلودها. وتنساب فيها جداول من الرمزيّة، التي ستغلب عليه في أُخريات حياته، وتظهر هٰذه بصفة خاصّة في أجمل مقطوعاته «الخَلْق والفناء والخَلْق». ويبدأ هٰذه الأنشودة بتركيبٍ عجيب من الصورتين المأثورتين عن بدء العالم: الصورة التي رسمها العلم الحديث، والصورة التي خطّتها الأُسطورة الهنديّة. وبفهم فلسفيّ مركّز، ونسيج شعريٍّ أخّاذ، يجمع شمل الصورتين، ثم يُلهب الفكرةً الموحّدة بتصويرٍ جديدٍ حيّ. فيفتتحها بعرضٍ لـ «براهما» الخالق، وهو يتأمّل الفراغ الهائل الذي لا حدود له، ولا شكل له.. وإلىٰ جواره يقوم ذٰلك الظلام الذي يراقب بذعرٍ وتخوّف، يقظة «براهما» من تأمّله، وكيف لا؟ وقد أنّنت الحياة بأكملها في قلبه.. وفجأةً تتفتّح عيناه، ويتمتم بين شفتيه لحن الخَلْق، وتنطلق من أفواهه الأربعة كلمات الإبداع إلىٰ جميع المسارب، بأنسياباتها اللامتناهية جيلًا بعد جيل. ويمتلئ الفراغُ بينابيع ناريّة، وسُدُم محترقة، تُكوّن نفسها، وتُكوِّر جسمها لتغدو عوالم.. وينبعث النظام الكونيّ، ويزخر الكون بالحياة. ويضطجع «براهما» ليستمتع بالراحة علىٰ «بحيرة ماناس».. ويتأمّل «زهرة اللوتس»، وإذا بالأرض رغبة الكون، تنبثق من التُّويجات برّاقةً بالجمال. وتتعب الأرض والكواكب من قانون حركتها الدائمة، وتتململ، وتنطلق صيحاتها إلىٰ «براهما»، ليستيقظ ويحطّم تلك العوالم القديمة، ويحلّ محلّها أُخرىٰ جديدة. ويتمطّىٰ «براهما»، ويفتح عينيه، وينطلق «شيفو» لهزّ العوالم.. وللمرّة الثانية تضيء النيران الأولىٰ، ويذوب الخَلْق في اللهب، وينتهي الوجود كما أبتدأ، ويغمض الإلٰه الأكبر عينيه، ويعود إلىٰ تأمّلاته.

وفي سنة ١٨٨٣ يتزوّج «طاغور»، وهو في الثالثة والعشرين من عمره، كما كان يتزوّج الهنود من فتيات صغيرات، لم يتعدّين بعد مرحلة الطفولة. ورغم أن

الآنسجام قام بينه وبين زوجه، إلّا أنه شعر بألم عميق لهٰذه الدمىٰ، التي أفقدوها معنىٰ الحياة. فقد آنتزعوا منها جمال الطفولة، وشوّهوا لها جمال الصبا. فآندفع بحرارة شبابه، يهاجم تلك العادات البالية المسيطرة علىٰ مجتمعه الهنديّ، وركّز قلمه وقلبه لحربها. ولم تقف ثورته علىٰ عادة الزواج المبكّر فقط، وإنما شملت محيطًا أوسع: ثورة علىٰ الشعب البنغالي كلّه، ذٰلك الشعب الذي يغطّ في سُبات أقرب إلىٰ الموت، ويعيش في غروره الآريّ، ظنًّا منه أنه قد آكتشف في ماضيه أسرار الوجود، وأنّ حاضر الغرب لم يُضِف إلىٰ آكتشافاته شيئًا. نقم علىٰ الشعب البنغاليّ، لآجترارِه ماضيه دون السعي إلىٰ أيّ تجديد. وناداه بثورةٍ، وحرقةٍ، وإيمان، أن يندفع نحو الإصلاح، والتكتّل واليقظة: «علينا أن نندفع متطلّعين إلىٰ الواقع والوجود، نحن الشعب البنغاليّ، آكل الرز وشارب الحليب». وفي صرخةٍ حادّة من روحه المتمرّدة، تحدّىٰ قومه قائلًا: «إنني أفضّل أن أكون بدويًّا متنقّلًا، وتحت قدمي الصحراء، ويركض جوادي فيتطاير الرمل تحت حوافره، باثًّا تيّارًا حياتيًّا إلىٰ السماء، متنقّلًا ونار تحترق في قلبي، من أن أكون ذا وجهٍ قد حَفرت فيه آبتسامات العبوديّة أخاديد، وجسم قد تقوّس ظهره، للآنحناء الدائم علىٰ قدمَيْ سيّدي، وقد أسكرتني نشوة مداعباته. أيها البنغاليّ آنهض، فإنك تملأ بجشع قبضة يدك، وتجلس في بيتك تتبجّح بأجدادك، ظنًّا منك أنّ العالم كلّه يرتجف خوفًا من قوتك كآريّ».

ورافق تأجّجه الفكريّ وثورته هٰذه علىٰ شعبه، ثورةٌ علىٰ جميع قيود تفكيره الذاتيّ، فخرج من تحفّظه التنسُّكيّ، وغدا شعره أكثرَ حسّية في الألفاظ، وأوسع حريّة وآنطلاقًا في الموضوعات. لقد كان عاطفيًّا ومنفعلًا، أمّا الآن فقد آحتكّ آحتكاكًا أكبر بالحياة وتنوّعت ملاحظاته، وآمتلأت نفسه بعواطف شتّىٰ، وخرج من حدود أهوائه العنيفة. فأصدر من «كاروار»، حيث كان يعيش مع زوجه، قصيدته التي تُعتبر دُرّةَ شعره الرمزيّ ـ الوجدانيّ، وهي «حبّ راهو». وقد تصوّر فيها «رابندرانات» كوكبًا لا جسم له، يبتلع القمر فيسبّب الخسوف، ولكنه لا يتمكن من الآحتفاظ بفريسته. فالقصيدة ترمز إلىٰ ذٰلك الجوع الجسميّ

الأبديّ، الجوع الذي لا يُرضىٰ. فـ «راهو» هو إلٰه الحبّ المولّه الجامح، هو ذئب يصطاد هنا ويصطاد هناك، ويتعلّق بالمادة، ويعيش عليها. إنه نفسٌ مظلمة لا ترىٰ، ولكنها تسمع، وتعيش، وتتنفس.

وقد أتهمه النّقّادة أنه كان، في قصيدته الحسّيّة هٰذه، «بَيْرونيًّا» في حياته. ولكنّ أنسياباتِ شعره لا توحي أبدًا أنّ روح المشاركة قائمةٌ بين نفسه وبينها، كما هي واضحة بيّنة في قصائد «بَيْرون»، وإنما علىٰ النقيض، يُحَسّ من ثناياها أنه ضائقٌ ذرعًا بما ينطلق من روحه من قذائف، وأنه يريد التملّص منها، كما حاول التخلّص في «أناشيد الصباح» من العالم الذاتيّ إلىٰ العالم المفتوح.. «فالرباط الحسّي يُقيّد فكري، ويقتل شعري».

وتجاوَبَ هديرُ نفسه وثورتها لا في شعرٍ حارٍّ دافق فحسب، وإنما أنسكب راقصًا خفّاقًا في الموسيقىٰ؛ فقد صاغ الشعر وزانَه باللحن، وقدّم لبني قومه في هٰذه المرحلة الإبداعيّة الخصبة من حياته، خمسمئة لحن، أنتشرت بين البنغاليّين أنتشار النار في الهشيم؛ ففيها تجديدٌ، وحياة، وقفز وراء المجهول، وأستشفاف للمستقبل، وتفاؤل فلسفيّ صاف.

وكان الزمن يَطوي شهورًا وشعر «رابندرانات» يزداد كمًّا، ويعمُق كيفًا، وفنّه يتّسع أُفُقًا، ويمتدّ فروعًا. فيستقصي من معاني الوجود، الدّفين، والخبيء، ويسعىٰ وراء الإيقاع المستجدّ المثير.. وشرعت المسحة الفلسفيّة تكسو هامات شعره رغم شبابه. وأبتدأت بذٰلك مرحلة الخَلْق الناضج من حياته، وهو لمّا يشارف الخامسة والعشرين من عمره. فقدّم إلىٰ البنغاليّين، وهو في «غازيبور» مدينة الورد والرياحين، ثمرة خصبه العقليّ، وهي «المناسي»، التي أثارت الأوساط الأدبية في الهند، ومنحت «طاغور» لقب «سيد الأناشيد» دون منازع. وقد توصّل في أكبر قصيدة فيها وهي «الأهاليا Ahalya» إلىٰ إحدىٰ ذُرىٰ قوّته التفكيرية؛ فملأها تنبُّؤاتٍ علميّة، وحاول فيها خرق حُجُب المستقبل، وجعل فِكَره الفلسفية تحترق بنارٍ بطيئة خلال السطور الجامدة الثابتة؛ فأوضح فيها وحدة الإنسان والطبيعة، وتعاطفه مع جميع الأشياء الحيّة، وآمن أنّ في الصخور حركات غامضة من الحياة،

وأنّ ما نسمّيه جمادًا ليحسّ بتطوّرات الأرض، وحركة الفصول وتلاحقها. فـ «أهاليا» لعنها زوجها لتآمرها مع الإلٰه «أندره»، فتحوّلت حجرًا، وبقيت مسمّرة في جمادها حتّىٰ لمستها قدم «إمّا» فعادت للشّعور، وقد تفتّحت علىٰ فجر حياةٍ جديدة. وختم «رابندرانات» المناسي بقصيدته «أمواج البحر»، التي ركّز فيها إيمانه الفلسفيّ بقيمة الحبّ، بمعناه الواسع في الخَلْق والإبداع، والتعمير والإنشاء، والحياة والخلود. فمثّل قوىٰ الشرّ القائمة في الطبيعة، بقوىٰ العاصفة الهوجاء، وجابه بها حبّ أمٍّ لطفلها. وقد أُوحيت إليه هٰذه القصيدة بعد غرق مركب يحمل ثمانمئة حاج في طرقه إلىٰ «بوري» سنة ١٨٨٧. والقصيدة طويلة، ومن أروع ما كُتب وصفًا ورمزًا في ميدان الشعر العالميّ. ومن بعض مقاطعها التي يصف فيها العاصفة والحجّاج وموقفهم، المقطعان الأوّل والأخير:

وٱمتزجت الآفاق بغموضٍ وإبهام، وغدا المحيط الأزرق أسودَ مظلمًا،
وٱندفعت المياه، والزّبَد مِلْءَ شدقيها تصدم بعضها بعضًا،
وتبحث عَبَثًا عن شواطئها.
ونادىٰ حُجّاجُ المركبِ اللهَ قائلين: «أيها الربّ! كن شفوقًا، وأنقذْ حياتَنا ووجودَنا!
أين شمسُنا؟ أين قمرُنا ونجومنا؟ أين فرحُنا وثقتنا؟ أين أحضانُ أرضِنا؟ أين منازلُنا؟
أيها الربّ! إنك لست الربّ.. فلا شفقةَ لديك ولا حياةَ ولا عطف!
وخَفَت النداء.. وفي رفّة عينٍ ٱنتهىٰ كل شيء وكأنه لم يَحْدثْ.
أيّها الربّ! لماذا وُضع عقلُ الإنسان المُترع بالحبّ وسط هٰذا الجحيم؟
فهل لعبة الإلٰه الأبديّة أن تخلق وتُفني، وتبني حبًّا وتدمِّر جسمًا؟!

ورغب «طاغور»، بعد حياة السكينة والخَلْق التي قضاها في «غازيبور»، أن

ينطلق سائحًا في أجواءِ وطنه، ومنها إلىٰ أجواء العالم خارج آسيا. ولكنّ والده «المهارشي» طلب إليه أن يتفرّغ للعناية بمزارع الأسرة في «شيلايدا» علىٰ ضفاف «الغانج»، فصدع بما أُمر، إنما علىٰ مضض، لأنّ الحياة التي دُفع إليها، لا تنسجم مطلقًا مع ما يميل إليه من بحثٍ، وعلم، وأدب. ولكن ما لبث أن أغرق نفسه في حياة الزراعة. لقد أحبّها لأنها قرّبته من الطبيعة، وجعلته يحتكّ مباشرةً بالعامّة، فأخذ منهم أساطيرَهم، وأقاصيصهم، وأمثالهم، وعرف ما يكنُّون، وبماذا يفكرون وبماذا يشعرون. وجمع إلىٰ تجربته الشعرية هٰذه، التي عرّفته «هندَهُ» في أصولها، ما تركته رحلته الثانية إلىٰ بريطانيا في نفسه من مخلّفات. فأصدر من ركنه الريفيّ أخصب إنتاج له، مُمثَّلًا في «السدهانا»، و«سوناتري»، و«شيترا». وقد عالج في «السدهانا» (أو كُنه الوجود)، كلّ منحىً من مناحي الحياة؛ فضمَّنه الاجتماع، والسياسة، والاقتصاد، والأدب، والفنّ، وعرض فيه فلسفةً سافرة عن أبديّة الحياة وخلودها، ونادىٰ فيه الإنسان، بحرقة، إلىٰ تبادل الحبّ والعطف مع الطبيعة. فليست الروح متنافرةً مع الطبيعة، ولا الطبيعة مناقضةً للروح، وإنما هي وقودٌ للهيب الروح؛ والإرادة البشريّة، لتَستمدُّ قوّتها مما يحيط بها؛ فنحن لا نعيش في جوٍّ علينا أن نعمل علىٰ حربه، وإخضاع عَصِيّه، كما يعتقد مفكرو الغرب، وإنما في وجودٍ منسجم معه، يُغدق علينا الحبَّ والنعيم، بقدر ما نُغدق عليه التعاطف والتحابّ.

أما كتاباه الآخران، فقد تفتّق فيهما شيطان شعره أو «الجيبانديباتا» أو «واجب الحياة» كما أسماه. فرغم أنّ «رابندرانات» لم يكن ليؤمن إيمانًا راسخًا بفكرة التّناسخ، التي تسيطر علىٰ التفكير الهنديّ، وهٰذا يعني أنّ الروح في مجموعها هي أوسع ممّا هي عليه في حاضرها المنظور، إلّا أنه كان يعتقد أنّ هناك نفسًا باطنيّةً أكثر عمقًا وغنًىٰ من النفس الظاهريّة. وهٰذه النفس الباطنيّة الزاخرة، تبحث عن التعبير عن ذاتها عن طريق النفس الظاهرة. فـ «الجيبانديباتا» هي تلك النفس العميقة التي توحي للشاعر، والشعر يعبّر عنها. وهي التي تلمح الأبديّة من ثنايا الزمن، وتستخرج من مظاهر الأشياء الناقصة الزائلة، الجمالَ الروحيّ الباطن، فهي لا تقلّد الحياة وإنما تعيش فيها.

وفي كتابيه هٰذين، يُنكر «رابندرانات» وبشدةٍ وبإلحاح، تعاليم مفكّري الهند، التي تقول إنّ مظاهر الأرض ليست إلّا حلمًا، ويدافع عن تلك المظاهر بصفتها حقائق ثابتة قائمة. ويبدي فيهما حبًّا جارفًا للأرض ومَنْ عليها، ويسطّر فيها ثورةً مكبوتة وخفيّة علىٰ السماء. ويعرض اتّجاهاته الفلسفيّة هٰذه، مصوغةً بقوالبَ شعريّة وتلميحاتٍ رمزيّة عميقة. وقد قال عن كتابيه هٰذين: «ربما تكون «المناسي» هي التي شهرت أسمي ورفعته بين شعراء الجيل، ولكن «سوناتري» و«شيترا» هما اللذان أفسحا لي مكانًا بين الشعراء».

وأبدع ما في «سوناتري» جدّة الموضوعات، وعمق الفِكَر، ورمزيّة الشعر، ووسوسة اللفظ. وأكثر ما اشتهر من ديوانه هٰذا، قطعتا «العودة» و«أورفاشي». ويدور الموضوع الأول حول روح فقدت مظاهر مثاليّتها، وهي علىٰ وشك العودة إلىٰ الأرض، إلىٰ التّناسخ الجسديّ. فأخذت تودّع الآلهة مارّةً بينهم وهي تقول:

إنّ عقد زهور الماندار قد أخذ يذوي علىٰ جيدي، والعلامة المشعّة أخذت تنطفئ من علىٰ جبيني وتململ الزمن من مكافآتي..

لقد حان لي أن أترككم جميعًا، آلهة وإلٰهات.

لقد عشت بينكم في بركة كإلٰه في السماء، عشرة ملايين سنة.

وفي هٰذا اليوم، وفي لحيظة الوداع هٰذه، كنت أتمنّىٰ أن أرىٰ آثار الدّموع في عيونكم السماويّة..

ولكن أرض الأفراح العلويّة هٰذه، التي هي أرضكم، لا دموع في مآقيها، ولا ألَمَ في ربوعها، ولا قلب لها.

إنها لتنظر إليّ بجحودٍ وجمود؛ فليست مئات الآلاف من السنين إلّا رفّةً من أهدابها.

فعندما نبلغ من العمر عتيًّا، ونهبط من منطقة الآلهة كنجوم طُردت من منازلها، وذبل جمالها،

نحو تيّار العالم الأبديّ من الموت والميلاد،
فإنّ السماء لا تشعر أكثر مما يشعر غصن الشجرة، عندما تنسلخ إحدىٰ أوراقه الصفراء الذابلة عنه.
أبقي أيتها السماء بوجهك الضاحك! وأشْرَبْنَ، أيتها الآلهة، رحيقكم، فالسماء مكان بركة لكم وحدكم
أمّا نحن فمنفيّون في سمائكم، وإنّ أمّنا لهي الأرض وليست السماء.
فمن عينيها تنبثقُ الدموعُ إذا فارقها أحدُ بنيها بعد إقامةٍ قصيرة فيها.
وإلىٰ جسمها الترابيّ تضمُّ الكبير والصغير، والضعفاء، والغارقين في الخطيئة،
والمتمرّغين في تراب الخمول، والمنسيين..
لِيَجرِ رحيقُ الأبديّة في سمائكم، فلدينا نحن نهرُ الحب،
الذي يمزج في مياهه دومًا السّرورَ والألم،
ويبقي سماواتِ الأرضيّة الصغيرة، خضراءَ ومُخضّلةً بالدموع.
أيتها الدنيا! أي أمي الأرض، الشارقة بالآلام والدموع،
إنّ عينيَّ اللتين جفّتا مذ غادرتُك، عادتا دامعتين.
وهٰذه السماء التي سأتركها ستتلاشىٰ كخيالٍ كسول.
إنني لأُشاهد من خلال دموعي، وكانعكاسٍ علىٰ مرآة،
سماءَك الزرقاء، وضياءك، ومنازلَك المزدحمة، وشواطئك الممتدّة علىٰ البحار،
والثلجَ الأبيض يتوّج هاماتِ تلالك البنفسجيّة، وشروقَ الشمس الهادئ بين أشجارك.
«أيتها الأم! إنّ الدموع التي ذَرَفْتِها في وداعنا قد جفّت،
ولكنني مؤمنٌ أنه في أيّ وقتٍ أعود إلىٰ منزلكِ،
فإنّ ذراعين سيُمسكان بي ويحتضناني،

وستصدحُ أنغامُ التّرحيب بمقدِمي، وستستقبلينني كواحدٍ عرفتِه دومًا.

وستسهرين عليّ، وتظلّلينني بالعطف والحبّ.

وبعد أن تضمّيني إلىٰ صدرك، سترفعين طرفك الهادئ إلىٰ الآلهة،

طالبةً إليها بتوسّلٍ، ألّا تفقديني أنا الذي ملكتِ، ولكنك لا تملكين.

وإذا كانت هٰذه القصيدة تمتاز بالفِكَر المستجدّة، والصّور الناعمة، وتمجيد الأرض وأفراحها، والنّقمة علىٰ السماء وجمود عواطفها، والطموح في الخلود عن طريق ألم الآخرين، فإنّ «أورفاشي» هي أقوىٰ ما أنبثق من قلب «رابندرانات» فكرةً، وصورة، ونغمًا، حتّىٰ قال «إدوار طومسون» مترجمُه، «إنه منَ العسير جدًا، أن تُقدِّم أيةُ ترجمةٍ لهٰذه القطعة، خصبَ الفكرة التي تتلاطم بين أبياتها، أو لحنَ الموسيقىٰ الذي يعقد بين ألفاظها ومعانيها». فـ «أورفاشي» هو العقد الذي يرميه «رابندرانات» علىٰ قدَميْ الجمال المطلق.. والقارئ يشعر بلذّةٍ كبيرة، ومتعة، لأنه وجد أخيرًا شاعرًا تناسىٰ في الجمال، جمالَ العيون، وأرتعاش الشّفاه، وتمايس القدود، ووصف جمالًا مُطلقًا بعيدًا عن الهَنات الجسديّة. فـ «أورفاشي» حسب الأسطورة الهنديّة، حوريّةٌ أنطلقت من المحيط الصّاخب، الذي كان يبحث بهياج عن أكسير الخلود الضّائع، فغدت الراقصة الأولىٰ في سماء «أندره»، مَلِكِ الآلهة، ومحظيّةً له. وقد أضفىٰ «طاغور» من خياله علىٰ الأسطورة، فأخرجها قطعةً رمزيّة؛ فـ «أورفاشي» ليست راقصة الآلهة القاطنة في السماء، والمعبودة من مَلِك الآلهة فحسب، وإنما هي روحُ الحياة الكونيّة، في دوّامات رقص أبديّ. إنها الجمال المنفصل عن العلاقات البشريّة، إنها الحبّ العالميّ الذي يحرّك الشمس والنجوم. إنها فينوس «لوكرشيوس»، وإلٰهة «سوينبرن»، وإلٰهة الربيع في الأساطير الجرمنيّة. فالقطعة مزيجٌ من الأساطير الهنديّة، والفكر الغربيّ والعلم الحديث. وتتوج «أورفاشي» المرحلة الإبداعيّة الكبرىٰ الأولىٰ لـ «طاغور»، مرحلة «السدهانا». وفي

أعتقاد كثير من النقّاد، أنّ عبقريّته قد وصلت فيها إلىٰ ذُراها. وقد يكون الحكم مُبالَغًا فيه، لأنه يجب ألّا تنسىٰ مقطوعتاه «كالبانا» و«بالاكا»، اللتان أصدرهما فيما بعد. ولكن لا بدّ من التأكيد هنا، أنّ بعض ميزات شِعرِه القائمة في هٰذه المرحلة، ستُفتقد فيما بعد، ويحلّ محلّها أخرىٰ: فلن يُطلِق الشِّعر عفويًا سهلًا كما أطلقه في «أورفاشي»، ولن يترك لِفِكرهِ العنان كي يتقدّم ويقفز حيث يشاء، وإنما سيغطّيه في المستقبل ضبابُ التساؤل عن المصير، وستحوطه هالات التفكير الدينيّ، والتنسّك الروحيّ.

وسأعرض لبعض مقاطع من «أورفاشي» بترجمةٍ نثريّةٍ عن الإنكليزيّة لشعر معقّد:

أورفاشي! إنك لستِ أمًّا، ولست عذراءَ، ولست خطيبة!
أورفاشي! إنك جمالٌ تطاير إلىٰ الجنان.
فعندما يعود المساء بقطعانه، لا تهيّئين أنوارَ منزلك لبعلِك، ولا تدخلين بقلبٍ واجف، وأبتسامةٍ مرتعشة بيت الزوجيّة المقدّس.
إنك كالفجر المشرق، أورفاشي! فيض البديع الذي خلقك.
فلقد أندفعت من الأمواه، في أوّل صباحٍ لأوّلِ ربيع، وأنت تحملين كأس الحياةِ في يدك اليمنىٰ وكأسَ السمّ في اليسرىٰ.
فهدأ المحيط الصّاخب الأهوج كحيّةٍ سُعرت، ومسح رؤوسه علىٰ قدميك. كيف لا؟ وقد أنبثق سحرك المشعّ من الزَبَد عاريًا، صافيًا كزهرة الياسمين.
وإنني لأسألك: هل كنتِ مرّةً في حياتك طفلةً حيّةً خَجِلةً، أورفاشي، أيها الشباب الخالد؟
وهل نمتِ يا أبنة أسرّة المرجان، في أعمق ليالي المحيط الزرقاء الرّقراقة بين إشعاعات الجواهر الصدفيّة؟
بين المخلوقات المتعدّدة الأشكال التي تثوي في باطن المياه،

والاّبتسامة ترفرف على شفتيك الطّاهرتين؟
إنك معبودةُ البشر في جميع الأماكنِ والأزمانِ أيتها الأُعجوبةُ الخالدة،
فالعالم يتحرّك بألم مسعور لمجرّد نظرةٍ واحدةٍ من عينيك،
والنُّسّاك يطرحون على قدميك نُذورَ تقشُّفهم ونُسكِهم،
وتدور أناشيد الشعراء، كالنّحل حول الأزهار، في عبير وجودك...
إنّ قدميك اللذين يرفعهما،
فرحٌ لا همّ فيه، يَرِنّان على أجنحة الهواء رنينَ الأجراسِ الذهبيّة.
إنك ترقصين أمام الآلهة مجتمعين، أورفاشي! وكأنك موجةٌ متلويّة،
باعثةً ألحانًا جديدةً في الفضاء، وإشعاعاتٍ حياتيّةً في الوجود.
وتُحسُّ الأرض بضربات قدميك، فيرتعش عشبها ويخضوضر،
وتهتزّ حصادات الخريف، وترتفع البحار بأمواجها الصاخبة،
وتتكسّر الكواكب، تلك اللآلئ التي نُظمت في عقدٍ زانَه جيدُك،
وتتساقط من السماء هاربةً...
وتخفُق القلوبُ البشريّة بوجيب وحيوية متجدّدتين.
لقد كنت الأولى، أورفاشي! التي حطّمت نومَ العصور، وجعلت الهواء يصدح برعشةِ القلق.
إنّ العالم يغسلك بدموعه، ويغطّي قدميك بدم قلبه،
إذ أنك، وأنت الهيفاء الرقيقة، تبحثينَ عن الاتّزان والاّستقرار على قوقعة لوتُس اللذّة
ألا تعلمين أنك تلعبين بالعقلِ اللامحدود، الذي يصيغ فيه «أندره» أحلامَه المتعدّدة؟
أسمعي الصّراخ والأنين اللذَين يتصاعدان من أجلك، أورفاشي، أيتها القاسية!

هل ستعودين إلىٰ الأرض بشَعرِك المبلَّل؟
إنها لن تعود! لن تعود.! فقد اتّخذت مسكنًا لها السماء
ولكنها ستُطلِقُ أنفاسَها إلىٰ الأرض مع أمل كلّ ربيع.

وإذا كان «رابندرانات» قد وصل في مرحلة «السدهانا» إلىٰ إحدىٰ ذُرىٰ عبقريّته كشاعر، فإنه ودَّع القرنَ التاسع عشر بإحدىٰ ذُرىٰ عبقريّته كمسرحيّ. فقدّم مع «سونا تري» مسرحيةَ «شيترا»، التي مُثِّلت علىٰ مسارح العالم، ولاقت في الهند وخارجها، من التّقدير والإعجاب، ما أحلّ «طاغور» بين شعراء العالم المسرحيين لا شعراءَ الهند فحسب. ويمكن هنا تلخيص عمل «رابندرانات» المسرحيّ طيلة حياته بعقده تحت ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولىٰ، وتضمّ باكورةَ إنتاجه في هٰذا المضمار، أو بتعبيرٍ آخر، مسرحياته الشعرية المقفّاة، وغيرَ المقفّاة، التي من أشهرها «شيترا» و«لعنة الوداع»، وكلها تشبه المسرحيّات الشكسبيريّة الكلاسيكيّة، بخمسة فصول.

والمجموعة الثانية، وتضم مسرحيّاته القصيرة، التي تدور موضوعاتها حول بطولة حربيّة، أو قصة سنسكريتيّة قديمة. والحوار فيها أبياتٌ من الشعر، قصيرةُ المقاطع مقفّاة. وفيها يُبدي «طاغور» أعظمَ قدراته المسرحية. فدراساتُه الهادئة لا تصف الحياةَ فقط، وإنما تلتقطها في كلّ ركنٍ وتأسرها. وتنوّعُ هٰذه المسرحيّات كبيرٌ، ولكنّ مسرَحَها ضيّقٌ وفقير، وأشهرها «ساتي».

والمجموعة الثالثة، وهي مسرحياته التي انبثقت من نضج حياته، فكلها نثريّة، وهي مسرحياتٌ رمزيّة، تتلاشىٰ فيها نارُ الاهتمام الشخصيّ البشريّ، الواضحة في مسرحيّاته الأولىٰ، لتسيطر عليها الأفكارُ المجرّدة. ويحتكر مسرحها الأفكار الفلسفيّة المطلقة. وهي لا تقلّد النمطَ الشكسبيريّ أو السّنسكريتيّ، وإنما تُساير الحركةَ الأدبيّة المعاصرة، التي تسعىٰ لجعل المسرحية مركبًا من جميع الفنون: التمثيل، والرقص، واللباس، والموسيقىٰ. وأشهر مسرحيات هٰذه المجموعة «التيّار الحر» و«فالغوني».

ويلاحظ في فنّ «رابندرانات» المسرحيّ عامة، أنه قد اتّخذه وسيلةً لنقل أفكاره، أكثرَ من كونه تعبيرًا عن الحركة، والعمل. فشخصيّاته لا تتحرّك وإنما تفكّر، وقد تنوء الشخصيّة أحيانًا تحت ثِقَل الفكرة فتمجّها النفس، وتشعر بضيقٍ منها. ومن ثَمّ، كانت مسرحيّاته الأولىٰ أكثرَ نجاحًا علىٰ المسرح من الأخيرة، رغم أنه يعتبر الأخيرة ذُروة إنتاجه. ومسرحيّة «شيترا» قد لاقت قبولًا عامًّا، وأُعتُبرت دُرّةَ مسرحيّاته، لأنها جمعت قوّةَ الفكرة، وحرارةَ الحركة، وسحرَ التعبير. وقد جمع فيها علىٰ نمط مسرحيّات «شكسبير»، شخصيّاتٍ إلٰهيّة وأخرىٰ بشريّة: «فشيترا» هي ٱبنة الملك، وقد رُبّيت تربيةَ الصّبية، فنشأت ولا أنوثة في جسمها، ولا رقّة في صوتها. نشأت قنّاصةً ماهرةً، وإداريّة حازمةً، يحبُّها شعبها ويقدّسها. ولكنها تكتشف، بعدَ جولاتٍ لها في الغابات، أنها ٱمرأة قبل أن تكون ملكة.. فلقد أحبّت الشاعر «أرجونا»، فنقمت علىٰ قبحها. وتدور أحداث المسرحية في الغابة، مقتصرةً علىٰ أربع شخصيّات: «شيترا» و«أرجونا»، وإلٰه الحبّ «مادانا»، وإلٰه الشباب «ڤاسانتا». ويصوّر «رابندرانات» فيها الإحساساتِ العميقة التي يمكن أن تشعر بها ٱمرأة، أكانت جميلةً أو قبيحة، عندما تحبّ. ويفتتح مسرحيّته بحوارٍ رقيقٍ وسام، بين ٱبنة الملك والإلٰهين: فيعرّف إلٰه الحبّ بنفسه قائلًا: «يا ٱبنة البشر تسألين؟! أنا أوّل من وُلد في قلب الخالق. إنني أنا الذي أربط برباطِ الألم والسرور حياة البشر..». ويتقدّم «ڤاسانتا» ليُطلعها هو الآخر علىٰ حقيقته: «إنّ الشيخوخة والموت يوديان بالعالم إلىٰ العدم، وأنا الذي يتابعهما دومًا ويهاجمهما.. أنا الشباب الأبديّ». وتلتفت «شيترا» وقد غُصّت بحرقةٍ جديدة في قلبها، لتقدّم ٱحترامها للإلٰهين، وترجوهما قائلة، وهي ملكة المستقبل: «أعطياني، أيها الإلٰهان، يومًا واحدًا أغدو فيه جميلةً جدًّا كإزهار الحبّ المفاجئ في قلبي. أعطياني يومًا واحدًا من جمال كامل وأنا أجيبكما عن الأيام التي تأتي». وأجاب إلٰه الحب طلبها، وأضاف صديقه حبّتين، وأترع كأسها بكرم، «لا ليوم واحدٍ، وإنما لسنةٍ كاملةٍ سيبقىٰ ربيعُ الحياة مُزهرًا حول ساقيك». وتحابّت «شيترا» مع أرجونا حبًّا عنيفًا وعميقًا.. وفجأةً، وفي نشوة أحلامها الذهبيّة، تشعر أنّ شبح جسمها السابق يعودُ إليها، جسم صيّادة ذات عضلات ضخمة. فترفع صوتَها إلىٰ السماء متأوّهةً، فيناديها إلٰه

الشباب قائلًا: «أواه! كم أنت لجوجٌ يا ٱبنةَ البشر.. لقد سرقتُ من بيت الآلهة خمرَ السماء، وملأتُ به ليلةً أرضيّة واحدة إلىٰ الشفة، ووضعتُها في يدك لتشربي... ومع هٰذا فلا أزال أسمع صوتَ الشّوق والرغبة يتصاعدُ من روحك ويملأ الفضاء». فتجيبه «شيترا» إنّ جسمها الذي ٱكتسب حبّ «أرجونا» قد غدا منافسها البغيض: «إنّ هٰذا الجمال المُعار، هٰذا الغشّ الذي يلبسني سيتساقط عني، كما تتساقط التُّوَيجات من زهرةٍ قد تمّ تفتّحها. وسيبقىٰ مني ٱمرأةٌ خَجِلة من فقرها العاري، باكيةً ليلًا ونهارًا». فذكّرها فاسانتا «أنّ جمالها سيعودُ غدًا إلىٰ جمالِ الدنيا، إلىٰ جمال الورق والزهر». وفي يأسها تستعطف الإلٰه قائلةً: «أي «ڤاسانتا»، ليبدُ إذًا جمالي في هٰذه اللّحيظة الأخيرة ربّانيًّا، ناصعًا كومضةِ الحياة قبل الموت». ونالت أُمنيتَها، لترىٰ ألّا فائدة منها. «فأرجونا» يحلم «بشيترا» الطّاهرة التي تحافظ علىٰ أرواحِ رعاياها وتُغرقهم حبًّا فيُغرقونها تفانيًا وإخلاصًا. إنّ روحه لدىٰ «شيترا» صيّادة الغَابة. فتنبري «شيترا» وقد أمضّها ألمٌ دفين، لتقول له: «إنّ بطلة أحلامك لا جمالَ فيها، فهي كروح صباحٍ بارد، قائم علىٰ قمّة جبلٍ حجريّ، وقد حجبت الغيومُ السوداء النّور عنه». وتنتهي المسرحيّة بكشف «شيترا» بحرقةٍ وكبرياءٍ عن نفسها، إذْ لم تستطع إخفاء الحبّ الذي يأتكل ذاتها. ويُجيب «أرجونا» بحيرة، بأنه سعيدٌ لتجاوب تجربته مع أحلامه.

وبـ «شيترا» يودِّع «طاغور» الشعر غير المقفّىٰ، وينتقل في «لعنة الوداع» إلىٰ الشعر الموزون. وقد أضفىٰ هٰذا النوع من الشعر موسيقىٰ وحركة علىٰ مسرحيّته هٰذه. وتألّق شعره الوجدانيّ في قلوب شخصيّاتها الإلٰهيّة والبشريّة، حتّىٰ بلغ في خلجاته وٱنسياباته الذروة والكمال.

و«لعنة الوداع» صراعٌ بين هوىٰ الأرض وحبّ السماء، صراعٌ بين قلبٍ وعقل، بين طبيعةٍ وعلم. وفيها يُمثّل «طاغور» «كاش» ٱبن «بريهاسباتي» معلم الآلهة، وقد أنهىٰ مرحلةً هامّة من دراسته. ولكن في الحرب القائمة بين الآلهة والتنانين، كان كلّ تِنّين يموت، يُعاد إلىٰ الحياة بفضل علم «سوكرا» فيلسوف التنانين. فأرسلت الآلهة «كاش» ليكتسب هٰذا العلم بأيّة طريقةٍ من «سوكرا».

وبمساعدة «ديبْجاني» ٱبنة هٰذا الأخير، يتمكّن «كاش» من التدرّب علىٰ يد «سوكرا»، وٱكتساب المعرفة. وأجمل الفصول في المسرحية، فكرةً، وشعورًا، وشعرًا، الفصلُ الأخير، حيث يستأذن «كاش» «ديبْجاني» بالسّفر والعودة، فتقوم المحاورة التالية بين الطرفين:

ـ باركيني يا ٱبنة «سوكرا» وَأْذَني لي بالسّفر، فقد ٱنتهىٰ عملي وحان موعد عودتي إلىٰ السماء.

فتجيبه «ديبْجاني»، وقد ٱرتسم حبٌّ حائرٌ دَهِشٌ علىٰ وجهها وفي مقلتيها:

ـ أليس لديك، «كاش»، قبل أن تودّع عالَمنا هٰذا، رغبةٌ تحتضنها وتخفيها عنّا؟
لا ترحلْ يا ٱبن الآلهة وأنت تحمل بين ضلوعِك همًّا، لأنّه سيأتكل جنبات روحك، ويهصرها هصرًا.
ـ لا، «ديبْجاني»! فليس من همٍّ في قلبي، ولا رغبةَ لروحي إلّا العودة إلىٰ السماء حاملًا معرفتي.
ـ «كاش»! أليس في أيامنا الخوالي ما يذكّرك بعطف، أو يستثيرك إلىٰ ندم؟
أتَذْكرُ شجرةَ الموز التي رعينا البقر معًا في ظلالها؟
والنهرَ الذي ٱنساب رقراقًا تحت أقدامنا؟
والنسيمَ العليل الذي تغلغل في جسمينا وروحَيْنا؟
ـ «ديبْجاني»! ستظلّ تلك الذكريات مرتسمةً في مخيّلتي كيومها الأول،
وإنّ الربوعِ التي ذكرتِ ستبقىٰ الموطن الحبيب.

وهنا يأخذ شعر «رابندرانات» يرتعش ويهتزّ تحت عاطفةٍ أعمق، وتنطلق همساته وموسيقاه الضّاجّة ترافق بوح «ديبْجاني» بحبّها الأرضيّ، وذكرياتها الخاصّة، عفويّةً، طلقة، حرة:

ـ أفلا تذكرُ، «كاش»، اليوم الذي وصلتَ فيه؟
ألا تذكرُ كيف ٱلتقيتَ بي، وشعري المبلّل قد تساقط علىٰ ثوبيَ الأبيض؟
أَتَذْكُر، أتذكر، كيف تناولتَ سلّة الزهر من يدي، وجمعتَ الورود لي، فغدونا صديقين؟
أنسيتَ كيف أخذتُك إلىٰ أبي ضاحكةً وقلت له: لقد أحضرتُ لك، أبتِ، ضيفًا، وأطلب منك مطلبًا.
ووضع يده علىٰ رأسي، وأجاب بلهجةٍ محبّبة:
«ديبجاني»، أي روحي! لا أرفض لك طلبًا.
فأجبتُه أنا: ٱبن «بربها سباتي» ببابِنا،
يطلب معرفة سرّ الحياة منك ومن أرضنا،
فهلّا جرّعته علمك وعلمنا؟
أواه كاش! كم من السنين مضت ومرّت، وهي لا تعدو في فكري يومًا واحدًا!
ـ ديبْجاني! لقد طوّقتِني قيدًا، ولن أنسىٰ لجميلك ردًا.
وتصرخ «ديبْجاني»:
ـ كاش! أين الجميلُ من حبّي، وكم أنت بعيدٌ عني!

ولم تتمكّن حتّىٰ هٰذه اللحظة أن تصدّق أنها أخطأت في قراءة قلبه. فٱندفعت بحرارة حبّها وعاطفتها تقول:

ـ دَعْ عنك «كاش»! السماءَ وأهلَها، والآلهةَ وعطفَها،
ولنعش سعيدين علىٰ الأرض معًا، «فأندره» لم يعد «أندراك».

ويصمت «كاش»، فتثور ديبْجاني ثورة المطعون في ذاته وحبّه، وتقول له مرتعشةً:

ـ آه، «كاش»! لقد ٱستخدمتَني لعبةً ووسيلة تُقرّبك من معرفة أبي،

وعصفتَ بعواطفي وأدميتَ قلبي.

ويردّ «كاش» بألمٍ عليها:

ـ الصفحَ، «ديينجاني»! لقد أحببتُ كما أحببتِ، ولكنّ المعرفة أقوىٰ من حبّي.

ـ «كاش»! الصفح مني وقد أحببتُ ولم أُحَبّ؟ أم الصفح لك والرحمة وقد أُحبِبتَ ولم تُحِبّ؟

لا «كاش»! عُد إلىٰ سمائك بسلام، ولتحُق اللعنة بمعرفتك. ستعلِّمُ الآخرين سرَّ ما تعلمتَ، ولكنك لن تتمكّنَ أبدًا من تطبيق علمك، إذ لن يعيدَ الحياة إلّا من أحبّ!

وكأنما آستنفدت هٰذه المرحلة من «طاغور» قسمًا كبيرًا من حرارة روحه، فمال بعدها إلىٰ الهدوء. وأخذ القرن التاسع عشر يغلق علىٰ نفسه، ويتفتّح قرنٌ جديد. وأخذت الحركة القوميّة في بلاد البنغال تقوىٰ وتشتدّ ضد بريطانيا، التي ظهر ضعفها واضحًا بعد «حرب البوير» في أفريقيا الجنوبيّة. وتقلقلت الحياة في الهند، وآنعكست أصداؤها علىٰ نفس «طاغور»، فآندفع من عزلته يشارك وطنه في حركته. وآندمج في معترك النّشاط السياسيّ، وله من شباب جسمه، وخَلْق تفكيره، وحرارة عواطفه، ما يؤجّج الجماهير ويثيرها. وقد أثّر نشاطه السياسيّ هٰذا علىٰ نشاطه الأدبيّ وإنتاجه، فضعف معين شِعره. وغدا حصادُه موزّعًا، وأشبهَ بجزيراتٍ في مسيل تيّار متدفّق، يدور ماؤه حولها، وتُفرّعهُ هي إلىٰ آتجاهاتٍ متعدّدة. ورغم عواطفه القوميّة الحارة، فإن طاغور لم يكن شعبيًّا، لأنّ تفكيره القوميّ الإنسانيّ لا يتلاءم البتّة مع تفكير الشبيبة الصاخب. فهو لم يفهم من القوميّة الوحدة السياسيّة للهند، كما طلبتها القوميّات الأوروبيّة لنفسها، وإنما فهم منها الحريّة والحقّ المطلق في تقرير المصير. فهو يؤمن بالهند وبإمكاناتها المستقبليّة، وماضيها المجيد، ذٰلك الماضي الذي لا يتمثّل في حروبٍ خاضها ملوكها، أو في إمبراطورية بناها أقوياؤها، وإنما في حضارتها، وفي فلسفتها، وفي آعترافها بالقيم الإنسانيّة،

ورسالتها التي ترنو إليها وهي التحضير الاجتماعيّ. فالهند لن تبعث قوميّتها عن طريق محاربة الأجنبيّ فيها، وإنما عن طريق بعث روحانياتها. لقد كان «طاغور» يكره الحرب كـ «تولستوي»، ويحنو على الفلاح والمنبوذ، ويعتقد أنّ الحزبَيْن، المؤيّد والمعارض للحكومة، لا يسيطر عليهما سوى فكرة الحكم. فعليهما أن ينسحبا من الساحة ليفسحا المجال لمصلح اجتماعيّ، يعمل على إلغاء الفروق الطبقيّة، ويرفع من مستوى الصحة، والأحوال الاجتماعيّة. وبعد أن تنسى الهند حزازاتها الخاصة، ستنير للعالم طريق الإنسانيّة. ولم يفهم البنغاليّون بمنطقهم القوميّ الثائر والمتحدّي، اتجاهات طاغور السّلمية، فانفصلوا عنه وحاربوه. فتركهم في بحران نزاعاتهم يعمهون، وانطلق إلى «بولبور» ليستقرّ في «سانتينكتان». وتبعد هذه القرية ميلين عن «بولبور»، ويمتد حولها سهلٌ جافٌ قاحل. وهنا بنى «رابندرانات طاغور» مدرسة للهند وللإنسانيّة. بناها في الرقعة التي يتمكّن فيها الفرد أن يفهم قسوة الشمس المحرقة، وعنف الرياح المدمّرة، وسعة السلام، وامتداد الهدوء. إنّ الحياة في مكان كهذا، تُنضج العبقريّة، وتُعمّق يومًا بعد يوم سلام القلب، وسكينة الروح. اختارها بقعةً تولّد في قلوب الهنود، الإيمان، والاطمئنان، والسلام، بعد أن شاهد في كلكُتّا وما يجاورها الأعاصير الهوجاء. وأراد أن يطبّق في مدرسته الناشئة هذه، التربية المثلى التي يحلم بها لمواطنٍ عالميّ. فالتربية في البنغال تنبثق عنها «ذاكرةٌ إنكليزيّة»، تتحدّى الطبيعة وتنقم عليها، لا عقل إنسانيّ يؤمن بوحدة الوجود. ولذا قرّر أن تكون الدروس في الهواء الطلق، ما عدا الأيام الممطرة، لينسجم الطفل مع نفسه ومع الطبيعة، ويتحرّر من قيود التصنّع، ويجلس إذا أراد على غصن شجرة. وتتخلّل الدروس مسرحيّات، تُمثّل على المسرح الهوائي، ويعمل الشاعر على تأليفها. وخصّص «طاغور» مكانًا للعبادة، مفتوح الجوانب، تُقام فيه الصلوات من قبَل الشاعر نفسه، أو المدرّسون، مرتين في الأسبوع. وعيّن حصّتين، حصّةً في الصباح وأخرى في المساء للتأمّل. ولا ترتبط المدرسة بأعياد الهند وعطلها، بل لها عطلتاها الكبيرتان بعد النهايات الدرسيّة، وأنصافُ عطلٍ لميلاد المسيح،

ويوذا، والنبيّ مُحمّد ﷺ، وراموهان روي، باعث نهضة البنغال، والمهارشي، وغيرهم من الرجال العظام. ووجّه المدرسة لتحكم نفسها بنفسها، وأعطىٰ طلابه كلّ شيء لا يمثّل التّرف؛ فلهم مزارعهم، وبريدهم، ومستشفاهم، وكنيستهم، وحوانيتهم. وفي ١٩٢٢ أصبح لهم مطبعتهم، ومكتبتهم، التي كانت أغنىٰ من مكتبة كلكتّا العامّة. وكان علىٰ الطلاب أن يذهبوا مساءً إلىٰ القرىٰ المجاورة ليقوموا بالتدريس في المدارس الليليّه للطبقة الكادحة، وكانوا يطبّقون عقوباتهم بأنفسهم.

وهٰكذا كانت «سانتينكتان» مركز خصبٍ روحيّ وفنيّ لطاغور. فقد اَحتضنته بجوّ سلامها واَطمئنانها، وأحاطته بصلات روحيّة كثيرة؛ أقرباؤه وأصدقاؤه، وأحبّاؤه، وطلابه. فكلّ من كان فيها سعيدٌ وخيّر، والزمن متواصلٌ وطويل، والجو موسيقىٰ، وتمثيل، وشعر، وشباب. فأطلق خصب فكره وسلام روحه، شعرًا ونثرًا، واَبتدأ مرحلة العطاء الخصيب الثانية. ولكنّ السلام لم يَدُم، إذ تُوفّيت زوجته ولحقت بها اَبنته، وأخذ منجل الموت يحصد أحبّاءه، وفُجع في أصغر أبنائه. وتغلغلت تلك الأحزان الخاصة إلىٰ أعمق أعماق ذاته، وقلبت اَطمئنان قلبه قلقًا، واَنعكف علىٰ نفسه، وشعر وهو في بحران ألمه أنّه بحاجة إلىٰ الله. ورفعته آلامه المريرة إلىٰ الاَمتزاج به، وطلب السلوىٰ منه، فأصدر كتابه «النيفدايا»، الذي عمّد فيه إلٰهة شعره في خدمة الله، واَنساب وراء التصوّف كما فعل «كبير»، ووحّد نفسه بالإلٰه أمام عدميّة اليأس التي شعر بها، ومن قصائده في هٰذه المرحلة:

أيُّ شاطئٍ ترغبُ في الاَرتماء عليه، أي قلبي؟
فليس من مسافرٍ أمامك ولا من طريق!
أين العملُ، وأين الراحةُ علىٰ هٰذا الشاطئ؟
لا ماءَ في المحيط، ولا مركبَ، ولا بحّار،
ولا حبلَ لإيقاف المركب، ولا رجل لجذبه.
لا أرضَ ولا سماءَ ولا زمن. لا شيء يقوم، لا نهرَ ولا شاطئ.

لا جسمَ، ولا روحَ، فأين ستُطفئ عطشَ روحِك؟
لن تجد شيئًا في هٰذا العدم.
كُنْ قويًّا وعُدْ إلىٰ نفسِك، هنا ستكون علىٰ أرض صامدةٍ صلدة.
فلا تبتعد أي قلبي، فهنا مأواك.

ومن قصائده الجميلة التصوفيّة، تلك التي يعطي فيها للإلٰه مفهومًا جديدًا، فيشكو له ظلم البشر برقّةٍ ونعومة غريبتين قائلًا: «إنني لا أقف أي ربي حيث تقف! وتمتلك ذاتي كنفسِك. إنني أقف هناك لأضمّك إلىٰ قلبي. إنك أخٌ بين إخوتي، ولكنني لا أعاملهم كما أعاملك، فلا أقتسم جزئيّاتي معهم، مع أنني أقتسم كليتي معك. وفي سروري وحزني، لا أقف إلىٰ جانب البشر الذين هم إخوتي وإنما إلىٰ جانبك. إنّ حياتي في حياتك».

وفي سنة ١٩٠٥ دعت بريطانيا إلىٰ تقسيم «البنغال». فقابلها البنغاليّون بمقاطعةِ بضائعها، ونشر موجةٍ من الكفاح المسلّح ضدّها. وعاد «طاغور» إلىٰ السياسة يحرق فيها آلامه الخاصة. وتكتّلت حوله البنغال، وقاد مظاهرةً صاخبةً ضدّ بريطانيا، وأخذ يعمل بنشاطٍ علىٰ تشغيل العاطلين عن العمل، وتنظيم الجمعيّات التعاونيّة. ولكن نقدَه للحركة القوميّة التي ٱتّخذت هدفًا لها «الوحدة السياسيّة» دون «الإصلاح الٱجتماعيّ»، أثارت للمرّة الثانية نقمةَ مواطنيه عليه. فيئس من ٱتّجاههم الطغيانيّ، وٱستقال من عضويّة جميع الجمعيّات، وٱنسحب إلىٰ «سانتينِكِتان»، فلُقّب بالخائن والجبان. وقد آلمته تلك الأحداث أكثر مما آلمه موتُ أحبّائه. فأخذ يطفئ غيظه وألمه بصلاةٍ إنسانيّة، يخاطب فيها الله، ويمزج فيها صرخات القوميّة، بالقوميّة الإنسانيّة، والدين بالوطن:

ٱضربْ ٱضربْ أي أبتِ! دون شفقة وبيدك نفسها،
وأيقظْ إلىٰ تلك السماء عيونَ الهند وروحَها،
حيث الفكرُ ولا خوفَ يحيطه، والرأس ولا قوةٌ تخفضه،
والمعرفة ولا أغلال تقيّد البحث عنها.
أيقظ الهند إلىٰ حيث العالم لم ينقسم إلىٰ هشاشاتٍ بجدران

محليّة ضيّقة،
وإلىٰ حيث الكلمات تنبثق من أعماق الحقيقة
وإلىٰ حيث لم يَتُهْ تيّار العقل الصّافي عبر صحراء العادات الميّتة.
دعها تنطلق أي ربي!، إلىٰ حيث يُساق الفكر من قِبَلك إلىٰ أفكارٍ أعمق،
والإرادة إلىٰ أعمالٍ أوسع... إلىٰ سماء الحريّة، أيقظ أي أبتي! قومي.

وأخذ «رابندرانات طاغور» يندمج أكثر فأكثر في عزلة الروح، باحثًا عن ينابيع الحياة الروحانيّة الخفيّة، وعن مشاركة العالم كله بعواطفه، لا الهند فقط بخفقاتها. وفي انكماشه هٰذا، ألّف مسرحيّاته الرمزيّة النثريّة مثل «راجا» و«عيد الخريف». وشرع يخطّ مذكراته، وينثر علىٰ الهند والعالم زهور «الجيتانجالي»، التي جعلته شاعر العالم، وأكسبته لقب «رسول الحبّ والسلام». ويشعر القارئ في أبياته بتماسه الكبير مع العالَمَيْن الطبيعيّ والبشريّ. فقد تكلّم في «الجيتانجالي» إلىٰ قلوب لا عدّة لها، وكشف فيها الغزير من المشاعر الخفيّة، وتجارب الحياة الصامتة. فالقصائد فيها أناشيد وُضعت لتُغنّىٰ، ولكنها تُغنّي من نفسها. وقد قال عنها الناقد «يتس Yeats» «ستمرّ الأجيال، والمسافرون يدمدمونها في طرقاتهم، والمزارعون حول أنهارهم، والمحبّون يغسلون في أنغامها هواهم العنيف، فيتجدّد شبابًا ويرقّ عاطفة». وفيها نادىٰ بقلبٍ مؤمن فيّاض، أنّ كنه الوجود هو الحبّ، وذٰلك في حوارٍ خياليّ جميل:

ـ آمِنْ، أي أخي، بالحبّ حتّىٰ ولو كان منبعًا للألم، ولا تغلق قلبَك.
ـ لا، أيها الصديق، إنّ كلماتِك غامضة، وعسيرٌ عليّ فهمُها.
ـ لِمَ التنكّر للحياة أيها العاقّ، فلم يُخْلَقِ القلبُ إلّا ليستسلم بدمعةٍ أو نشوة.
ـ لا، أيها الصديق، إنّ كلماتك غامضةٌ، وعَسيرٌ عليّ فهمُها.

ـ أيها الأخ! إنّ السرورَ رقيقُ الحواشي، كقطرةِ ندىً تضمحلّ وهي تبتسم، أما الحزن فقويٌّ عنيد.
فاترك حبًا مؤلمًا يتأجّج بين ضلوعك، ويُطلّ من عينيك.
فزهرة اللوتس تفضّل أن تتفتّح على الشمس المحرقة، وتموت،
من أن تعيش برعمًا طيلة شتاءٍ أبديّ.
ـ كفاك أيها الصديق، فكلماتك غامضة وعسيرٌ عليّ فهمُها.

وفي مقطوعة أخرى، أظهر لهف العالِم على اكتناه أسرار المجهول، فغنّى منشدًا:

لا تجدُ الراحةُ إلى قلبي سبيلًا، فأنا أتعطّش للّانهاية والأبديّة.
وروحي المشوقة اللهِفة تندفع نحو المجاهيل البعيدة.
أيْ ما وراء هذا الكون! كم أنّ نداءَ مزمارِك حادٌّ وقاسٍ!
إنني أنسى دومًا بألّا أجنحةَ لي لأطير، وأنني مرتبطٌ بالأرض إلى الأبد.
إنّ روحي ثائرةٌ، وعينيّ متمردتان على النوم إنني غريبٌ في أرضٍ غريبة.
أيها المجهول، كم أنّ نداءَ مزمارِك حادٌّ وقاسٍ!
إنك تتمتم في أذني لحنَ أملٍ مستحيل.
إنّ قلبي يعرف صوتَك كما لو كان صوتَه. أُوّاهُ منك
أيها المجهول الخضمّ، كم أنّ نداءَ مزمارِك حادٌّ وقاسٍ!
إنني أنسى أنني لا أعرف الطريق، وأنني لا أملك البُراق
أيها المجهول، كم تبدو لي رؤاكَ عظيمةً، وهي منعكسةٌ على زرقة السماء!
وكم أنّ نداءَ مزمارِك حادٌّ وقاسٍ!

ويُحَسُّ، من ثنايا كلّ قطعة فيها، أنها كُتبت في الهواء الطلق، وأنّ انسيابات السلام الروحيّ تخفق بين حناياها. ويظهر هذا في أغنيته الأخيرة التي يقول فيها:

لتمتزجْ جميعُ مسيلات الفرح في أغنيتي الأخيرة هٰذه:
الفرحُ الذي يجعل الأرضَ تفيضُ عشبًا.
الفرحُ الذي يوحِّد الأخوين التّوأمين الموتَ والحياة، ويدعُهما يرقصان حول العالم الواسع.
الفرحُ الذي يمتزج مع العاصفة، هازًّا وموقظًا كليّة الحياة بضحك وحُبور.
الفرحُ الذي يجلس ساكنًا مع دموعِه علىٰ زهرة الألمِ الحمراء المتفتّحة.
والفرحُ الذي يرمي كل شيءٍ يمتلكه الفرد علىٰ التراب ولا ينبس بكلمة.

ويطرق نداءُ العالمَ القلِق سنة ١٩١٠ أذنَي «طاغور»، ويخترقُ حُجُبَ عُزلتِهِ، فيتحرّق للسّفر إلىٰ الغرب، علّه يَغْرقُ في حياته الزاخرة، التي كان يظنّ أنه يحمل سرَّها نفسه؛ ولكنه توقّف لحضور «يوبيله الفضيّ»، الذي اَحتفلت به «أكاديمية البنغال». ولقد سعد لتأخّره، لأنّ هٰذا الاَحتفال أزال سوءَ التّفاهم الذي كان قائمًا بينه وبين مواطنيه، فتدفّقت جموعُهم المثقّفة تُحيِّي فيه بطلًا من أبطال القوميّة، وعبقريّةً أدبيّةً فنيّة، ورسولًا من رُسُل الإنسانيّة، والمحبّة، والسلام. فسافر «رابندرانات» إلىٰ إنكلترة وهو مطمئنٌ نفسيًّا. ولم يشعر بالراحة في هٰذا البلد المستعمِر الغريب. وصدمته آليّته، وشعر أنّ كل فردٍ فيه يتنقّل كالشبح، ولا كيان روحيّ له. ولم يلبث أن اَتصل بالأوساط الأدبيّة، وتعرفت تلك الأوساط إلىٰ «رابندرانات طاغور» لا كسيّد براهميّ وإنما كشاعرٍ إنسانيّ. ووجدت في روحانيّات «جيتانجالي» ما يُناقض أدبَ المادّة البارد، والعملَ الآليّ الجامد، فتعشّقه الغرب، وأخذت شهرتُه تنتشر وتمتدّ بسرعةٍ مذهلة، حتّىٰ إنه عندما عاد إلىٰ «بومباي»، وجد حشدًا يستقبله بعقود الزهر، وأكاليل الياسمين وأطواقها، فظنّ أنهم في اَستقبال شخصيّةٍ رسميّة لا في اَستقباله هو.

وفي تشرين الثاني ١٩١٣، وردت الأنباء إلىٰ «سانتينِكِتان»، و«طاغور» بين رعيّته المحبّة، أنه قد مُنح «جائزة نوبل للآداب». وأنطلقت صيحات التّقدير والفرح من حناجر أصدقائه وأحبّائه. ولم يكن طلّابه ليعرفوا ما هي «جائزة نوبل»، ولكنهم كانوا يعلمون أنّ سيّدهم قد قام بعملٍ عظيم مدهش كما هي عادته دومًا، فأصطفّوا صفوفًا، وقاموا بدورةٍ حول المدرسة، وهم ينشدون نشيدهم المدرسيّ الإنسانيّ، ولم ينصرفوا حتّىٰ أطلّ عليهم، فقوبل بموجةٍ من العبادة المتبتّلة المقدّسة؛ فقد تدافعوا علىٰ قدميه يطلبون لمسةً من يده. ووقف هو بشَعره الطويل، ولحيته الكثّة، وقد غطّىٰ وجهه براحتيه، متقبّلًا بإشراقة وجهٍ تحيّاتهم علىٰ عادة الهنود.

وأنثنىٰ «طاغور» بعد نيل «جائزة نوبل» علىٰ نفسه ثانية، وأصدر بين عامي ١٩١٤ـ ١٩١٦، كتابه «بالاكا» أرفعَ كتبه الوجدانيّة. فقد تطلّع فيه ما وراء هٰذا الزمن والحسّ، إلىٰ حياةٍ أخرىٰ. فالشاعر، وقد تجاوز الخمسين من عمره، مرّ بالتجربة نفسها التي مرّ بها «درايدن» الشاعر الإنكليزيّ (١٦٣٠ـ١٧٠٠) في السبعين من عمره، إذ تراكمت الأفكار علىٰ نفسه حتّىٰ لم يعُد يعرف أيُطلِقُها شِعرًا أم نثرًا. وفي هٰذه القصائد تبدو مرّةً أخرىٰ عظمته الفكريّة: فعقله كينبوع تنبثق من أعماقه الأفكار والصور بأستمرار، وكأنها ماءٌ رقراق لا يتوقّف، وخاصّة الأفكار المجرّدة؛ وتتخلّص عواطفه من الخاصّ لتنطلق محلّقةً في أجواء العامّ، فتعيش مع البشريّة والأرض منذ أزليّتها وإلىٰ أبديّتها.

يبدو لي هٰذا المساء، أيتها الصديقة، أننا قد خلّفنا خلال العوالم العديدة التي عشنا فيها فيما مضىٰ، ذكرىٰ أتّحادنا.
وعندما أقرأ الأساطيرَ القديمة، التي أوحتها أهواءٌ قد أنطفأت اليوم، أننا لم نكن أنت وأنا إلّا واحدًا، وأنّ الذكرىٰ تأتينا عنها مع ذكر الزمن.

ويتحوّل قلق طاغور النفسي المنغّص إلىٰ سلامٍ روحيّ، فيقول مخاطبًا ألمه الأول:

أي صديقي! إنّ الزمن يمضي، والكونَ يتغيّر، وقد تغيّرتَ أنت، فما كان في الماضي ألمًا غدا سلامًا.

وكانت مقطوعات «بالاكا»، مقدّمةً لرمزيّةٍ عميقةٍ مجرّدة، أخذت تتّضح في مسرحيّاته كـ «فالغوني» و«التيّار الحرّ». ورافق قوةَ شعوره بالإنسانيّة، هجومٌ علىٰ الغرب. فقد كانت الحرب العالميّة الأولىٰ صدمةً لنفسه، ولم يتمكّن أن يرىٰ فيها سوىٰ طيش الغرب، وانجرافه وراء الهوىٰ. فأصدر، تحت حمّىٰ غيظه، «البيت والعالم»، التي هاجم فيها بقوّةٍ وحدّةٍ الشعور العنصريّ. وأخذت الألسنة الحِدَاد تسلُق كتابَه، ولكنه تمالك نفسَه، وسافر إلىٰ اليابان سنة ١٩١٦، ومنها إلىٰ الولايات المتّحدة، حيث ألقىٰ رصيد فكره المتأجّج عن القوميّة، وعن الشخصيّة. ونادىٰ بأعلىٰ صوته، بضرورة إزالة الظلم الاجتماعيّ المستوطن في الهند، وقبل أن تندفع هٰذه الأخيرة وراء الحريّة السياسيّة. إذ لا يحقّ للهنود أن يطالبوا الدول، التي لا تعرف الرحمة، بالمساواة، عندما يعيشون هم وأيديهم وألسنتهم تلِغ في مياه بعضهم بعضًا.

وعاد إلىٰ الهند سنة ١٩١٩، إبّان «ثورة البنجاب»، تلك الثورة التي قمعتْها بريطانيا بكلّ عنف وهمجيّة، واحتجّ «طاغور» للمرة الثانية، وكان احتجاجًا عمليًّا صارخًا، إذ تنازل عن لقب «اللورديّة» الذي كان قدّمه له ملك إنكلترة، وأشفعه بكتابٍ بيّن فيه سبب تنازله. ولم يكن يهدف من احتجاجه هٰذا كسبًا سياسيًّا، أو إثارةً عنصريّة، وإنما لأنه كان يؤمن أنّ الاحتجاج ضدّ الظلم واجبٌ أخلاقيّ سياسيّ. ورغم تضحيته هٰذه، فإنّ الشعب انفضّ من حوله، كما انفضّ سابقًا، لأنه حارب سياسة المقاطعة، ونادىٰ بضرورة فتح باب الهند للتقدُّم الفكريّ القائم في أوربّا. وأخذ شِعره يتأثّر بألمه الفكريّ الإنسانيّ، وبمحاضراته النثريّة، فخَبَتْ جذوته.

وأراد أن ينفّس عن روحه اللاثبة، فانطلق يسوح، زار ساحات القتال في فرنسا، وميادين الثّقافة والأدب في إنكلترة، وأمريكا، والسويد، والدانيمارك، والمانيا. وكان يُقابَل في كلّ ركنٍ بحماسةٍ غريبة، ما عدا بريطانيا، حتّىٰ إنّ الطلاب في «كوبنهاغن» قاموا بتظاهرةِ مشاعلَ احتفالاً بمقدمه، وباع الناشرون في برلين ثلاثة ملايين نسخة من كتبه. وقد كتب لصديقٍ له يقول، «لا يمكنك أن

تكوّن فكرةً عن عاصفة الحبّ التي تلاحقني. ولكنّ شوقي كبير للعودة إلىٰ شعبي، إلىٰ جوّ الكراهية والنفور منّي. فقد عشت حياتي هناك، وقمت بعملي كلّه هناك، ومنحت حبي هناك. ولا يضايقني إذا لم يكن جزاءُ حصادِ حياتي كاملًا هناك. فالنداء يتصاعد من الحقل، متسائلًا عن عودتي. والفصول هي التي أحاطت بِذْرة أحلامي بالرّعاية. لا أريد مديحًا أو لومًا من مواطنيّ، وإنما أريد أن أرتاح تحت نجومنا».

وعاد إلىٰ الهند ليؤسّس سنة ١٩٢١ جامعةً آسيويّة في «سانتينكتان»، تهدف لدراسة عقل الإنسان في تحقيقه مختلف مظاهر الحياة، وجمع مختلف حضارات الشرق في صعيدٍ واحد، لتحقيق الهدف السابق، ثم العمل علىٰ إيجاد الوحدة الأساسيّة، التي تربط نزعات مختلف الحضارات في آسيا، وبذٰلك يتمكّن الشرق من معرفة هدفه الروحيّ الخاصّ الذي أُغلق عليه إدراكه، فعاق بذٰلك التعاونَ الحقيقيّ بين الشرق والغرب.

وٱبتعد «طاغور» تمامًا عن السياسة، علىٰ الرغم من دعوة «غاندي» له ليُغرق قلمه وروحه مرّة أخرىٰ في جوّها. وعاد ليعيش كما كان يعيش في طفولته، وفرحٌ كامن عميق يسيطر علىٰ ذاته، وأخذ يعبّر عن هٰذا السلام النفسيّ بالإنكليزيّة والهنديّة، ويمزج الشعر الحرّ بالنثر، والوصف، والرمز. وشرع يحنّ مرةً أخرىٰ إلىٰ التّرحال، فقام بإحدىٰ عشرة رحلة، زار فيها سيلان، والصين، واليابان، وإيطاليا، حيث ٱستقبله «موسوليني» والشعب ٱستقبال الفاتحين. فقد تجمهر في الكولوسيوم لرؤيته ثلاثون ألفًا من الإيطاليين، حيّوه بهتافات تشقّ عنان الجوّ. وزار سويسرة، والنمسا، والنرويج، والدانيمارك، وألمانيا، وتشيكوسلوفاكيا، ويوغوسلافيا، ورومانيا، واليونان، ومصر، وجاوا، والمالايو، وسيام، وكندا. وكانت آخر جولاته إلىٰ أوربا، تلك التي قام بها سنة ١٩٣٠ لروسيا، وأظهر فيها تعاطفه مع النظام الاشتراكيّ الجديد فيها. فكتب قائلًا: «وأخيرًا في روسيا! إنني أرىٰ أينما تطلّعت أملًا عجبًا. فتلك الطبقة التي أسمّيها «حيوانات الحمل»، أو تلك المخلوقات التي

تنمو في كلّ مجتمع علىٰ فُتات ثروة هٰذا المجتمع، تلك الطبقة التي هي كحَمَلةِ المشاعل، تَرفعُ مشعل الحضارة علىٰ رأسها، والمجتمع يتلقّىٰ النور منها، وتسبح هي في بحر الزيت المظلم.. أجل! لقد تساوت هٰذه الطبقة مع غيرها في روسيا، وبذٰلك آنقلبت مفاهيمي. فلا شيء ثابت ودقيق في الواقع، يمكن أن يُبنىٰ علىٰ الإحسان المؤقّت والصدقة، فمن المتساوين فقط يمكن للإنسان أن ينتظر المساعدة الحقّة. وإنني لأحلم بالزمن الذي ستتمتّع فيه الهند بمصير مماثل».

وكان عام ١٩٣٠ عامًا هامًّا في حياة «طاغور»، إذ آنصرف إلىٰ الرسم بصورةٍ جديّة، وتفتّحت في روحه تلك الموهبة التي ظهرت متأخّرة في سنّ السبعين، وأدهشت النقّاد بغرابة موضوعاتها، وألَقِ ألوانها، وخصوبتها. ولبّىٰ «رابندرانات» سنة ١٩٣٢ دعوة آمبراطور إيران، وزار «الملك فيصل» في بغداد. وآشتركت الهند من أقصاها إلىٰ أقصاها، سنة ١٩٣٧، بما فيها «غاندي» و«نهرو» صديق طاغور، في صلاة الشكر التي أُقيمت لإبلال «طاغور» من مرضه. وفي سنة ١٩٣٨، كان «رابندرانات» ملك الهند غير المتوّج، وغدا رمزًا للهند الحديثة الناهضة حتّىٰ لقّبه غاندي بـ «منارة الهند الدائمة».

وفي ١٩٣٩ شاهد، للمرّة الثانية، آنتصارَ الماديّة البغيضة، شاهد القوّة التي لا ترحم في بعض البقاع، والجبن والخور في الأخرىٰ. وأقلقه جدًّا مصير الهند في هٰذه المحنة. وصرّح، قبل وفاته بعامين، لزائر إنكليزيّ بقوله: «إنني أرحّب حتّىٰ بموجةٍ من الإلحاد تكتسح الهند، لعلّها النار التي تأكل الغثّ فيها. إن مستقبل الهند لن يُشرق حتّىٰ تنظر بآحتقار إلىٰ العاداتِ البشعة المألوفة، وتشارك دون ما خوف في البحث عن النور. فكلّ من يتجاهل، بآسم الوطنيّة، حاجة الإنسان الكبرىٰ للمعرفة لأنّ هٰذه المعرفة قائمةٌ في الغرب، يحتقر الحقيقة في أعماقها».

وذَوىٰ عودُ «طاغور»، وأخذ المرض يعاوده الفَيْنة بعد الفَيْنة. وشرع، وهو في شيخوخته الحيّة، يطلق صيحات الحبّ الإنسانيّ إلىٰ عالمٍ أهوج ملوّث،

ويحاول أن يبعث في أجوائه العكرة والمظلمة، مفهوماتِ الإنسانيّة، والضياء الروحيّ. فلم يسمع العالم، بين انفجارات القنابل، وتطاير الأشلاء، والتدمير، وانعدام الحياة، صوتَ الحياة. ونفح البشريّة بقصيدته «القلق» التي تنِمّ عن انطباعاته آنذاك، والتي تمثّل حياته من مُبتداها إلىٰ منتهاها، وموقف الإنسانيّة منه، وموقفه منها:

إنّ نظرتكِ القلقة حزينة، إنها تبحث عن معرفة فكري، كما أنّ القمر يجهد في استشفافِ طيّاتِ البحر.
لقد كنتِ أظنّ أنك تعرفين حياتي، إذ لم أُخفِ عنكِ شيئًا، أوَلهذا كنتِ تجهلين فكري؟
فلو لم تكن حياتي سوىٰ جوهرة لنثرتُها قطعًا، ولصنعت من جزئيّاتها عِقدًا طوّقتُ به جيدَك.
ولو لم تكن حياتي سوىٰ زهرة رقيقة لقطفتُها من غرسها، وصففتُها في شعرك.
ولكنّ حياتي، أيتها الحبيبة، قلب، فأين حدوده؟
ولو لم تكن حياتي سوىٰ لذّة لرأيتِها تتجاوبُ معك بابتسامةٍ سعيدة، ولاستشففْتِها في برهة.
ولو لم تكن سوىٰ ألم لذابت بدموعٍ نقيّة، عاكسةً دون ما كلمة سرّها.
ولكنّ حياتي، أيتها الحبيبة، حبّ.
فسرورها وحزنها لا حدود لهما، وتعاستها وغناها أبديّان.
فهي قريبة منك كحياتكِ نفسِها.. ولكنك لن تعرفيها كاملة أبدًا..
فقد تنكّرتِ لها بتنكّرك للحبّ.

وصمتت شفتا طاغور، فقد أغلقهما الموت في السابع من شهر آب سنة ١٩٤١، واكتظّت شوارع «جوراسانكو» بالحشود، تودّع شاعرها الوداع الأخير.

وأُحرقت جثّته، وذُرّ رماده، والهند تردّد صلاته الرائعة:

أيها الوجود! أعطِني أكسير الحبّ الأعلىٰ، والأكسير الذي يسمح لي أن أتكلّم حسب إرادتك، وأن أعمل حسب إرادتك، وأن أتألّم حسب إرادتك، وأن أنفكّ عن جميع الأشياء حتّىٰ لا تنفكّ الأشياء عني.

أعطِني قوةً في الأخطار، وشرِّفني بالألم، وساعدْني علىٰ صعودِ طُرق التضحية اليوميّة الصعبة.

أعطِني الثقة الكبرىٰ في الحب، والثقة في الحياة التي تتحدّىٰ الموت،

وتبدِّل الضعف قوةً، والهزيمة نصرًا

آرفعْني، آرفعني، حتّىٰ إنّ كرامتي ـ وهي تتقبّل الإهانة ـ تترفّع عن ردّها بمثلها.

أعلام في ميدان السياسة

- الخليفة الأموي : عبد الملك بن مروان
- الخليفة العباسي : هارون الرشيد
- الشهيد : نور الدين الزنكي
- سميراميس : ملكة آشور وبابل
- ماري ستيوارت : ملكة سكوتلاندة

الخليفة الأموي

عبد الملك بن مروان

أصالة عربيّة إسلاميّة في القيادة السياسيّة للدولة

محاضرة أُلقيت على طلبة الكليّة العسكريّة في شرشال، في الجزائر ـ نيسان ١٩٦٧. وقد اختير الموضوع ليتلاءم بصفة خاصّة مع «حركة التعريب»، التي أخذت مجراها في الجزائر، بعد تحرُّرها.

بني عروبتي، وأيها الشباب الذائدون عن حياضها.

إليكم، من مشرقكم العربيّ، إجلالَهُ وإكباره للقيم النضاليّة المُثلى التي جسّدتموها، أنتم أبناءَ الشعب العربيّ، على هذه الأرض الطاهرة والمطهَّرة ـ الجزائر ـ في كفاحكم الطويل والمرير ضدّ قوى الاستعمار الباغية...

وإليكم، من هذا المشرق أيضًا، ومن بلاد الشآم بالذات، تحاياه المضمّخةَ بالحبّ والإخاء، والمُثقلةَ بكلّ آمال المستقبل العربيّ الواحد المُشرق، والعمل المتكاتف الموحّد لتحرير بقية أجزاء الوطن العربيّ من القوى الاستعماريّة الغاصبة، والصهيونيّة البغيضة الدخيلة، والبَغْي المتحكّم، والمحمَّلةَ بأمنيته الكبرى في بناء الدولة العربيّة الواحدة، التي ستعود وتحمل الرسالة الإنسانيّة الكبرى للإسلام والعروبة.

وعلى عاتقكم، أنتم أيها الشباب، وأرباب السيف، يقع قسطٌ كبير من عبء بناء هذه الدولة الواحدة، التي ترنو الأمّة العربيّة اليوم، أكثر من أي وقتٍ آخر،

إلىٰ الإسراع في تكوينها، ليتمّ، في إطارها الواسع والخصب، للإنسان العربيّ، العزّةُ والسُّؤدد، والرفاه، والعمل الحضاريّ المثمر.

وفي الواقع لم أجئ إليكم حاملةً فقط هٰذه التحايا، ومحمّلةً بتلك الأمنيات والآمال؛ فهي تطرق أسماعكم وتتحدّث بها قلوبكم في كلّ يوم وفي كلّ هنيهة، كما تتحدّث بها قلوب إخوانكم في المشرق العربي؛ ولم آتِ إليكم لأبثّ في ذاتكم روح نضال، أو أستثير نخوةً أو حماسة، فآختياركم لعملكم هٰذا، بملء حريّتكم، يعني تكامل تلك القيم في ذواتكم؛ وإنما أتيت لنستعرض معًا صفحةً من صفحات تاريخنا العربيّ الإسلاميّ، فيها تجربةٌ حيّة، وعظة، وعِبَرٌ، ودروس مستفادة. وفي الحقيقة لا شيء يُعين الحاضر علىٰ دفع خطواته بإقدام وثبات ورؤىٰ واضحة نحو المستقبل، مثلما يُعينه تمثُّل الماضي وتجسّده في الذات، ومن هنا كانت القيمة الكبرىٰ للتاريخ في ميدان الحياة والبناء الإيجابي للأمّة والسياسة.

وصفحة التاريخ، التي سنستعرضها معًا، بعيدةٌ عنا بما يقرب (١٣١٥) من الأعوام، أو ثلاثة عشر قرنًا وربع القرن تقريبًا، ومع ذٰلك فهي لا تبدو اليوم باهتةً، وإنما نابضة بالحياة ومتحركّة؛ فلقد أحياها الواقع الذي نعيش فيه نحن العرب اليوم، وأخرجها، مِن بُعدها الورقيّ المحدود الذي سُطِرت فيه أحرفًا وكلمات، ليعطيها أبعادها الكاملة وحركيّتها الخصبة المتفاعلة مع أحداث الحاضر، فبدت ضاغطةً بكلّ ألوانها وأوزانها وبوارزها علىٰ الذات العربيّة وكأنها حَدَثُ اليوم لا حدث الأمس. وإذا أريد إعطاء تلك الصفحة التاريخيّة آسمًا وعنوانًا، فإنه يمكن أن نطلق عليها، بمفهوماتها الإداريّة والسياسيّة الحديثة، «صفحة ترسيخ كيان الأمة العربيّة»، ودعم بناء الدولة العربيّة الإسلاميّة الواحدة، والتمكين لهٰذه الأمّة العربيّة في إطار دولتها الموحّدة كي تصبح قادرةً علىٰ متابعة حمل الرسالة الإنسانيّة التي أتىٰ بها النبيُّ العربيُّ بكلّ أصالتها، وبكامل قيمها.

والصورة التي تبرزها الصفحة التاريخيّة هٰذه، ليست صورة «عمر بن الخطاب» أو «الخلفاء الراشدين» أو «معاوية بن أبي سفيان»، كما قد يتبادر إلىٰ الذهن، إذ إنّ كلًا من هٰؤلاء قد أرسىٰ حجرًا ضخمًا في بناء الدولة العربيّة الإسلاميّة، وإنما

الصورة هي لعهدٍ تالٍ بمجموعه، هو عهد «عبد الملك بن مروان»، وللتّفاعل الخصب الذي تم إبّانَهُ بين الشعب العربيّ المسلم وأمانيّه، وبين السلطة الحاكمة. وربما تبدو الصورة في بعض طياتِ تفصيلاتِ أحداثها غيرَ منسجمةٍ تمامًا مع كثيرٍ من المُثُل الإنسانيّة التي تُرضي النفس البشريّة الفرديّة الخيّرة؛ إذ إنّ بعض الخطوط فيها قاسيّة، وبعض الألوان صارخة. ولكن مهما قيل فيها فهي لوحةٌ واقعيّة حيّة، لبناء دولةٍ قوميّة بناءً ثوريًّا عقلانيًّا ـ بتعبير الحاضر ـ وواقعيًّا بكلّ ما في هٰذا الواقع من تناقضات القبح والجمال.

فعبد الملك بن مروان ـ وكلكم تعرفونه من دراسة التاريخ العربيّ الإسلاميّ ـ هو الخليفة الأمويّ الخامس الذي اَستلم الحكم بعد أبيه مروان بن الحكم في عام (٦٥) للهجرة (٦٨٤م)، واَستقام علىٰ الملك واحدًا وعشرين عامًا، أي ما يقارب ربع قرن من الزمن. ولقد عجّت، بأخبار خلافته الكثّة، وأعماله العدّة، كتبُ التاريخ العربيّ الإسلاميّ، ما كُتب منها في العصور السالفة، وما دُوّن حديثًا. وعلىٰ الرغم من اَختلاف بعضها في تقويم بعض تصرفاته، فإنها كلها أفاضت بعلم هٰذا الخليفة وثقافته، وفقهه، وأدبه، وشعره. حتّىٰ إنه كان يُعَدّ رابع ثلاثة فقهاء فُحول في المدينة، هم: «سعيد بن المسيّب»، و«عروة بن الزبير»، و«قبيصة بن ذؤيب». بل قال عنه «الشعبيّ»: «ما جالست أحدًا إلّا وجدت لي الفضل عليه، إلّا عبد الملك، فإني ما ذاكرتُه حديثًا إلّا زادني فيه، ولا شعرًا إلّا زادني فيه». كما أنّ كتب التاريخ قد أجمعت علىٰ حزمه وصرامته في تطبيق ما يؤمن به، ومعرفته لطبائع البشر، ووقوفه مقوّمًا بشدّةٍ ما يراه قد اَعوجّ منها؛ فقد روىٰ عنه المسعودي أنّ بعض جلسائه طلب الخلوة إليه يومًا، فأجابه إلىٰ طلبه قائلًا: «بشرط ثلاث خصال: لا تُطْرِ نفسي عندك ـ أي ألّا تمدحها! ـ فأنا أعلم بها منك، ولا تغتبْ عندي أحدًا فلست أسمع منك، ولا تكذِبْني فلا رأي لمكذّب...»، فاَستأذن الجليس منه واَنصرف.

ومما لا شك فيه أنّ ثقافته الواسعة تلك، وتفهّمه لأحكام الدين الإسلاميّ وأعماق قيمه، قد ساعدتْه علىٰ توسيع ساحة رؤياه، وإيضاح معالم الطريق

الذي عليه أن يسلكه في آستكمال بناء الدولة العربيّة الإسلاميّة. كما أملىٰ عليه عقلُه المنظّم علميًّا، ورؤاه الواضحة، مخطّطَ عملٍ واضح الخطوط لم يسبقه إليه أحد. فلقد رسم عبد الملك، في هٰذا المخطّط، بثاقب فكرٍ وبُعد نظرٍ مستقصٍ، ثلاثة أبعاد رئيسة ترتكز عليها الدولة العربيّة الإسلاميّة ولا تقوم متماسكةً إلّا بها:

أوّلها ـ بُعدٌ سياسيٌّ حربي دِعامته الجيش، الذي كان عليه أن يتحرك بحسب ما تُمليه سياسة الدولة. للحفاظ علىٰ كيان الأمّة، ووحدتها، ونشر الرسالة، وتحرير الشعوب المغلوبة، كما كان عليه أن يتحرك بالسرعة التي تقتضيها تلك السياسة، وبالكمّ العدديّ، والآستعدادات الملائمة. فلهٰذا الغرض فرض الخدمة الإجباريّة علىٰ أبناء العرب، وآستعان بقادةٍ لهٰذا الجيش حازمين وقادرين علىٰ تعبئته بسرعةٍ وتوجيهه إلىٰ الهدف المنشود. وتحركات الجيش العربي هٰذه، التي ضجّ بها عهدُ عبد الملك، آستثارت المؤرّخين العرب، فآستفاضوا في وصف معاركها وأحداثها كعادة مؤرّخي تلك الحقبة، الذين كانت تهزهم أحداث الحرب والطّعان أكثر من غيرها.

وإذا كان هٰذا البُعد، بمعظم الدوائر التي تفرّعت عنه، قد سبق عبدَ الملك إليه الخلفاءُ قبله، ولم يفعل هو سوىٰ أنه أضاف بعض الجديد، فإنّ البُعدين الآخرين، كانا بعدين جديدين كلّ الجدّة في بناء الدولة العربيّة الإسلاميّة. واحدهما البُعدُ الثقافيّ العربيّ، وثانيهما البُعد الآقتصاديّ العربي.

وهنا نرىٰ أنّ حديث المؤرّخين المسلمين جاء، أحيانًا، مُقتضبًا ولا سيّما في البعد الثقافيّ. وكأنني ببعضهم لم يُدرك قوّة وعمق تأثيره فأغفله، أو قصّر في التعبير عنه، لأنه عاش فيه واقعًا وكأنه بُعدٌ طبيعيٌّ، لم يبذلْ أيّ جهد لتثبيته وبثّه؛ ولقد وازن عبد الملك بين الأبعاد الثلاثة، فجعلها تتعاون فيما بينها، وتتفاعل، ويخدم كلّ واحدٍ منها الآخر ويدعمه، حتّىٰ بدت الدولة كالبُنيان المرصوص يشدّ بعضُه بعضًا. وقد آعتمد عبد الملك، وهو السلطة الحاكمة آنذاك، في تنفيذ هٰذا المخطّط الشامل، علىٰ حيويّة الشعب العربيّ التي بعثتها الرسالة الإسلاميّة دفّاقةً

كالشلّال الخيّر، كما اَستند إلىٰ خصوبة عطائه، الذي ملأ ضرعه إيمانٌ عميقٌ بالقيم الإسلاميّة الجديدة.

أما منجزات البُعد الحربي ـ وأنتم أربابه ـ فأظنّ أنكم عارفوه ـ فكلّ مهتمّ بشؤون الحرب والسياسة والحكم يدرسه بدقةٍ وإمعان، لأنّ فيه من الكرّ والفرّ، وحسن تصريف الأمور العسكريّة الشيء الكثير، لا كعملياتٍ حربيّة تفصيليّة وترتيبِ نزال، وإنما كتوجيهٍ للتحرُّكات الحربيّة تثبت قدرةً وبراعة في التكتيك. ولن ندخل في إطارها تفصيلًا، ولكن نمرّ علىٰ خطوطها الكبرىٰ ومنجزاتها سريعًا لتفاعلها مع الوجه السياسيّ الثقافيّ والاَقتصاديّ، ومع المفهوم الشامل العام الذي كوّنه عبد الملك من الدولة العربيّة الإسلاميّة الواحدة، وخصائصها، ومقوّماتها.

لقد وصل عبد الملك بن مروان إلىٰ الخلافة، وقد عادت العصبيّة القبليّة، التي دأب الرسول ﷺ علىٰ إخمادها، تذرّ بقرنها وتمزّق وحدة الأمّة العربيّة. والمطامع الشخصيّة، التي اَستغلّت الخلافات المذهبيّة، والعواطف الشعبيّة، تُكتّل المسلمين فئاتٍ وأحزابًا متنافرة، تطالب كلها بالحُكم والخلافة لأنّها أحقّ علىٰ زعمها من الأمويّين بها؛ فهناك شيعة عليّ بن أبي طالب، وكانت ثلاث فئات: التوّابين، والسبئيّة، ثم أتباع «المختار» وما نجم عنهم من الكَيْسانيّة؛ وهناك المُوالون لعبد الله بن الزّبير، الذي ثار في الحجاز ومدّ سلطانه إلىٰ العراق وبقاعٍ أخرىٰ؛ وهناك الخوارج. هٰذا بالإضافة إلىٰ تمرّداتٍ فرديّة ومحليّة عديدة.

وإلىٰ جانب هٰذا الاَنقسام الداخليّ المروّع، كان الروم في شمال بلاد الشام، وفي شمال إفريقية يتسلّلون بدسائسهم إلىٰ صفوف سكان البلاد ويثيرون النفوس الطامحة منهم، ويحرّضونها علىٰ الثورة، لتعود السيطرة لهم والتحكّم بعد أن حُرِّرت البلاد من عبوديّتهم وسلطانهم، مستغلّين الأوضاع الداخليّة.

ويصوّر المؤرخ «المسعوديّ»، في كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، النُّذُر المهدِّدة للأمة العربيّة عند اَستلام عبد الملك بن مروان للحكم، تصويرًا يوضّح

ـ وإن كان لا يدقّق تاريخيًّا ـ ثقل الأحداث وضغوطها على الخليفة الجديد، فيقول: «إنّ عبدَ الملك سار في عام ٦٦هـ [أيّ بعد عام من وصوله إلى الحكم] على رأس الجنود الشاميّة، لقتال «المختار بن أبي عُبيد الثقفيّ» بالكوفة [وهذا الأخير هو متزعّم الشيعة]. وبينما هو في الطريق، أتاه في إحدى الليالي خبر مقتل قائده الذي سبقه لقتال المختار ـ وهو «عبيد الله بن زياد» ـ وانهزام جنده، وأتاه في تلك الليلة أيضًا مقتل القائد الذي أرسله لحرب «عبد الله بن الزّبير» في المدينة، ثم جاء خبر دخول الموالين لابن الزّبير أرض فلسطين ولحاق أخيه مُصعب بهم، ثم جاءه خبر مسير إمبراطور الروم ونزوله «المصيصة» [وهي على حدود بلاد الشام الشماليّة] في طريقه إلى الشام.. ثم جاءه أن عَبيد دمشق وأوباشها خرجوا على أهلها، وأنّ المسجونين فيها فتحوا السجن وخرجوا منه، وأنّ خيل الأعراب أغارت على حمص وبعلبك وغيرها... إلى ما هنالك من أخبار السوء التي تُذهب بعقل الحليم، وتبعث في النفس اليأس والقنوط».

ولكنّ عبد الملك لم تُربكه تلك الأحداث الجسام، فالبُعد السياسيّ الحربيّ واضحٌ في ذهنه، فهو قد كان يدرك أن «عبد الله بن الزّبير» سيحاول، بوساطة أخيه «مُصعب»، أن يستعيد نفوذه في العراق من «المختار»، ولذا فإنه ترك الأمر له ليُصفّيه.. وفعلًا، فإنّ مصعب، تمكّن من قتل المختار وإعادة سلطان أخيه على العراق.. وبذلك ابتلع ثائرٌ ثائرًا، وعبد الملك يراقب.

وبعد أن استقرّ الأمر لمصعب بن الزبير في العراق، توجّه عبد الملك عندها بنفسه وبقواته، ليقضي على حركة ابن الزبير فيها.. ولكنّه ما إن غادر عاصمة ملكه، حتّى ثار عليه فيها «عمرو بن سعيد»، وكان مرشّحًا لولاية العهد، وأخذ البيعة لنفسه من الأهالي، فارتدّ عبد الملك على أعقابه، ولم يضرب هذه المرّة بعنف، وإنما اتّبع سياسة المُلاينة واللطف لعمرو بن سعيد، حتّى سلّمه هذا الأخير نفسه، ولم يُمهله طويلًا فقتله.

وكما اتّبع سلاح السياسة مع خصمه عمرو بن سعيد، فإنه اتّبعه مع أهل العراق، واستطاع بالحرب والسياسة معًا أن يفضّ الناس من حول مصعب بن

الزبير، وأن يقضي علىٰ هٰذا الأخير، علىٰ الرغم من أفانين البطولة والشجاعة التي أظهرها.

وبعد أن آستتبَّ له الأمر في العراق، وجّه بصره إلىٰ الحجاز، وأَمْرُه مع عبد الله بن الزبير، أو بالأحرىٰ أمر قائد جيشه «الحجّاج بن يوسف الثقفي» في إخماد ثورة الحجاز، معروفٌ ومشهور، لما أصاب الكعبة الشريفة من ضربات منجنيقه، وما عاناه أهل مكّة من حصاره.. وأنتهىٰ الأمر بمقتل عبد الله بن الزبير، ورضوخ الحجاز لخلافة عبد الملك.

ولقد آستفاد، من هٰذا الصراع الداخليّ القائم، الخوارج، فقاموا هم الآخرون يشنُّون حملاتٍ متفرقةً في جنوب فارس والعراق؛ إلّا أنه كانت تنقصهم وحدةُ الكلمة، فسلّط عبد الملك عليهم سيفَه الحجّاج، الذي بعث لمحاربتهم بدوره «المهلّب بن أبي صفرة». وقد آستطاع هٰذا الأخير أن يفتّت تجمّعاتهم ويشتّت شملهم.

وإذا كان عبد الملك بن مروان قد تمكّن بمقدرته وتجاوب الشعب معه، وبمهارة قوّاده، أن يقبض علىٰ زمام الموقف، وأن يخمد تلك التحرّكات الداخليّة الخطيرة، لا علىٰ مُلكه وملك بني أميّة ـ كما يقول كثيرٌ من المؤرّخين ـ وإنما علىٰ وحدة الأمّة العربيّة، وكيان الدولة الواحدة كله، فإنه آستطاع، كذٰلك، أن يجعل الدولة تقف وحدةً متراصّة، وكالطّود، في وجه الحركات الخارجيّة التي آستغلت أنشغالاته العديدة وتوزّع قواه لتمارس ضغوطها الحربيّة علىٰ الحدود الشماليّة والغربيّة للدولة العربيّة الإسلاميّة. والذي يلفت النظر في سياسة عبد الملك سرعة الحركة وشمولها، فهو لا ينتظر إخماد حركةٍ ليقضي علىٰ أخرىٰ، وإنما يحاول أن يحرّك الخيوط كلّها معًا؛ بعضها حركة مداعبة، والأخرىٰ حركة قويّة، وثالثها حركة عنيفة؛ فالفتنة مشتعلة في بلاد الشام بينه وبين عمرو بن سعيد، وملتهبة في الحجاز والعراق بينه وبين عبد الله بن الزبير، إذا بالقوم الذين يُسمَّون «بالجَراجِمَة» أو «المَرَدَة» (وهم قوم من نصارىٰ بلاد الشام، كانوا يقيمون قرب أنطاكية ويمتدّون حتّىٰ الجنوب) يقومون بتحرّك مسلّح مؤيَّد من إمبراطور

الروم، وينزلون سهل البقاع، ويغزون جبال لبنان الشرقيّة، ويشنُّون حملاتهم على الحجيج، ويُفسدون في الأرض. ولما كان عبد الملك في محنةٍ حقيقية فإنه اتخذ حركة خيط ليّنة، وقَبِل المفاوضة مع إمبراطور الروم لإيقاف تلك الغزوات، بل وجدّد الهدنة معه على أن يدفع له مالاً ويكفّ الجراجمة عن أعمالهم العدوانيّة.. إلّا أنه، عندما صفا له الجو، بعث إليهم بجيشه ففتك بهم.

ومثلما أثار إمبراطور الروم الجراجمة في بلاد الشام، فإنه فعل مع بعض سكان شمال إفريقية؛ فقَبْل وصول عبد الملك بن مروان إلى الخلافة تزعم «كُسَيْلة» من سكان شمال إفريقية حركة تمرّد ضد العرب المسلمين، وفتك بجيش «عُقبة بن نافع» وأرداه قتيلًا، وزحف على القيروان، وسيطر عليها. وبدا عندها كأنّ حكم العرب المسلمين في إفريقية قد انتهى. ولكن لمّا تمّ الأمر لعبد الملك، وكان قد اشترك يومًا في فتوح العواصم في شمال إفريقية، فإنه أمدّ أميره في برقة «زهير بن قيس»، ـ وكان من قوّاد عُقبة المجرّبين ـ بجيش لجب، وقد تمكن هٰذا الأخير، بعد معارك مظفّرة، من القضاء على «كُسَيْلة»، ومن دخول القيروان. وبعث بفرق جيشه إلى مختلف البلاد ليعيدها إلى الحكم الإسلاميّ العربيّ. فانتهز الروم فرصة تفرّق الجيش هٰذه للنزول على الساحل الإفريقيّ عند قرطاجنّة، وتمكنوا من الاستيلاء على برقة وطرابلس، وسقط زهير شهيدًا في المعركة.

وعلى الرغم من عدم انتهاء عبد الملك بن مروان من فتنة ابن الزبير وذيولها نهائيًا، فإنه أدرك بأنّ انتصار الروم في شمال إفريقية، مع بعض أعوانهم من سكان البلاد، خطرٌ ضخم على الدولة العربيّة الإسلاميّة. ولذا فإنه بعث بقائده «حسان بن النعمان» سنة ٧٣هـ مع جيشٍ كبير، فدخل بعزم قرطاجنة، واستولى ثانيةً على القيروان، وهزم الروم وأحلافهم، ووطّد حسان للدولة العربيّة في شمال إفريقية، وقضى على تمرّد «الكاهنة» في جبال الأوراس، واستقبله أهالي البلاد استقبال المنقذ، وتدفّقوا على اعتناق الدين الإسلاميّ، بل وانخرطوا، منذ ذٰلك الوقت، في جيش المسلمين ليحاربوا إلى جوارهم، الرُّومَ في بقيّة أنحاء شمال

إفريقية وليفتحوا معًا إسبانية، وليمتزجوا في جهاد تحريريّ مقدّس، تُنشر فيه قيم الرسالة الإسلاميّة ومبادئها في المساواة والعدل والحريّة.

فعبد الملك بن مروان، في صراعاته الحربيّة تلك التي كانت أداته فيها جيش العرب المتلاحم، وفي منحىٰ الحزم، بل الشدّة والقسوة أحيانًا، في قمع تلك التمزّقات في كيان الأمّة الواحدة، والدولة الواحدة، والتي ترسم في صورة بناء الدولة تلك الخطوط القاسية الدامية وبعض الظلال المعتمة، كان يؤمن، دون مواربة، أنّ الإسلام حركة تنشد الوحدة السياسيّة، وتتجه إلىٰ تثبيت قيم ومُثُل موحدة، ولا يمكنها أن تشعّ علىٰ العالم كدينٍ، ومُثل اجتماعيّة بنّاءة وخلّاقة، إلّا في إطار دولةٍ واحدة، محكمة البناء ذات أصالة، مرتبطة بأصالة الرسالة ذاتها. ويبدو أنّ الجيش الذي سيّره لتحقيق تلك الوحدة، أو بمعنىٰ آخر الشعب العربي ممثّلًا عسكريًّا، قد تجاوب معه تجاوبًا كاملًا، لأنّ العاملين فيه كانوا يؤمنون بما آمن به عبد الملك، أي بضرورة الإبقاء علىٰ تلك الوحدة التي هي الثمرة الكبرىٰ من ثمرات الإسلام، بأيّ ثمن..

ولم يكتفِ عبد الملك، في الواقع، عبر الجيش، بلمّ شمل الأمّة المشقّق ورأبِ صدوعها فقط، وإنما وضع للجيش مهمّة أُخرىٰ، وهي متابعة تحرير الشعوب المغلوبة وتبصيرها بقيم الرسالة الإسلاميّة، وبثّ القيم الاجتماعيّة المثاليّة الجديدة التي أتىٰ بها الإسلام فعليًّا وعمليًّا. ولذا فإنه أعاد إلىٰ حركة الفتوحات التي ابتُدئت قبله، وتوقفت قليلًا، انطلاقتها الأولىٰ: فامتدّ شرقًا في سجستان، وهاجمت قواته المنطقة القريبة من كابل في أفغانستان الحاليّة، وثبت للإسلام في شمال إفريقية، حيث سيندفع خليفته من بعده في تحرّك وثّاب نحو الغرب.

وهو، إذْ أعاد للفتوحات اندفاعاتِها الأولىٰ، فلأنه كان يعتقد أنها تعبيرٌ حيّ عن وحدة الأمة العربيّة، ومفتّق لطاقاتها: فالفتوحات رصّت الصفوف في جهودٍ مشترك واسع، ولتحقيق هدف سام، وأشعرت الشعب العربيّ، وقد دعاه داعي الجهاد، بذاته، الحاملة لرسالةٍ سماويّة خلّاقة، وبقضيته المشتركة ومصالحه الموحّدة. ومن المعروف أنّ الفتوحات العربيّة ـ مهما تقوّل المؤرّخون الغربيّون والمستشرقون

في دوافعها ـ لم تتّخذ لها يومًا ديدناً فرضَ العقيدة الدينيّة بالقوة والعنف علىٰ الشعوب، بل حملت تلك العقيدة وقيمها إلىٰ تلك الشعوب عملًا، وحكمًا، وتسامحًا، وحبًّا، وعدلًا، وتركت لها بعد ذٰلك أن تختار العقيدة التي ترتضيها. وهٰذه الحريّة الدينيّة التي كفلتها للشعوب، هي التي قرّبتها إليها، فٱعتنقت تلك الشعوب الإسلام دينًا، وٱتخذت العربيّة لغةً، بٱختيارها البحت، وتلقائيًّا ومن نفسها، بل وساعدت العرب المسلمين في فتوحاتهم، وٱشتركت فعليًّا في جهادهم، وٱندمجت كليًّا معهم في كلّ إطارات عروبتهم، بل وأمدّت المدّ العربيّ الإسلاميّ بطاقةِ فتح جديدة متفجرة، بقيت تنصبُّ علىٰ الأعداء لهبًا، وتكسب للإسلام أرضًا حتّىٰ العصور الحديثة.

إلّا أنّ عبد الملك بن مروان، بشمول نظرته في بناء الدولة العربيّة الإسلاميّة الواحدة، رأىٰ أنّ البعد الحربيّ بكلّ أهدافه، وأنّ الجيش مهما بلغ من قوته وإيمانه وتجاوبه مع أهداف الأمة، لا يكفي وحده لترسيخ قدم الدولة الواحدة، بل يجب أن يدعم ذٰلك البعد ببعدٍ يشدّ أزره، ويحميه ويعمّق أثره، وهو البعد الثقافيّ. ويعني هٰذا البعد في خطوطه العريضة: إشعاع رسالة الإسلام الإنسانيّة، بقيمها الخلّاقة المبدعة، وبأصالتها العربيّة، ولسانها العربي، كما أُوحيت به صافيةً للرسول العربي: «إنّا جعلناهُ قرآنًا عربيًّا لعلّكم تتّقون». و«قرآنًا عربيًّا غيرَ ذي عِوَج»...

وهٰذا الإشعاع لن يتمّ عبر الفتوحات فقط، وإنما يجب أن ترافقها حركة تعريبٍ شاملة، تسود فيها اللغة العربيّة الدواوينَ والإدارة، والحياة كلّها، حتّىٰ تدرك الرسالة الإسلاميّة بأعماقها ومفهوماتها، وتصل إلىٰ الناس بأصالتها دون تحريف الأعاجم أو تشويه اللفظ. وهٰذا هو العمل الخلّاق الحقّ الذي ٱختطّه عبد الملك ونفّذه، وتابعه، من بعد، خلفاؤه. وكأني بـ «ٱبن خلدون» ـ وهو يتكلّم في مقدّمته عن أصحاب السيف والقلم وقيمتهما في الدول ـ كان يحكم علىٰ مخطط عبد الملك هٰذا، فقد قال «ٱبن خلدون»:

«ٱعلم أنّ السيفَ والقلم كلاهما آلةٌ لصاحب الدولة يستعين بهما علىٰ أمره، إلّا أنّ الحاجة في أوّل الدولة إلىٰ السيف، ما دام أهلها في تمهيد أمرهم، أشدّ من

الحاجة إلىٰ القلم... وكذٰلك في آخر الدولة... وأما في وسط الدولة فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف، لأنه قد تمهّد أمره ولم يبقَ همُّه إلّا في تحصيل ثمرات المُلك، من الجباية، والضبط، ومباهاة الدول، وتنفيذ الأحكام، والقلمُ هو المعين له في ذٰلك». ولعلّ ٱبن خلدون سها عن القول بأنّ ذاك القلم يجب أن يَكتُب بلغة صاحبه!

وهٰكذا ٱبتدأ عبد الملك حركته الشهيرة في التاريخ بٱسم «تعريب الدواوين والمؤسّسات الإداريّة». فالدواوين ـ وتضمّ، كما تعرفون، سجلّات الدولة المختلفة ـ يرجع إنشاؤها إلىٰ عهد عمر بن الخطاب. ولا بدّ أنّ ديوان العساكر الإسلاميّة أو الجند، وهو أول الدواوين التي ٱستُحدثت، قد كُتب بالعربيّة لأنّ القائمين عليه كانوا عربًا ومسلمين.

أما ديوان الخراج والجبايات (أو ما نسميه اليوم وزارة المالية)، فقد بقي علىٰ ما كان عليه قبل الإسلام. فديوان الخراج في بلاد الشام يُكتب بالروميّة، وفي العراق بالفارسيّة، وفي مصر بالروميّة وأحيانًا بالقبطية.. وكُتّاب تلك الدواوين من أهل الذمّة (العهد) من الفرس والروم. ويبدو الوضع ـ في الواقع ـ منحرفًا، وغير متوائم البتّة مع المنطق: فالدولة عربيّة إسلاميّة، لغةُ الوحي والرسالة فيها العربيّةُ، ولغة الحاكم عربيّة، ودواوين الخراج والطراز والطومار روميّةُ اللغة أو فارسيّتُها.. فكان من الطبيعيّ، وعبد الملك الخليفة العربيّ العالم والفقيه الأديب، أن يلاحظ ذٰلك التناقض، وتلك الآزدواجية الممزِّقة لوحدة ثقافة الأمّة، والمشتِّتة لإبداعها، والمُربكة لنشاطها: لا الماليّ أو الإداريّ فحسب، كما يمكن أن يُظنّ، وإنما الفكريّ والعمليّ بعامّة، لأنّ رباط الإدارة بحياة الناس، ومجموع حياة الدولة، رباطٌ وثيقٌ ومتين، يؤثّر أحدهما في الآخر تأثيرًا جوهريًّا وقويًّا، ويعكس ذاته في كلّ مجال حياتيّ.

هٰذا، ولا بد أنّ عبد الملك قد أدرك أيضًا أنّ الحركة الثقافيّة العربيّة ـ ويمكننا أن نعتبره هو ذاته أحدَ أركانها وروّادها ـ قد ٱبتدأت تستكمل تكوينها العربيّ الإسلاميّ، وأخذت تشعّ أنوارها عبر المدن العربيّة الإسلاميّة بعامّة،

والمدن التي بُنيت جديدًا على التخوم بخاصّة، كالكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان؛ فمن المعروف لديكم أنّ العرب أخذوا يضعون، منذ فجر الإسلام، أُسُس كيانٍ ثقافيّ عربيّ إسلاميّ لا يعتمد على ٱقتباس علوم الشعوب الأخرى ومعارفها، كما حدث فيما بعد في العصر العبّاسي، وإنما على تفاعلات فكرهم العربيّ الحيّ مع الرسالة السماويّة، والأحداث الكبرى التي كانوا يعيشونها، ويبنون من لَبِناتها صَرْح دولتهم؛ فظهرت بذٰلك الدراسات العربيّة اللغويّة والأدبيّة، ونشطت الدراسات الإسلاميّة حول القرآن والحديث، بالإضافة إلى الدراسات الفقهيّة الضافيّة. وكما يقول المؤرّخ المعاصر «عبد العزيز الدوري»: «لقد كان دور هٰذه الدراسات خطيرًا في تكوين طابَع متميّز للمجتمع الجديد، تسوده الروح العربيّة والمبادئ الإسلاميّة بالدرجة الأولى، ولا يزال هٰذا الطابع من خصائص تراثنا العربيّ القوميّ...»، وهٰذا النشاط الثقافيّ العربيّ الأصيل الذي أحسّ عبد الملك بخصبه الخلّاق، وضرورة تفاعله مع شعوب الدولة العربيّة الإسلاميّة الواحدة، كان عليه أن يدعمه، وأن يفتح له مجالات الٱنتشار على أوسع نطاق، بحيث تتمكّن تلك الثقافة العربيّة الإسلاميّة والقيم الٱجتماعيّة الجديدة، أن تستعمق بأصالتها ودون تحريف أو تزوير أو ٱنتقاص، في أنحاء الدولة وفي قلوب الشعوب. ولا يمكن لهٰذا الأمر، في الواقع، أن يتمّ إلّا بغرس بذور تلك الحركة الثقافيّة أوّلا في صلب بناء الدولة، عن طريق جعل عناصرها الكفيّة هي السائدة والقابضة على زِمام الأمور والمسيطرة على المؤسسات الإداريّة الحضاريّة ذات الطابع الروميّ والفارسي. فالحركة الثقافيّة العربيّة تطلب مجالَها الحيويّ؛ فإلى جانب إشعاعها من حلقات المساجد والمجالس، فإنها يجب أن تنبعث من الديوان أو المؤسّسة الحكوميّة. فتعريب الدواوين، لا يعني فقط تعريب اللفظ ـ وهٰذا أضعف الإيمان ـ وإنما تعريب الروح، وتعريب العاملين فيها، وتمثُّلهم لكلّ ما تحمله اللغة العربيّة في ذاتها من إشعاعاتٍ فكرية أصيلة، وما حمّلها إيّاه الدين الإسلاميّ من معانٍ جديدة... إن تعريب الدواوين يعني نشر اللغة العربيّة، والثقافة العربيّة على أوسع نطاق، وتحويلها من لغة القرآن، والرسالة، والمسجد

فقط، إلىٰ لغةٍ للحياة اليوميّة، تمتزج فيها كلمات الدين بكلمات اليوم، وبذٰلك تستعمق العقيدة الدينيّة في النفوس، لتفاعلها الخصب مع العيش.

لقد كان تعريب الدواوين، إذًا، هو المظهر الحيّ لنموّ الفكر العربيّ، وٱنفتاحه علىٰ مَن حوله، وبالتالي تمكّن العرب في الميدان الحضاريّ، وقدرتهم علىٰ التحرك الفعّال في الإطار المدنيّ. وعلىٰ بعضٍ من هٰذا المعنىٰ يشير «ٱبن خلدون»، عندما يعلّل تعريب عبد الملك بن مروان للدواوين، فيقول: «لمّا جاء عبد الملك بن مروان وٱستحال الأمر مُلكًا، وٱنتقل القوم ـ أي العرب ـ من فظاظة البداوة إلىٰ رونق الحضارة، ومن سذاجة الأميّة إلىٰ حذق الكتابة، وظهر في العرب ومواليهم مهرةٌ من الكُتّاب والحسبان، أمر عبد الملك، «سليمانَ بن سعد»، والي الأردن لعهده، أن ينقل ديوان الشام إلىٰ العربيّة».

وبالإضافة إلىٰ ذٰلك الدافع الرئيسيّ الجوهريّ، الذي حدا بعبد الملك إلىٰ القيام بعمله الثوري ذاك، فإنه لا بد أدرك أنّ تسلم الفرس والروم لديوان الخراج، وهو ديوان المال وعصب حياة الدولة، له أخطاره الجمّة التي لا تُحصىٰ. فكأنه يسلّم بناء الدولة العربيّة الإسلاميّة ـ ولمّا يكتمل ـ إلىٰ الأعداء المقهورين، الذين ما ٱنفكّوا عن كيدهم ودسّهم: «فهٰذه الوظيفة (أي الإشراف علىٰ ديوان الخراج) كما قال عنها «ٱبن خلدون»، هي جزء عظيم من المُلك، بل هي ثالثة أركانه، لأنّ المُلك لا بدّ له من الجند والمال والمخاطبة لمن غاب عنه...». فوجود الغرباء من الروم والفرس سائدين مقدرات الدولة الأساسيّة، كان تحدّيًا، في الواقع، للدولة العربيّة الإسلاميّة الناشئة. فالكُتّاب الروم والفرس، كانوا يشعرون أنهم بعيدون مبدئيًا عن مراقبة سلطات الدولة العُليا، لأنهم يُدوّنون بلغةٍ لا تُجيدها، فالمرتع أمامهم إذًا كان خصيبًا للتلاعب والتزوير. كما أنهم كانوا يحسّون ـ كما يحسّ كثيرٌ من الاَستعماريّين الغربيّين اليوم ـ أنهم من طينةٍ تفوق طينة العرب، ولا يمكن لهٰؤلاء أن يتحضّروا، ويصلوا إلىٰ مستواهم مهما حثّوا الخطىٰ، ومن ثَمّ فلا غنىٰ للحاكمين الجُدد، والدولة العربيّة الإسلاميّة، عن خدماتهم: فمهما تحكّموا وٱستبدّوا، ورفعوا رؤوسهم شامخًا، وٱستهانوا بعادات

العرب الحاكمين وقيمهم، بل وأهملوا عملهم، وتقاعسوا فيه، فإنّ عروشهم لن تُدَكّ. وإلىٰ هٰذه الناحية بالذات، تشير روايات معظم المؤرّخين، عند كلامها عن الأسباب التي دفعت عبد الملك إلىٰ تعريب الدواوين. ففي رواية: «أن «سرجون بن منصور النصراني»، الذي كان يتقلّد ديوان الشام، أمره عبد الملك يومًا بشيء، فتثاقل عنه وتوانىٰ، فعاد وطلبه وحثّه، فرأىٰ منه تفريطًا وتقصيرا، فقال عبد الملك لسليمان بن سعد، وكان يتقلّد له ديوان الرسائل: «أما ترىٰ إدلال سرجون علينا، وأحسبه قد رأىٰ ضرورتنا إليه وإلىٰ صناعته، أفما عندك حيلة؟ قال: لو شئتَ، لحوّلتُ الحساب إلىٰ العربيّة، قال: فَأفعل!.» فولّاه عبد الملك خراج الأردن لسنة، فلم تنقضِ حتّىٰ فرغ من نقله».

والرواية التي ذُكرت عن تعريب «الحجّاج» لديوان العراق تشبه في إطارها العام، وبالتحدّي الموجّه إلىٰ قدرات العرب فيها، ما ذُكر عن تعريب ديوان الشام. فقد كان علىٰ رأس ديوان العراق، «زادان فروخ بن بيري»، وكان إلىٰ جانبه في عمله «صالح عبد الرحمٰن» مولىٰ بني تميم، وكان يكتب ـ بحسب ما جاء في الرواية ـ بالعربيّة والفارسيّة. وكأني بالحجاج قد وضعه قصدًا ليتعلّم الصّنعة من الفارسيّ، وأحسّ صالح عبد الرحمٰن أنّ الحجّاج يقرّبه إليه، فقال مرّة لزادان: «لقد آستخفّني الأمير، ولا آمن أن يقدّمني عليك، وأن تسقط.. فقال له زادان: لا تظن ذٰلك فهو أحوج إليّ منه إليك لأنّه لا يجد من يكفيه حسابه غيري. فقال له صالح: والله لو شئتُ أن أحوّل الحساب إلىٰ العربيّة لحوّلته. فقال له زادان: حوّل منه شطرًا حتّىٰ أرىٰ، ففعل...» ولما قُتل زادان، في حرب عبد الرحمٰن بن الأشعث، خلفه صالح وترجم الديوان إلىٰ العربيّة.

ولا يقلّ خطورةً وأهمّيّةً عن تعريب ديوان الخراج، تعريبُ الطراز والطّومار. أما «الطّراز»، فكما عرّفه «آبن خلدون»، هو أن تُرسم أسماء الملوك والسلاطين، أو علاماتٌ تختصّ بهم، في طراز أثوابهم المعدّة للباسهم من الحرير أو الديباج، و«الطومار» هو الأوراق الرسميّة التي تُكتب عليها الرسائل

السلطانيّة، ووثائق الدولة. وقد كان الطراز أو ثياب الخلفاء، والطوامير، تُصنع في مصر ويقوم على صناعتها رجالٌ من النّصارىٰ (الأقباط). وقد ظلّت كذٰلك إلىٰ عهد عبد الملك بن مروان. ويربط بعض المؤرّخين ترجمة ما كتب عليها بعمليّة نقل الدواوين إلىٰ العربيّة.. أي أنّ تلك الترجمة قد تمّت بعد تعريب الدواوين. بل إنّ بعضهم يحدّد لها زمنًا قبل المرحلة السابقة، أي قبل تعريب الدواوين، ويعتبرها الخطوة الأولىٰ في ذٰلك العمل. وقد يكون هٰذا صحيحًا لأنّ الربط المنطقيّ للأحداث يُسوّغه، بمعنىٰ أنّ التعريب ٱبتدأ بالطومار والطراز، ثمّ بالنقد، وأخيرًا بالدواوين. ويأتي التاريخ الذي يحدّده المؤرخون، منسجمًا مع هٰذه الخطوات. ومهما يكن، فلقد تبيّن لعبد الملك بن مروان أنّ ما جاء علىٰ الطراز والطوامير، بعد ترجمته إلىٰ العربيّة، هو: «بٱسم الأب والآبن والروح القدس»! فأكبر ذٰلك، وقال: «ما أغلظ هٰذا في أمر الدين والإسلام». وكتب إلىٰ أخيه عبد العزيز، وكان واليه علىٰ مصر، وأمره بإبطال ذٰلك الطراز، وٱستبدال عبارة: «قل هو الله أحد» بما كان يُكتب، ومعاقبة من يخالف ذٰلك.. ولا بدّ من الإشارة هنا إلىٰ أنّ الطراز والطوامير، كانت تُرسل من مصر إلىٰ بلاد الروم، وبالمقابل، كانت الدنانير الذهبيّة تُضرب في بلاد الروم وتُرسل إلىٰ بلاد الإسلام.

وكان تعريب الدواوين والطراز والطومار تحدّيًا عنيفًا لنفوذ الروم والفرس، علىٰ السّواء، وهزّةً كبيرة لهم، لا تقلّ عن زلزلة الفتوحات لسيادتهم. فقد فهموا منه ـ كما يجب أن يُفهم ـ أنه تكاملٌ لبناء الدولة العربيّة الإسلاميّة، وتوطّد لأركانها، وترسيخ لدعائم العرب فيها، وتمكّن المفاهيم الحضاريّة من العرب وٱستغناؤهم عن خدماتهم، وتحرّر الدولة الكامل من ضغوطهم. فزمام الأمر أفلت نهائيًا من أيديهم، ولا أدلّ علىٰ ذٰلك، من شعور المرارة الذي أحسّ به الكُتّاب الروم والفرس الذين ضُربت مصلحتهم في الصميم: فبعد أن عرّب «سليمان بن سعد» ديوان الشام، دعا عبد الملك «سرجون بن منصور» النصرانيّ إليه، وعرض عليه ما فعله سليمان، فغمّه الأمر، وخرج من عنده كئيبًا

مهمومًا، فلمّا لقيه قومه من كتّاب الروم وسألوه ما به، قال لهم: «آطلبوا المعيشة من غير هٰذه الصناعة، فقد قطعها الله عنكم».

أمّا زادان فرّوخ، فعندما رأىٰ قدرة صالح عبد الرحمٰن علىٰ تعريب جزء من ديوان الخراج، فإنه بذل له علىٰ ـ ما تذكر الرواية ـ مائة ألف درهم، كي يُظهر العجز عن نقل الديوان إلىٰ العربيّة. ويذكر «آبن خلدون» أنّ هٰذا الأمر ـ أي التعريب ـ قد غُمّ منه كتّاب الفرس ـ أي كرهوه ـ وتضايقوا منه.

ولم يقتصر الأمر علىٰ ردود فعل فرديّة ملوّنة بالمرارة والألم، بل أخذت القضية لونًا سياسيًّا، وشرعت تدور في المستوىٰ الدوليّ، وتظهر بضغوط شتّىٰ تُمارَس علىٰ الدولة العربيّة الإسلاميّة ككلّ، ومن دولة الروم بخاصّة. كما يحدث اليوم تمامًا عندما تحاول إحدىٰ الدول النامية الآنفلات من فلك الآستعمار الجديد، والآستقلال بشؤونها الخاصّة، والتأكيد لذاتيّتها المتميّزة.

وتبدّىٰ ذاك الضغط، أولًا، برسالة آستنكارٍ بعث بها إمبراطور الروم إلىٰ الخليفة عبد الملك، إثر تعريبه الطراز والطومار ووصولهما إليه بكلمات «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ» بدلًا من كلمات «بآسم الأب والآبن والروح القدس»، فكتب إليه: «إنّ عمل القراطيس بمصر وسائر ما يُطرّز هناك للروم.. ولم يطرّز بطرازهم.. فإن كان مَن تَقَدَّمك من الخلفاء قد أصاب، فقد أخطأت، وإن كنت قد أصبت، فقد أخطأوا، فآختر إحدىٰ الحالتين». وبعث إليه الكتاب مع هديّةٍ يسترضيه بها، ويدعوه إلىٰ الرجوع عمّا بدأ به. فردّ عليه عبد الملك هديّته، وأخبر الرسول أنه لا جواب لديه علىٰ الرسالة. فكرّر الإمبراطور رسائله، وتمادىٰ عبد الملك في صمته، فآستشاط قيصر الروم غضبًا، وبعث إليه بتهديده الآقتصادي ـ الدعائي المعروف، وهو أن يُدوّن علىٰ الدنانير المسكوكة لديه سبًّا بالرسول الكريم: «إنكم أحدثتم في قراطيسكم ما نكرهه، فإن تركتموه، وإلّا أتاكم من الدنانير مِن ذكر نبيّكم ما تكرهونه».

وإذا تابعنا رواية المؤرّخين إلىٰ مداها، فإننا نقول أنّ عبد الملك لا بدّ وأنه شعر بالحرج أمام ذٰلك التهديد: فآقتصاد الدولة بحاجةٍ ماسّة إلىٰ النقد الذهبيّ

البيزنطي، الذي كان وحدة التعامل الرئيسيّة في أنحاء الدولة العربيّة الإسلاميّة، بل وفي معظم العالم المعروف آنذاك، حتّىٰ إنّ الفرس أنفسهم كانوا لا يسكّون إلّا العملة الفضيّة. فمكانة الدينار البيزنطيّ في الأقتصاد العالميّ، كانت مكينة ومتينة، والتهديد في الحقيقة، إذا ما نُفّذ، خطير، ومؤذٍ، ومهين للدولة العربيّة الإسلاميّة؛ فالنقود بتداولها الواسع، مجال دعائي قويّ وخطير جدًا.. وإذا مُنع دخول تلك النقود، فإنّ أقتصاد البلاد يُهدّد بأزمةٍ عنيفة لأنّ الدولة لا تملك بديلًا عنها.. ولم يرد عبد الملك علىٰ الرغم من إيمانه بصحة عمله أن يقطع بالأمر وحده ـ علىٰ ما تذكر الرواية ـ فأستشار «خالد بن يزيد»، فأشار هٰذا عليه بتحريم دخول الدنانير الروميّة إلىٰ البلاد الإسلاميّة، وبسكّ عملةٍ عربيّة ذهبيّة تحِلّ محلّ الدينار البيزنطي.. ولم يتردد عبد الملك، فأقدم علىٰ خطوته الثوريّة الكبرىٰ وأوجد النقد العربيّ الفضيّ والذهبيّ للدولة العربيّة الإسلاميّة.

بذٰلك، أرتسم البعد الأقتصاديّ بكلّ عمقه في تكامل بناء الدولة العربيّة الإسلاميّة، ذٰلك البعد الذي حرّرها أقتصاديًا من كلّ ضغطٍ أجنبي أو تلاعب بمقدراتها. فتبنّي الدولة لنقدٍ خاصّ بها، هو أساسٌ أول من أُسُس بنائها القوميّ الأقتصادي الحرّ. إذ أنّ السماح للنقد الأجنبي بالتجول حرًا علىٰ أرضها مع عدم وجود قوةٍ نقديّة خاصة تقاومه، وبإغراق أسواقها، عندما يحلو للدول الأجنبيّة أن تفعل ذٰلك، وبإدخاله مزيّفًا أحيانًا، يعني جعل تلك الدولة في مهبّ الريح، وتعريضها لأزماتٍ أقتصاديّة تُزعزع كيانها، وبنيانها، بشكل مستمرّ.

وربما يقول قائل: إنّ عمر بن الخطاب كان أوّل من ضرب الدراهم الفضّيّة علىٰ النمط الفارسيّ، وزاد علىٰ بعضها كلمة «الحمدُ لله» وعلىٰ بعضها الآخر «محمّد رسول الله»، وإنّ معاوية حاول، هو الآخر، أن يضرب بعض الدراهم والدنانير، وكذٰلك فعل بعض عمّاله في العراق. بل إنّ هناك رواية أنّ مُصعب بن الزبير، كان أوّل من ضرب الدنانير والدراهم بالعراق بأمر أخيه عبد الله، وكتب علىٰ أحد الوجهين «بركةُ الله» وفي الآخر «أسم الله». ولكن هٰذه العمليّات كلّها كانت محدودة ومحليّة، إذا ثبت وجودها، إذ أستمرت

الدنانير البيزنطيّة، والدراهم الفارسيّة، سائدةً في النظام النقديّ للدولة العربيّة الإسلاميّة حتّىٰ عهد عبد الملك. فلمّا أتىٰ هٰذا الأخير وبدأ حركته الثوريّة البنائيّة الضخمة، المستمدّة من حاجات الشعب العربي، ومطالبه الروحيّة والاّقتصاديّة، فإنه قرّر ضَرب العملة الذهبيّة والفضّيّة. وهٰذا ما أجمع عليه معظم المؤرّخين: «الطّبري»، و«القلقشندي» في «مآثر الأنافة في معالم الخلافة»، و«البلاذري» في «فتوح البلدان»، و«الماورديّ» «في الأحكام السلطانيّة». ومهما قالت الروايات في الدوافع التي حدت بعبد الملك إلىٰ سكّ العملة العربيّة، فإنّ عمله لم يكن ردّ فعلٍ لتحدٍّ، أو لضغطٍ أنيّ، وإنما كان ضمن المخطّط الشامل الذي رسمه في عقله لتكامل سيادة الدولة العربيّة الإسلاميّة، وترسيخ دعائمها علىٰ قاعدة ثابتة من الذاتيّة العربيّة الحرّة والخلاقة. بل إنّ سكّ العملة الذي تمّ، كما ثبت من الدراسات الحديثة بين عاميّ ٧٤ـ٧٥هـ، قد يكون أسبق زمنًا من عمليّة تعريب الدواوين، وما ولّدته من تحدّيات شتّىٰ.

وقد أدرك اّبن خلدون، بحسّه التاريخيّ النقديّ، هٰذا الأمر؛ فعزا عمل عبد الملك إلىٰ سببٍ طبيعيّ، وواقعيّ، وحقيقيّ، نابع من متطلّبات بناء الدولة ذاتها. فقال: «إن السّكّة ـ وهي الطابع الذي يوضع علىٰ الذهب والفضّة لإثبات صحّة وزنهما ـ هي وظيفةٌ ضروريّة للملك، إذ بها يتميّز الخالص من المغشوش.. ولمّا جاء الإسلام، أغفل ذٰلك لسذاجة الدين، وبداوة العرب، إلىٰ أن تفاحش الغشّ في الدنانير والدراهم لغفلة الدولة عن ذٰلك، فأمر عبد الملك الحجّاج بضرب الدراهم، وتمييز المغشوش من الخالص، وكتب عليها: «الله أحد الله الصّمد».

وقد أنشأ عبد الملك دارًا لضرب العملة في دمشق، وأبقىٰ وزن الدينار العربيّ علىٰ وزن الدينار الروميّ، وكذٰلك الدرهم علىٰ وزن الدرهم الفارسيّ.. ووضع الصنجات لوزن النقد وضبطه.

ومن هٰذا الاّستعراض السريع لصفحة التاريخ العربيّ الإسلاميّ يتّضح لنا بجلاءٍ أنّ مفهومات الدولة القوميّة بكلّ مقوّماتها وأطرها، لم تكن خافيةً علىٰ العرب في ذاك الوقت، بل كانوا مدركين لكلّ من أبعادها، وبعمق، حتّىٰ في

أعنف الأزمات التي تعرضت لها دولتهم العربيّة الإسلاميّة، وبدا وكأنّ الأمر يكاد يفلت من أيديهم. فالتحدّيات لن تتوقف، وهي قادرة على أن تفجّر دائمًا انطلاقات إبداع وخلق مستمرة. فعلى الرغم من كل الانشقاقات والصعوبات المروّعة التي كانت تجابه الدولة فإن عبد الملك لم يتوانَ في تنفيذ كامل مخطّطه، ولم ينتظر، ولذا، فإنه سهر على تجسيد أبعاد مخططه واقعًا وبثوريةٍ حازمة مع كل الأخطار المحيقة. فعهد عبد الملك لم يكن في الواقع تعريبًا للدواوين فحسب، وإنما كان ترسيخًا لعروبة الدولة الإسلاميّة الواحدة، وتمتينًا لبنائها القوميّ، من جميع النواحي الاقتصاديّة والثقافيّة والحربيّة. فبتعريب الدواوين، مكّن عبد الملك لغة القرآن من التحرك في كلّ مجال حياتي، وبثّ مبادئ الرسالة الإسلاميّة مباشرة ودون وسيط، وربط بالتالي النواحي الإداريّة نفسها بالأصالة الإسلاميّة العربيّة. فهو بعمله ذاك أزال التناقض المؤذي للعقل والواقع، الذي كان قائمًا في أسس بناء الدولة، بأن وحّد لغة الإدارة مع لغة الرسالة الدينيّة التي تستند إليها، كما أزال ذلك التباين في النظم، التي ورثها العرب في الأمصار التي فتحوها من فارسيّة ورومية، ودمجها كلّها في وحدةٍ عربيّة. كما أنه، بعمله العربي، أبعد النفوذ الأجنبيّ بكلّ أشكاله عن التدخّل في شؤون الدولة، فقصقص أجنحة غير العرب، وقلّص إطار عملهم في الدولة الناشئة، وقطع دابر دسائسهم ومكائدهم.. وهذا ما دعا المؤرخ «السيد أمير علي»، إلى القول، «إنّ النظام الإداري والسياسيّ للإدارات الإسلاميّة في عهد الدولة الأمويّة، لم يكن من عمل معاوية، بل إنّ عبد الملك هو المؤسّس الحقيقي لهذا النظام، فهو الذي صبغ الإدارة الماليّة بالصبغة العربيّة، وبتحويله الدواوين إلى العربيّة، تقلّص نفوذ أهل الذمّة والنصارى من غير العرب..».

وبالمقابل، فإن الخليفة بعمله التعريبيّ الواسع، أفسح المجال للعناصر العربيّة الكفيّة لكي تمارس الأعمال الجديدة. فبثّ الثقة «الحضاريّة» ـ إذا جاز لنا القول ـ في نفوسها، ممّا فتّق لديها قوى الخلق والإبداع في ميدان عملها هذا، حتّى إنّ الكاتب «عبد الحميد بن يحيى» كان يقول دائمًا: «لله درّ صالح ـ ويقصد به

(صالح عبد الرحمٰن) معرّب ديوان الخراج في العراق ـ ما أعظم منّته على الكتاب!» وأحراني به أن يقول: ما أعظم منّته على أمّته العربيّة بعامّة!

وبالإضافة إلى كلّ ذٰلك، فبتعريب الدولة بعامّة: الدواوين، والنقد، دفع العناصر من غير العرب إلى تعلّم العربيّة وإتقانها، وتفهّم القرآن، والاعتناق العقلانيّ للدين الإسلاميّ، وتبني الثقافة العربيّة قلبًا وقالبًا، ثم الإسهام فيها وإغنائها بتياراتٍ فكريّة جديدة، وبالتالي، إخصاب العربيّة ذاتها كلغة بمعان ومصطلحات جديدة. فالثورة البنائيّة العربيّة لعهد عبد الملك بن مروان، كانت هي بداية التّفاعل العربيّ الإسلاميّ المثمر بين الشعب العربي والشعوب الأخرى، وبداية الاتّجاه المنظّم للإفادة من الثقافات الأخرى، وصهرها كلها في بوتقة العربيّة، ذٰلك الصهر الذي خرجت منه، كما تعلمون، ماسة الحضارة العربيّة الإسلاميّة، ذات النور الصافي المتلألئ والمشع على العالم بأسره. وبمعنى آخر، كان التعريب هو بداية دخول العرب في الطور الحضاريّ الإنسانيّ ـ أي المتفتح على كلّ الحضارات الأخرى ـ على عكس ما يمكن أن يستنتجه بعضهم.

إنّ الصفحة التاريخيّة المستعرضة، واللوحة المرسومة، تفرضان ذاتيهما علينا اليوم، نحن العرب، وبإلحاح، إذا أردنا حقًّا وفعلًا أن نؤكّد عروبتنا ونثبّت لأقدام أمّتنا في إطار امتدادها العربيّ عبر وطننا من الخليج العربيّ إلى المحيط الأطلسيّ: فبالجيش العربيّ المؤمن بربّه، والمؤمن بالأصالة العربيّة للرسالة الإسلاميّة، وبوحدة أمته العربيّة وأهدافها، والممثّل عسكريًّا للشعب وأمانيّه، وبالسياسة العربيّة النابعة من الذات العربيّة الصافية، والمتحركة بحريّة في تحقيق مبادئ الأمّة دون تأثّر بأيّ ضغطٍ أجنبيٍّ خارجي، وباقتصاد عربيٍّ موحّد مستقلّ عن تلاعبات الدول الأجنبيّة وتحكّماتها الاحتكاريّة وضغوطها ويكون عائد خيره لجميع أفراد الأمّة، وأخيرًا، وأوّلًا، وأساسًا، بالثقافة العربيّة الأصيلة، الإنسانيّة، المتفتّحة على كلّ الثقافات الأخرى، والدامجة في ذاتها كلّ القيم الخيّرة المتلائمة مع أصالتها، بهٰذه الثقافة العربيّة، ودعامتها ـ بالطبع ـ اللغة العربيّة الحيّة المتحرّكة، والتي ستبقى حيّةً، على الرغم من كلّ المحاولات

لتحنيطها وتصنيفها ضمن اللغات الكلاسيكيّة، يتمّ توكيد ذاتنا العربيّة وترسيخ دعائمها على أرضنا، وفرض هيبتها وٱحترامها على غيرنا. وهٰذه اللغة ليست ضروريّةً للأمّة العربيّة فحسب، وإنما لكلّ الشعوب التي تدين بالإسلام، لأنه لا يمكن فهم أصالة هٰذا الدين إلّا بها.

وكلمة صغيرة أسوقها هنا على الهامش: إنّ ما يطرق الأسماع في جزائرنا العربيّة اليوم، وما تتداوله الألسن تحت ٱسم حركة التعريب، والتي قد تقف حفنةٌ ضئيلة منها موقف مقاومة، ليست هي في الواقع حركةَ تعريب (آنيّة)، أو حادث ردّ فعل على حركةِ فَرْنَسَةٍ سابقة. فإحلال العربيّة اليوم في الجزائر محلّ الفرنسيّة هو في الواقع «عودةٌ إلى الأصالة»، ومتابعةٌ للخطّ الحياتيّ الطبيعيّ، ووَصْلُ الشعب ثانيةً بتاريخه العميق وربطه به ربطا مُحكَمًا ومتينا، وتوحيدٌ للغة الحكم مع لغة الشعب. فالعربيّة ليست لغةً جديدةً جاءت لتطمس تراث الماضي، وإنّما هي لغة الأصالة، ولغة القوم، وهي ٱرتدادٌ إلى الأصل والمنبع، الذي لم يَغِضْ ماؤه يومًا، ولن يغيض، ما دامت عناصر الحياة العربيّة مؤمنة بذاتها، ودينها، وتراثها، وحضارتها، وإمكانات عطائها للإنسانيّة.

تألّق الحضارة العربية الإسلامية

هارون الرشيد

ليس الاسم بجديدٍ عليك، مستمعي، ولعلّك دهشت للبحث في شخصيّة حامله، والحديث عنه، فأنت تعرفه، وترسم له صورةً معيّنة واضحة في ذهنك، فهو خليفةٌ من خلفائك العرب المسلمين، الذين طبّق اسمُهم الآفاق، وطارت شهرتهم على كلّ لسانٍ بين شرقٍ وغرب، وضجّت بأحاديثه، ومجالس طربه، صفحاتُ كتاب «الأغاني»، ومجلّدات «ألف ليلة وليلة». وإذا كنت قد اتصلت بهذا الخليفة من آل العبّاس، عن طريق كتب التاريخ العربيّة والغربيّة، لكان قد اتّضح لك، بأنّ معظم الغربيّين لم يتعرّفوا شخصيّته إلّا عبر أقاصيص «ألف ليلة وليلة» فحسب، ومن ثمّ أحاطوا شخصيّته بهالةٍ من الخرافات والأساطير، وكوّنوا له في أذهانهم صورةً تنسجم مع الخيال أكثر ممّا تأتلف مع الواقع، ولعلّك أنت أيضًا قد تأثّرت بها، فهو في كتاباتهم، وأقاصيصهم حوله، ليس الخليفة العربيّ القادر، الذي تفتّحت الحضارة العربيّة الإسلاميّة في عهده تفتُّح الزهر الضاحّ، وإنما هو الملك الشرقيّ الذي يعيش في تَرَفٍ لا مثيل له، ووسطَ الجواري والغلمان، ويغطّ في مجالسَ عارمةٍ للشراب، يكثُر فيها الندماء، وتُلبس فيها الملابس المعصفرة، ويُتداول الكاس والطاس، ويُعبُّ فيها من لذائذ الحياة الدنيا حتّى الثّمالة. فالغناء والشراب سلوته، والنساء والموسيقى ألهيته، والحياة لديه مالٌ ونعيم، وأُعطياتٌ ورخاء مقيم، وشعرٌ وترنيم.

وقد طغت هٰذه الصورة، بلمعانها الدنيويّ، وأُطُرها الشاعريّة الخياليّة، علىٰ الصورة الحقيقيّة الأخرىٰ التي خطّها التاريخ لخليفتنا الرشيد، وغطّت ما تردّده وتؤكّده كتب التاريخ الحقيقيّة، عن أنّ «بغداد»، عاصمة الخلافة العربيّة الإسلاميّة، عرفت أبهىٰ عصورها أثناء خلافته، التي آمتدّت ما يقرب من ربع قرن، (بين عامي ١٧٠ـ١٩٣هـ/ ٧٨٦ـ٨٠٤ م)، وأنّ فترة حكمه، كانت فترة التألّق الحضاريّ العربيّ الإسلاميّ، بعطائه العلميّ والفنّي السخيّ، وبتأجُّجه الحياتيّ، وتلوينه الفكريّ العديد، الذي تحوّل إلىٰ ثمارٍ ناضجة في الحقبة التي تلت.

و«هارون الرشيد» هٰذا ـ كما تعلم مستمعي ـ هو خامس خلفاء بني العبّاس. تسلّم سُدّة العرش بعد أخيه «الهادي». وقد آستشرق الدنيا في مدينة «الرّيّ»، لثلاثٍ بقين من ذي الحجّة سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٣م (وهناك من المؤرخين من يؤكّد ميلاده في ١٤٩هـ/ ٧٦٧م). وكانت أمّه أمّ ولد، يمانيّة جرشيّة، يقال لها «الخيزران». وكانت قد رُزقت قبله بأخيه «الهادي». وقد أعتقها «المهديّ» وتزوّجها، عندما كان هارون من العمر أربعةَ عشر عامًا.

وقد رُبّي «هارون» مع آل برمك الفرس، الذين وثق بهم الخليفة المنصور أولًا، فالمهدي بعده. وقد أناله أبوه «المهدي» من العلم ثقافة عصره، فدرّسه علىٰ أشهر الفقهاء والعلماء، وأتقن فنون الحرب والسياسة، وأظهر ذكاءً، وكفايةً، وكياسة، حتّىٰ إنّ والده ولّاه العهد بعد أخيه الهادي. وعندما شبّ، عيّنه واليًا لبلاد المغرب، ولم يكن قد بلغ العشرين من عمره، لمّا بعثه علىٰ رأس حملةٍ كبيرة من حملات الصوائف، لغزو بلاد الروم، وآسترداد النفوذ. وقد وصلت قوّات هارون الشاب إلىٰ مضيق البوسفور، وبلغت مشارف القسطنطينيّة. وآضطّرت ملكتها الوصيّة «أيرين»، أنْ توقّع صلحًا مذلًّا، وأن تدفع للعرب في كلّ عام جزيةً ضخمة. وقد أبلىٰ هارون في هٰذه الحملة، بلاءً حسنًا، حتّىٰ منحه أبوه لقب «الرشيد» الذي غلب علىٰ آسمه الأوّل، وفكّر في أن يرشّحه للخلافة بعده مباشرة، بدلًا من أخيه «الهادي». وكانت أمّه «الخيزران»، تؤيّد هٰذا المسعىٰ،

لإيثارها له علىٰ أخيه، بسبب أخلاقه الطيّبة، ومعاملته الرفيقة. وكاد الأمر أن يتمّ، لولا أن حالت منيّة «المهدي» دون ذٰلك.

وحفظها «الهادي» في نفسه، بعد وفاة أبيه، علىٰ الرغم من أنّ الرشيد بايعه بالخلافة مباشرةً، وأظهر له كلّ الودّ والمحبّة. فقد عزم علىٰ عزله، والبيعة لآبنه «جعفر» الطفل، وتفنّن في إهانته. وكم من مرّة أظهر لهارون ضيقه، وسوء نيّته تجاهه، بل وحقّره في مجالسه. ولكن «هارون» كان يرد عليه بالحسنىٰ، وبهدوء طبع، وسعة صدرٍ، فيفحمه ويردّه خائبًا. ويذكر المؤرخ «المسعوديّ»، أنّه كان يومًا في مجلس أخيه، فقال له «الهادي» بشراسة: «كأنّي بك يا هارون تحدّث نفسك بتمام الرؤيا، وتؤمل ما أنت عنه بعيد، ومن دون ذٰلك خَرْطُ القَتاد». ويشير بذٰلك إلىٰ رؤيا كان قد حلم بها أبوهما المهدي، من أنّه دفع إلىٰ آبنيه، كليهما، قضيبين، فقضيب الهادي أورق أعلاه قليلًا، أما قضيب الرشيد فأورق من أوله إلىٰ آخره. وقد فسّر له المفسرون هٰذا الحلم، بأن ولديه سيملكان: فأمّا الهادي فتقل أيامه، وأمّا الرشيد فتطول، وتكون أحسن الأيّام، وأزهر الدهور». فردّ «هارون» علىٰ أخيه، بسماحةٍ قائلًا: «يا أمير المؤمنين، من تَكبَّر وُضع، ومن تواضع رُفع، ومن ظَلم خُذل... وإن وصل الأمر إليّ، وصلتُ مَنْ قطعت، وبَرَرْتُ من حَرَمْت، وصيّرت أولادك أعلىٰ من أولادي، وزوجتهم بناتي، وقضيت بذٰلك حقّ الإمام المهدي».

وقد تُوفي «الهادي» بعد خلافة سنة وشهر فقط (في ١٥ ربيع الأول ١٧٠هـ/ ١٤ أيلول ٧٨٦م)، ووليها «هارون». وقد سلخ الرشيد ثلاثة وعشرين عامًا من عمره، في إمامة المسلمين: دعّم فيها أركان مُلكه، ودفع ركب الحضارة العربيّة الإسلاميّة نحو السماء. وأكثر ما يميّز عهده أمور خمسة:

أولها: حرب وطِعان، وتوسيع مُلك. وثانيها، سياسة وتدبير وسعة سلطان. وثالثها، آقتصاد يانع ورخاء عام. ورابعها، نكبته لخلّانه من الفرس «البرامكة». وخامسها، وهو أهمها، آزدهار الفكر والعلم والأدب والفن.

أمّا الحرب والطعان، فقد وزعهما هارون شقّين: شقٌّ لإخماد الثورات المندلعة

في بلاد الشام، وأرمينيا، وبلاد المغرب، وخراسان، ومصر، وبلاد الحجاز، واليمن. وشقٌ لمحاربة الروم، أعدىٰ أعداء المسلمين، المغيرين علىٰ الحدود، والنّاكثين بالعهود، فقد أبىٰ إمبراطورهم «نقفور» أن يدفع الجزية التي تعهّدت أيرين بتقديمها، بل إنه طالب بما كانت قد قدّمت. وأجابه «هارون» بسلسلة من الحملات، صيفًا وشتاءً، وآتّخذ مقرًا له مدينة الرقة علىٰ نهر الفرات، ليراقب الأمور عن كثب، وأنشأ وحدةً إداريّةً عسكريّة علىٰ تخوم الثغور، هي «العواصم»، وجعل مركزها «منبج». وأنزل بآسيا الصغرىٰ الويل والثبور، وآستولىٰ علىٰ هراقلة، والطوانة، حتّىٰ آضطرّ «نقفور» أنْ يطلب الهدنة، علىٰ أنْ يدفع جزيةً عن نفسه وأسرته فوق الجزية العامّة. وبهٰذه الصوائف والشواتي، والهدنة الموقّعة، بلغت الدولة العباسيّة عنفوان بأسها أمام الروم.

أمّا السياسة وسعة السلطان، فلم يكتفِ هارون بعالم الشرق يبسط عليه نفوذه، بل أراد أن يوسّع دائرة علاقاته، فيوصل شرقًا بغرب. وكانت أخبار حملاته علىٰ بيزنطة قد تواترت إلىٰ غربيّ أوربّا، فمدّ ملك الفرنجة «شارلمان» ـ بحسب أقوال مؤرّخي الغرب ـ يده إليه، مصادقًا إيّاه ضدّ بيزنطة، وأمراء الأمويّين في الأندلس. ويذكر أولٰئك المؤرخون الغربيّون أيضًا، أنّه تمّ تبادل السفراء والهدايا بين الطرفين، ولو أنّ المؤرّخين المسلمين، لم يتطرّقوا إلىٰ هٰذه الأنباء البتّة. ومن تلك الهدايا، بحسب أقوالهم، ساعةٌ دقيقة الصنع، حيّرت بفنّها ألباب الغرب. أما ما ذكروه عن إهداء الرشيد لشارلمان مفاتيح بيت المقدس، فهو محضُ آفتراءٍ وتزوير، ونفاه البحث التاريخيّ الدقيق والمستعمق. وهٰكذا كانت زعامة السياسة العالميّة في مطلع القرن التاسع الميلاديّ، يتقاسمها إثنان من كبار الملوك، شارلمان في غربي أوربّا، وهارون الرشيد في المشرق والمغرب الإسلاميّين، وما من شكٍّ أبدًا، في أنّ الرشيد كان أقوىٰ الإثنين، وأرفعهما ثقافةً، وأوسعهما ملكًا وسلطانًا.

أمّا ثالث ما آشتهر به عصر هارون، فهو آقتصادٌ يانع، ورخاءٌ عام، حتّىٰ كأنّ بغداد قد ورثت عظمة العواصم الكبرىٰ كلّها، التي توالت علىٰ بلاد الرافدين من

عهد «أور»، «فبابل»، «فآشور»، «فالمدائن». وكان لها من موقعها الممتاز، ما جعلها مركزًا تجاريًا لجميع أنحاء العالم المعروف آنذاك، دون منافس. وقد مهّد هارون لذلك، ففتح أبوابها للتجارة والتجّار، وأمّن الطرق إليها ومنها، وتدفّقت على أسواقها بضائعُ شتّى: فمن الهند ومالاقا الحبوب والمعادن والأصباغ، ومن بلاد التّرك الياقوت واللازورد، والمنسوجات، والرقيق، ومن الاسوج والنرويج وروسيا، العسل والشمع، والفرو، والعبيد البيض، ومن الصين الخزف والحرير والمسك، ومن شرقي إفريقيا، العاج والتبر، والعبيد السود، ومن مصر الأرز، والكتّان ونسيجه، والحنطة، ومن الشام الفواكه والزجاج، ومن فارس الحرائر والعطور، ومن جزيرة العرب القصب واللؤلؤ والأسلحة. ولتسهيل سبل التبادل التجاري بين أطراف الدولة العربيّة الإسلاميّة الواسعة، ذكر المؤرخ «السيوطي»، بأنّ «هارون» فكر فعلًا بشقّ قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر، فمنعه من ذلك «يحيى بن خالد» البرمكيّ، قائلًا له: «يا أمير المؤمنين، كان يتخطّف الروم الناس من المسجد الحرام، وتدخل مراكبهم إلى الحجاز».

وكما نهضت التجارة، واتّسع أفقها، أينعت الزراعة، في رحبات العراق، والشام، وفارس، ومصر، والمغرب، وتألّقت الصناعات العديدة، وتدفّقت الأموال على خزائن بيت المال، حتّى بلغت الجباية في عهده ما يقرب من إثنين وسبعين مليون دينار، عدا الضريبة العينيّة التي تُؤخذ من إنتاج الأرض من الحبوب. ومع أنّه لم يكن قد مضى على تأسيس «مدينة السلام، بغداد» نصفُ قرن، فقد احتلّت المقام الأول بين عواصم الدنيا، وغدت منافسة بيزنطة الوحيدة، حتّى قيل عنها أيّام هارون: «لم يكن لبغداد في الدنيا نظير، في جلالة قدرها، وفخامة أمرها، وكثرة علمائها وأعلامها، وتميُّز خواصّها وعوامّها، وكثرة دورها، وأسواقها، ومساجدها، وحمّاماتها، وخاناتها». وكان البلاط الملكيّ، بما فيه من دور الحريم والخصيان وأهل الخاصّة، يبلغ ثلث المدينة، وأهمّ ما فيه ذلك المجلس المفروش بالطنافس، والمجهّز بالسُّجُف، الذي لم يكن في الشرق أبدع منه، وكان موئل الشعراء، والنابهين، والمترجمين، وأرباب الموسيقى، والغناء، والندماء، وفي

مقدّمتهم إبراهيم الموصلي، وسباط، وآبن جامع وغيرهم كثير. ومن يرجع إلىٰ كتاب «الأغاني» يراه يغُجّ بالقصص، التي تمثّل صورًا من حياة ذاك البلاط، الذي وصلت فيه الحضارة الماديّة والفكريّة إلىٰ درجات عالية جدًّا. ومهما حاولنا أن نجرّد صورة حياة البلاط ببغداد، عما ألبستها إياه قرائح المحدّثين من الإطناب والمبالغة، فإننا نجد ما يملأ النفس دهشة، وعجبًا، وإكبارًا.

أما رابع ما حقّقه «هارون» أثناء حكمه، فهو نكبته للبرامكة الفرس، الذين ينتسبون إلىٰ أحد سَدَنة بيوت النار في بلخ. وقد آشتهرت هٰذه الأسرة بعد إسلامها، ولمع فيها آسم «خالد بن برمك»، وكان صفيَّ المنصور. وقد أوكل «المهدي» تربية آبنه «هارون» إلىٰ «يحيىٰ بن خالد» هٰذا. ولمّا وُلّي هارون الخلافة، قلّد «يحيىٰ» الوزارة، وكان يناديه: يا أبتِ، وفوّض إليه السلطة المطلقة. وقرّب إليه أخاه بالرضاع، «الفضل»، وآتّخذ «جعفرًا» صديقًا وصفيًّا، وأنعم عليه بالرتب، والمال، والولاية. وكانت قصور البرامكة، تقوم إلىٰ الجانب الشرقيّ من بغداد، ويعيش أصحابها بنعمة ورفاه، وقد أصابوا جاهًا عظيمًا، وثراءً فاحشًا، فنثروا عطاءهم علىٰ مواليهم ومدّاحيهم، حتّىٰ قصدهم الناس من أقاصي الدنيا، ومُدحوا بما لم يُمدح به الخليفة. ولم يلبثِ الرشيد أنْ ساورته الهواجس من نفوذ البرامكة، وآستئثارهم بالسلطة دونه. ولعلّه شكّ في نواياهم، وخاف من آستفحال خطرهم، وهم الأسرة الشيعيّة الفارسيّة، علىٰ دولته العربيّة السنيّة. فقرّر أن يضرب ضربته: فقتل صفيَّه جعفر، وهو في السابعة والثلاثين من عمره، وألقىٰ بيحيىٰ، وهو شيخ هرم، مع أبنائه الأُخَر في السجن، وحجز أموالهم، وقُدّرت بثلاثين مليونًا وستمئة وسبعين ألف دينار نقدًا، إلىٰ جانب الضياع، والغلّات، والدور، والرياش. وقد كان، بحسب بعض المؤرّخين، قاسيًا وباطشًا، دون ما ذنب يستحق كلّ هٰذا، بينما كان عند مؤرّخين آخرين، مثالَ الشهامة والعروبة الحقّة، ونموذج المدافع عن دولته وحاميها، لأنه ضحّىٰ بصداقته ومُثُله الإنسانيّة الفرديّة، من أجل مصلحة أمّته. فتنكيله بأعزّ خلّانه ومعاونيه من الفرس، بعد أن مدّ لهم مدًّا،

كان أنتفاضةً عربيّة حيّة، حفظت علىٰ الدولة آنذاك كيانها العربي، وأوقفت، ولو لفترة، الشعوبيّة المتفشّية، التي كانت تسعىٰ بوسائل مختلفة لنقل الملك من العرب إلىٰ الفرس.

وليس من شكّ في أنّ أنتصارات جيوش «هارون الرشيد» علىٰ الروم، كانت سببًا في تألّق نجمه، كما أنّ حياة النعيم والرخاء التي سادت، قد رفعت من شأنه في كتب القصص، علىٰ أنّ سبب عظمته الحقيقيّة يرجع، في الواقع، إلىٰ «اليقظة الفكريّة» التي لم يُعهد لها مثيل في تاريخ الإسلام، والتي نُظر إليها علىٰ أنها من النهضات الفكريّة الكبرىٰ، التي أسهمت في تقدّم الفكر العالميّ. ومما لا شك فيه أيضًا، أن المؤثّرات الأجنبيّة الحضاريّة، كالهنديّة، والفارسيّة، والسُّريانيّة، واليونانيّة، كان لها دورها في تفتيق تلك النهضة ودفعها قُدُمًا. وقد ساعد حكُم «هارون الرشيد»، وأتجاهاته الأدبيّة والعلميّة، مساعدةً جُلّىٰ في حملِ تلك المؤثّرات إلىٰ عالم الفكر العربيّ الإسلاميّ، عن طريق تشجيعه النقلِ والترجمة. فأنشأ خزانةً كبرىٰ للكتب أَطلق عليها أسم «بيت الحكمة»، وتدفّقت إليها المخطوطات اليونانيّة التي غُنمت من الغارات المتتالية علىٰ بلاد الروم. وقد تحوّلت هٰذه الخزانة، في عهد المأمون، إلىٰ دار للكتب والعلم والترجمة، فغدت أعظم المعاهد الثقافيّة في العالم الإسلاميّ، وأعظم المعاهد الثقافيّة العالميّة، التي نشأت بعد «المتحف الإسكندريّ» في عصر البطالمة. وبذٰلك، وبعد نصف قرن من تأسيس بغداد، تمّ للعالم العربيّ، أنْ يقف علىٰ أهم ما كتبه أرِسطو، وأفلاطون، وجالينوس، وبطليموس، وإقليدس، وأن يحيط بكتب علميّة وفلسفيّة شتّىٰ، فارسيّة وهنديّة، وأن يهضم، في سنوات، ما أنفقت الحضارات المختلفة علىٰ إنشائه قرونًا.

وبذٰلك كانت دولةً الرشيد، كما قال عنها صاحب «الفخري في الآداب السلطانيّة»: «دولةً من أحسن الدول، وأكثرها وقارًا، ورونقًا وخيرًا... وأوسعها رقعة مملكة... جبىٰ الرشيد معظم الدنيا، ولم يجتمع، علىٰ باب خليفة، من العلماء، والشعراء، والفقهاء، والقرّاء، والقضاة، والكُتّاب، والندماء، والمغنّين،

ما اَجتمع، علىٰ بابه. وكان يصل كلّ واحد منهم أجزل صِلة، ويرفعه إلىٰ أعلىٰ درجة. وكان هو ذاته، فاضلًا، شاعرًا، راويةً للأخبار، والأشعار، والآثار، صحيح الذوق، مهيبًا عند الخاصّة والعامّة.. كان يحجّ سنة ويغزو أخرىٰ.. ويصلّي في كلّ يوم مئة ركعة. وكان إذا حجّ، حجّ معه فئةٌ من الفقهاء وأبناؤهم، وإذا لم يحجّ، أحجّ (٣٠٠) ثلاثمئة بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة. وقد حجّ ماشيًا، ولم يحجّ ماشيًا خليفةٌ غيره... وكانت زوجته «أم جعفر»، أرغبَ الناس في خير، وأسرعهم إلىٰ برّ».

وقبل أن تأتي الرشيدَ الوفاة، أوصىٰ بني هاشم قائلًا: «اَعملوا بثلاث: الحفظ لإمامتكم، والنصيحة لأئمتكم، واَجتماع كلمتكم».

وقد حضره الموت وهو في حملةٍ في طوس، في ضيعة تعرف بـ «سناباذ»، في الثّالث من جمادىٰ الآخرة عام ثلاثٍ وتسعين ومئة للهجرة، وهو في السابعة والأربعين من العمر، والدولة العربيّة الإسلاميّة، في أَوج خِصبها الحياتيّ، وذروة حركتها الخيّرة الدافقة، وأزهىٰ عصور قوّتها واَزدهارها الحضاريّ.

الشهيد

نور الدين زنكي

سأحدّثك اليومَ، مستمعي، عن بعض ماضيك، عن أناك العميقة، عن ماضٍ يمثّل وثبةً من وثبات أمّتك العربيّة الإسلاميّة الخلّاقة، ويُبرز لك بعض صورةٍ من الوحدة العربيّة الإسلاميّة البنّاءة، تَحقّقَ طرفٌ منها في حاضرك، ولا بدّ أن تتحقّق كلّها في مستقبلك، لتتأكّد كليّةُ قوميّتك.

كان ذاك منذ ثمانمئة عام ويزيد، أي في أواخر القرن الخامس الهجريّ / الحادي عشر الميلاديّ، وكان عالمنا العربيّ الإسلاميّ في محنةٍ، كمحنته قبل أن تنطلق طاقاتنا المجدية مؤخرًا من عِقالها، لتبني ما بنت من بداية وحدةٍ عربيّة مباركة، بل، وأشدّ وأنكىٰ: وهنت خلافاته القابضتان علىٰ الأمر آنذاك، ولو صوريًّا، عباسيّتها في بغداد، وفاطميّتها في القاهرة، وكانت خلافته الثالثة الأُمويّة في قرطبة، قد سقطت نهائيًا، وتبعثر علىٰ أرضه الواسعة أمراءُ وملوك، طغت عليهم فرديّتهم وأطماعهم، حتّىٰ غدا لا همَّ لهم سوىٰ أن يتملّكوا أرضًا، ويوطّدوا ملكًا وعرشا، ويوسّعوا حدودًا علىٰ حساب بعضهم بعضًا، ويتعالوا نعيمًا وترفًا. تراخىٰ إيمانهم بعروبتهم وإسلامهم فتهلهلت نفوسُهم، وٱنعكست حالهم هٰذه علىٰ رعيّتهم، فتضعضع العزم منها، ودبّ الخور فيها، وناءت، تحت ثقل الضرائب والرسوم المجبيّة منها، دون حق. وٱغتنمت أوربّا، التي تعرفها مستمعي في حاضرك، وتعرف أطماعها التي لا تُروىٰ، تبغي أرضًا لنا، ٱستعمقت في تربتها جذورنا، وحضارة شيّدناها، وحريّة وقيمًا ٱحتضنتنا

وٱحتضنّاها. وٱلتقينا معها، كما نلتقي اليوم، في صراع عنيفٍ ومرير، وفي ميدان يمتدّ من أقاصي الجزيرة الأندلسيّة غربًا إلىٰ أطراف الموصل شرقًا. وتمكّنت من سواحلنا المتوسطيّة الشرقيّة، ودبّت علىٰ أرضنا، تنهب وتسلب وتقتل، كما تعودتها. وٱحتلّت بيت مقدسنا بمجازر في شعبنا، وحطّت رحالها في شامنا، وكونت فيه أربعَ دويلات: إثنتين في شماله، وهي: الرُها وأنطاكية، وواحدة في وسطه وهي طرابلس، ورابعة في بيت المقدس.

ويبدو أنّ النكبة علىٰ ٱستفحالها، لم تروّع أمراء عالمنا العربيّ الإسلاميّ، السادرين في غيّهم، فٱكتفىٰ بعضهم بحركاتٍ تشبه العبث: سَريّة تُرسل هنا، وغزوة هناك، وخطبة وعظ من ركن، ونداء كلاميّ للجهاد من ركنٍ آخر، وتهديدٌ من هٰذا، ووعيد من ذاك. وعندما خشيَ قسمٌ منهم علىٰ عروشهم أنْ تميد من تحتهم، ٱندفعوا نحو الفرنجة الغاصبين، يدفعون لهم الجزية وهم صاغرون، ويهادنونهم ليبقوا علىٰ كراسي حكمهم متربّعين. وهٰكذا بدل أن يتّحدوا لردّ المعتدين، كانوا يمدّون، إلىٰ أعداء العروبة والإسلام، أيدي الودّ والصداقة والولاء، ومواثيق الحلف والهوان، ليساندهم هٰؤلاء علىٰ إخوة لهم من الأمراء، يخشون بأسهم أو يطمعون في أرضهم.

وعشنا وضعنا هٰذا، أخي المستمع، عقدًا أو يزيد من ربع القرن السادس الهجريّ / الثاني عشر للميلاد، حتّىٰ ظهر في عالمنا المشعّث والممزّق هٰذا، من حاول لمّ بعض الشمل، ورأبَ بعض الصدع، والتصدّي بجدّية حازمة للعدوّ الغاصب للأرض، فمهد الأمور بجدّية جهاده، وخططه، وحماسته، للرجل الثاني الذي تمكن من إعادة بيت مقدسنا للإسلام والعروبة، وهو «صلاح الدين الأيوبيّ». أمّا ذاك البطل الأوّل الذي كان له قَصَب السّبق في التخطيط للجهاد المتواصل تجاه الفرنجة، ووضع اللّبنة الأولىٰ في إعادة بعض الوحدة العربيّة الإسلاميّة، لتطويق المعتدين، فهو «نور الدين زنكي».

ونور الدين هٰذا، الذي تطلق عليه مستمعي الدمشقيّ ٱسم «الشهيد»، وتضم رفاته بحدب، وحبّ، وتقدير، علىٰ أرضك، هو «أبو القاسم محمود» من

من ولد «عماد الدين زنكي» أميرِ الموصل وحلب آنذاك. و«عماد الدين» هٰذا برز وجهًا مشرقًا في الربع الأول من القرن السادس الهجريّ/ الربع الأول من القرن الثاني عشر الميلاديّ. فقد كان، كما وصفه معظم المؤرّخين، من خيار الملوك، وأحسنهم سيرةً. وكان شجاعًا مقدامًا، وإداريًا حازمًا، ومن أجود الملوك معاملةً وأرفقهم بالرعيّة. وقد آلىٰ علىٰ نفسه محاربة الفرنجة الصليبيين ومن والاهم من البيزنطيّين في شماليّ بلاد الشام، وتمكن من ٱسترداد عددٍ من قلاعهم في الجزيرة، بل وٱنتزع منهم أحد مراكزهم الرئيسة وهو «الرُها» سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م. وسعىٰ لمدّ نفوذه إلىٰ الجنوب، فضمّ حماة، وحمص، وبعلبك، وحاصر دمشق، ليحقّق وحدة بلاد الشام، أو وحدة ما تبقّىٰ منها، بعد أن عاث الفرنجة في مناطقها. وعندما قُتل في «قلعة جعبر» علىٰ الفرات سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م، تقاسم أولاده الأربعة ملكه: فكان لنور الدين محمود حلب وحماة ولسيف الدين غازي الموصل، ولنصرة الدين حرّان، ولقطب الدين مودود وراثة الموصل بعد أخيه. وكان أقواهم شكيمةً، وأشدّهم عزمًا في مجاهدة الفرنجة «نور الدين محمود»، الذي رافق والده في معظم غزواته.

وقد ولد «نور الدين محمود» في حلب سنة ٥١١هـ/ ١١١٦م، وتربّىٰ في كنف والده تربية صلاح وتقوىٰ، ونال ثقافة عصره الدينيّة، وعاش دينه الإسلام، وأحداث زمانه، بإدراك المتبصّر، ووعي السياسيّ العميق، وشجاعة المحارب المجاهد. فقد ٱشترك ـ كما ذكرنا ـ في قتال الفرنجة مع أبيه، وكانت أمنيته طرد الغاصب الدخيل، والرمي به إلىٰ أساطيله ليعود من حيث أتىٰ. وكان يحزّ في نفسه، أنّ الخليفة العباسيّ في بغداد، والخليفة الفاطميّ في القاهرة، ورجال حكمهما، كانوا يسمعون ٱستغاثات شعبيهما ويصمون. ويزيده مرارةً، ذٰلك الٱنقسام الرهيب الذي كانت تعيش في بحرانه بلاد العرب والشام. وتمنّىٰ وهو يناضل، لو أنّ عصًا سحريّة تؤلّف بين قلوب أمراء المسلمين، في الشام وخارجها، فيتناسىٰ هٰؤلاء الأمراء حزازاتهم الشخصيّة، ويكتلون حيويّاتهم وطاقاتهم ضدّ

الفرنجة الغاصبين للأرض، والفاتكين بالأهالي، والناهبين لخيرات البلاد، بدلًا من تشتيتها في المشاحنات، والمطامع الخاصّة، والحروب الأهليّة.

وقد نذر نفسه، بعد تسلّمه حلب وحماة، وتصافىٰ مع إخوته، علىٰ أن يتابع خطوات أبيه فيما سَنّه من جهاد الفرنجة. فعندما حاول هٰؤلاء، مغتنمين فرصة مقتل والده، إعادة الاستيلاء علىٰ الرُّها، تصدّىٰ لهم بسرعة، وأحبط مسعاهم. وكان يرىٰ، بثاقب بصيرته، كما رأىٰ والده قبله، أنّ دمشق هي واسطة العِقد في مدن الشام، بالنسبة لخطّة جهاده، وأنّ الفرنجة لن ينفكّوا عن مهاجمتها، حتّىٰ يُخضعوها لسيطرتهم، لأنها طريقهم إلىٰ حلب والموصل وربما بغداد، بل وإلىٰ بلاد الحجاز والديار المقدّسة الإسلاميّة. ولذا، فإنّ الأمل الذي كان يهدهده، هو أن تلتئم دمشق مع حلب وحماة والموصل في تكوين نواةٍ وحدةٍ عربيّة إسلاميّة قويّة، ولا سيّما أنها هي الأقرب مكانًا إلىٰ مملكة الفرنجة في بيت المقدس، وإقليمها غنيٌّ بالحبوب الضروريّة لتموين المدن الشاميّة الجنوبيّة. ومن ثَمّ كانت مملكة بيت المقدس الفرنجيّة، لا تنفكّ عن الإغارة علىٰ حوران والجولان، لتغتنم محاصيلها، وتسيطر علىٰ ماشيتها، ولقد حاصرت مدينةَ دمشق ذاتها سنة ٥٢٣هـ/ ١١٢٩م، فدافع أهلها عنها ببسالة، وكان علىٰ حكمهم «تاج الملوك بوري بن طُغْتَكين»، وتمكّنوا من الانتصار علىٰ الفرنجة، وردّهم عن مدينتهم، علىٰ الرغم من أنّ الخليفة العباسيّ الذي استنجدوا به لم ينجدهم.

ولقد تقرّب «نور الدين» من مدبّر الأمور في دمشق، وهو «معين الدين أُنَر»، وكان الساعد الأيمن «لمجير الدين أَبَقَ» من آل طُغْتَكين، فتزوّج ابنته «عصمة الدين خاتون» سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م. ولمّا أتت «الحملة الصليبيّة الثانية» إلىٰ بلاد الشام سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، لتعزيز قوّات الفرنجة فيها، قامت «مملكة القدس» بمهاجمة دمشق وحصارها، وهي مدعّمة بالقوة الجديدة. وكان الهجوم شرسًا وبأعدادٍ غفيرة، وقد تمكّن الفرنجة من الوصول حتّىٰ المزة، والميدان الأخضر. فاستنجد معين الدين بنور الدين وأخيه، فقدِما

بسرعةٍ من الشمال. فلما رأىٰ الفرنجة، بعد أربعة أيام من الحصار والقتال، تجمُّع الأجناد والمطوّعة من الأهالي عليهم، رحلوا عن المدينة، وعادوا من حيث أتوا، بعد أن أحرقوا أطرافها، وقتلوا الكثير من أهلها. ومع أنّ الحملة قد شتّتت شملَها المقاومةُ العنيدة التي لاقتها، إلّا أنّ «مجير الدين أبق» كان قد صالح الفرنجة علىٰ الآنسحاب، مقابل تسليمه لهم «حصن بانياس» المنيع، مما أزعج نور الدين وأخاه وأقلق بالهما.

قضىٰ نور الدين ثماني وعشرين سنةً، وهي مدة حكمه (٥٤١ ـ ٥٦٩هـ / ١١٤٦ ـ ١١٧٤م)، في محاربة الفرنجة والبيزنطيّين، في حملاتٍ لم تتوقّف. وكانت ميادين القتال موزّعةً بين شمالي الشام ووسطها وجنوبها، وبين داخلها وساحلها. وكان يتنقّل بجيوشه، بسرعةٍ مذهلة، بين شمال وجنوب، وإنّ المرء ليدهش لسرعة حركته هٰذه. وكانت أخبار تحرّكات الفرنجة تصله عن طريق عيونه الذين بثّهم في كلّ ركن، وبطريق الحَمَام الزاجل، الذي بنىٰ له الأبراج وزوّدها بالحرس. فبعد أن قدّم العون لدمشق، آنتقل، بسرعةٍ خاطفة، إلىٰ الشمالَ ليهاجم «أفامية» وينتزعها من أيدي الفرنجة، وليستعيد جميع البلاد بين الروج والعاصي، وليسيطر علىٰ قلعة المضيق، ويحاصر حارِم، وأنطاكية.

وعندما علم بوفاة والد زوجته «معين الدين أُنَر»، مدبّر الأمور في دمشق سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م، وآتجاه «معين الدين أبق»، حاكمها، إلىٰ التّعاون مع الفرنجة ضدّه، خوفًا علىٰ عرشه منه، آنقضّ كالصقر علىٰ البقاع، ومنها إلىٰ جنوب غرب دمشق، حيث بعث يُطمئن أهل دمشق بأنه أتىٰ لحمايتهم من الفرنجة. إلّا أنه آضطرّ لمغادرتها سريعًا، إذ أُخبر بأنّ الفرنجة عازمون علىٰ إعادة آحتلال الرُّها، ثم قلعة حلب. وفي هٰذه المرّة سعىٰ لضمّ جهود «مسعود بن محمود» ملك سلاجقة الروم، إلىٰ جهوده في حرب الفرنجة والبيزنطيّين معًا. فتزوّج من آبنته ليقوّي أواصرَ التحالف، وغزا منطقة عفرين العليا، ليقطع الآتصال بين أنطاكية وبيزنطة. وفي بحران معاركه الشماليّة، جاءته الأخبار سنة ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م، بأن «مجير الدين» قد جدّد الهدنة مع مملكة القدس.

فآنتقل بسرعة إلىٰ دمشق وحاصرها، وآضطرّ «مجير الدين» إلىٰ الآعتراف بتبعيّته لنور الدين، وبذكر آسمه في الخطبة، وسكّ النقود بآسمه، علىٰ أن يظلّ محتفظًا بآستقلاله الذاتيّ.

وبنقلةٍ سريعة، عاد إلىٰ الشمال ليستخلص «إعزاز» من الفرنجة، ويأسر الأمير الفرنجيّ العنيد «جوسلين»، كما سيطر علىٰ «طرطوس» علىٰ الساحل، قاطعًا الآتصال بين طرابلس وأنطاكية.

ولما وصل إلىٰ علمه أنّ «مجير الدين» في دمشق عاد إلىٰ تدبير المؤامرات ضدّه، والتحالف مع الفرنجة، وأنه أساء السيرة في حكم المدينة، وآشتدّ الغلاء فيها، وأنّ أهلها ناقمون عليه، حتّىٰ إنهم حاصروه في القلعة، قرّر هٰذه المرة أن يهبط بجيشه أرض دمشق، وألّا يغادرها حتّىٰ تكون له. وقام بآتّصالاتٍ مع مختلف فئات سكان المدينة، وأحاطها بجيشه من جهاتها الأربع، وبعد حصار عشرة أيام، تمكّن من فتحها، ودخلها من بابها الشرقيّ سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، وآستقبله السكان بالفرح والترحاب. ولم يؤذِ «مجيرَ الدين»، بل عوّضه مبدئيًّا بحمص، ثم نزعها منه وأحلّ محلها بالس إلّا أنّ مجير الدين رفض الأخيرة، فرحل إلىٰ بغداد حيث تُوفي فيها. وآستدعىٰ نور الدين «نجم الدين أيوب» والد صلاح الدين، وكان حاكمًا علىٰ بعلبك ،وجعله عليها، وعيّن آبنه «صلاح الدين يوسف» شُحنةً فيها.

وبعد فتح دمشق، عمل نور الدين بعزم ومثابرة علىٰ إتمام الوحدة الشاميّة: فقوّىٰ مركزه في حلب، وصفّىٰ نهائيًّا إمارة الرُّها الفرنجيّة، وآستعاد شَيْزر، وغدا مجرىٰ العاصي كلّه بيده. وآمتدّت سيادته من الشمال إلىٰ الجنوب، من إعزاز والرُّها حتّىٰ بصرىٰ وصَرْخَد. وحمىٰ دمشق من عدّة هجماتٍ حاول فيها الفرنجة الإغارة علىٰ أطرافها في حوران، وداريّا، وآنتزع بانياس من أيديهم، ولو أنها عادت مؤقتًا إليهم.

وتحالف الفرنجة في أنطاكية مع البيزنطيّين سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م، وهدف الطرفين مدينة حلب، فطلب من جميع أمرائه الآستعداد للجهاد، وحصّن حلب.

وتقدّمت جيوش الحلف وكانت جرّارة، وعلىٰ الرغم من أنه أثخن فيهم، إلّا أنّ الأمر أنتهىٰ بالمفاوضات، وإعلان هدنة مع بيزنطة أوقفت لفترةٍ من الزمن حربه مع الفرنجة.. إلّا أنه تمكّن أنْ ينتزع من يد سلاجقة الروم، الثغور المتمّمة لحدود بلاد الشام الشماليّة كبَهْسَنا، وَمرْعَش، وقَيْسون.

وأغتنم فرصة التوقّف المبدئيّ للقتال في جبهتي الشمال والجنوب، ليحجّ إلىٰ الديار المقدسة سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م. وأهتمّ بإصلاح الآبار في طريق الحجّ، ورمّم أسوار المدينة المنّورة، وأحاطها بسورٍ آخر لصدّ هجمات البدو عنها، وأستخرج عين الماء في «أُحُد».

وعند عودته أراد مهاجمة طرابلس، إلّا أنّ الإمدادات التي وصلت الفرنجة عن طريق البحر هزمته وأضطرّته للتراجع حتّىٰ بحيرة قادِش (حمص).

بقي «نور الدين» منشغلًا بالفرنجة في بلاد الشام فقط حتّىٰ سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م، إلّا أنه من هٰذا التاريخ أبتدأ بفتح جبهةٍ أخرىٰ معهم وهي مصر. فقد تنامىٰ إليه بعد عودته من الحجّ أنّ الفرنجة في بيت المقدس شرعوا يتدخّلون، بزعامة ملكهم «عَموري»، في شؤون مصر. وأنّ أحد وزراء الفاطميّين فيها، وهو ضِرْغام، عمل علىٰ الأستنجاد بهم. وقد جاء «نورَ الدين» أحدُ الوزراء وهو «شاوَر» هاربًا ومستغيثًا به، وكان قد أبعده «ضرغام» عن الحكم. وبعد مفاوضات مع نور الدين، وشروط وضعها هٰذا الأخير، قبل نور الدين أنْ يرسل حملةً إلىٰ مصر، بقيادة «أسد الدين شيركوه» لإعادة شاور إلىٰ الحكم، والوقوف في وجه المدّ الفرنجيّ علىٰ مصر. وحتّىٰ يضمن وصول الحملة سالمةً، شغل الفرنجة بحملةٍ قويّة علىٰ بانياس، وتمكّن من أستردادها.

إلّا أنه في الوقت ذاته تقريبًا، وبسرعةٍ مذهلة، أتّجه نحو الشمال ليشتبك مع الفرنجة المتحالفين مع البيزنطيّين، والمترابطين فيما بينهم، في معركة شهيرة، وهي معركة «حارم» القلعة الحصينة، وذٰلك في ٢٠ رمضان سنة ٥٥٩هـ/ ١١ آب ١١٦٤م. وقد هزم فيها الفرنجة، هزيمةً نكراء، وأَسر صاحب أنطاكية، وصاحب طرابلس، وقائد الروم.

وعاد إلىٰ الجنوب ليعاود شنّ غاراته علىٰ مملكة القدس، وقد علم أنّ عددًا من جيوشها قد ٱنتقل إلىٰ مصر، فهاجم الفرنجة في الجليل. وكان حلمه أن يصل إلىٰ بيروت لتكون نافذةً له علىٰ البحر، إلّا أنه لم يُفلح.

وفي الواقع أخذت جبهة مصر تشغله أكثر فأكثر: فقد أعاد أسد الدين شيركوه بحملةٍ ثانية إليها، فثالثة، ولا سيّما عندما ٱستنجد الخليفة الفاطميّ «العاضد» نفسه به هٰذه المرّة. وكان الفرنجة قد ٱتّجهوا نحو القاهرة، وشرعوا بحصار الإسكندريّة. وفي هٰذه المرّة وقف المصريّون يدًا واحدة إلىٰ جانب شيركوه، فهزِمت جيوش الفرنجة، ودخل شيركوه القاهرة، وقابله أهلها بالترحاب. وأُسندت الوزارة إليه سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨ ـ ١١٦٩م وعندما جاءته الوفاة جعل ٱبن أخيه «صلاح الدين» وزيرًا مكانه.

وبدأت بعض جفوةٍ تظهر بين نور الدين وصلاح الدين، لمّا طلب «العاضد» سحبَ القوات السوريّة من مصر، ما عدا تلك التي يقودها صلاح الدين، ممّا أقلق نور الدين وشكّكه بنوايا صلاح الدين؛ فطلب من نجم الدين أيّوب، والد الأخير، أن يذكّر ٱبنه، بأنّ الهدف من وجوده في مصر هو الجهاد ضدّ الكفّار، وأنّ عليه أن يعلن الخطبة للعباسيّين، ويقطعها عن الفاطميّين.

ومع أنّ أخبار مصر لم تكن مُطمئنة لنور الدين، فإنه لم يقف مجرّد مراقبٍ للأحداث، بل عاد إلىٰ الشمال يتفقّد دفاعات حمص، وحماة، وحلب. وضمّ إقليم الخابور التابع لإقليم الموصل، وٱستخلص الرَّقّة، وفتح سِنْجار، ودخل الموصل سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧١م، وبنىٰ مسجده فيها، وثبّت حكم ٱبن أخيه سيف الدين غازي، كما دعم حكم ٱبن أخيه عماد الدين في سنجار.

وكاد التوتّر يعود بين صلاح الدين في مصر ونور الدين في الشام، عندما طلب نور الدين من صلاح الدين مهاجمة «الكَرَك» مرّتين، مرّة سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م، وأخرىٰ سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م، وكان الفرنجة بتمركزهم فيها، يزعجون قوافل الحجيج والتجارة، ويقطعون الطريق بين مصر وبلاد الشام، ويمدّون نفوذهم علىٰ غربيّ الأردن. وأراد نور الدين من فتح الكرك، بالإضافة إلىٰ تخليص

المسلمين من تلك التهديدات، أن يُمهّد لمهاجمة مملكة الفرنجة في بيت المقدس من الشمال، بينما يهاجمها صلاح الدين من الغرب، فيضعها بين نارين، ويحقّق حلمه الأكبر في فتح بيت المقدس، ثم وضع المنبر الخشبيّ الذي أعدّه للمسجد الأقصىٰ في مكانه، وإعادة القدس الشريفة إلىٰ الإسلام والعروبة. ولكن صلاح الدين، في المرتين، تراجع في آخر لحظة عن الكرك، في المرة الأولىٰ بحجّة اضطرابات شيعيّة في مصر تستوجب عودته، وفي المرة الثانية بحجّة مرض والده. ولعلّ صلاح الدين رأىٰ، في سيطرة نور الدين علىٰ الكرك، فَتْحَ الطريق واسعًا أمامه للوصول إلىٰ مصر، وتسلّم السلطة فيها منه. إلّا أنه تدارك الموقف بحكمة، وأظهر لنور الدين الودّ والطّاعة، وزالت السحابة التي عكّرت بالَ الطرفين.

ولمّا حاول «قلج أرسلان» ملك سلاجقة الروم في آسيا الصغرىٰ، التحالف مع بيزنطة ضدّه، عاد نور الدين فوضع يده علىٰ الثغور الشاميّة بهسنا، وقيسون، ومرعش، وكذٰلك القلاع علىٰ الضفّة اليُمنىٰ للفرات. وعندما طلب «قلج أرسلان» الصّلح، اشترط عليه تحرير الأسرىٰ، والإسهام الجادّ في الجهاد معه، إمّا بحربه المستقلّة مع بيزنطة، أو بإنجاده عسكريًّا عندما يطلب منه ذٰلك.

وفي العام نفسه ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م، منحه الخليفة العباسيّ تفويضًا رسميًا بحكم جميع البلاد التي وقعت تحت يده، ونزع من سلاجقة الروم كلّ سلطةٍ علىٰ البلاد غربي دجلة.

وفي سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م، كان نور الدين منهمكًا بالاستعداد لحملةٍ علىٰ الفرنجة في مصر. وكان ينوي السفر إليها بعد انتهاء شهر رمضان، إلّا أنه مرض، ووافته المنيّة في ١١ شوال ٥٦٩هـ/ ١٥ أيار ١١٧٤م وله من العمر (٥٨) ثمان وخمسون سنة؛ ودُفن أولًا في القلعة، ثمّ نُقل إلىٰ المدرسة التي أعدّها لمدفنه جنوب غرب الجامع الأمويّ، حيث لا يزال قبره قائمًا إلىٰ الآن.

إذا كان ما حدّثتك عنه مستمعي صورةً موجزة عن جهاده في حرب الفرنجة والبيزنطيّين ليذبّ عن أرض المسلمين، وينتزع منهم ما كانوا قد سلبوه

من مدنٍ وقلاع، حتّىٰ بلغ ما آسترجعه من يد الأعداء نيّفًا وخمسين مدينة، وليرسي وحدة المسلمين، فإنّ جهاده في سبيل العلم والدّين لم يكن يقلّ عن ذٰلك الجهاد.

فقد بنىٰ المدارس، والمساجد، والجوامع، والرُبُط في معظم المدن التي آنضوت تحت رايته. وفي دمشق بالذّات أصلح الجامع الأمويّ، بعد أن كان قد لحقه الخراب، وأضاف إلىٰ أوقافه أوقافًا، وخصّ تطييبه بوقف. وبنىٰ «دار الحديث» لآستماع الحديث وإسماعه، وكان أوّل من أقدم علىٰ ذٰلك. وبنىٰ المدرستين: النوريّة الكبرىٰ والصغرىٰ، وآبتدأ ببناء المدرسة العادليّة الكبرىٰ، والصلاحيّة التي أتمّها صلاح الدين ونُسبت إليه. وعمّر عددًا من المساجد في دمشق وضواحيها. وكان ينفق مال فداء الأسرىٰ والفرنجة علىٰ هٰذه العمارات العلميّة الدينيّة، بل كان يطلب من القاضي أن يبيع الهدايا التي تصله، لصرف مالها علىٰ تلك العمارات. ومن الجوامع التي شيّدها في غير دمشق جامع الموصل الكبير، وجامعًا في مدينة حماة، وفي حلب وغيرها.

وكان هو نفسه يتشبّه بالعلماء، ويُكثر من مطالعة كتب الحديث والفقه، وروىٰ الحديث وأسمعه بالإجازة، وله كتاب في الجهاد، وكان حسن الخط، ووقف الكتب الكثيرة. وأحب العلماء والفقهاء والمتصوّفة، وأكرمهم، وآحترمهم، وأحسن إليهم، بل وقرّبهم منه، وأجرىٰ عليهم وعلىٰ القرّاء. وبارك المؤرّخ الكبير «آبن عساكر» وشجّعه عندما علم بخبر تأليفه لتاريخ دمشق. وبنىٰ مكاتب للأيتام لتعليمهم القراءة والكتابة، وجعل لهم نفقةً وكسوة، وخصّ معلميهم بالجرايات الوافرة. وبنىٰ مستشفاه الكبير المشهور في دمشق، وكانت نفقاته من فداء أمير طرابلس الفرنجيّ، الذي وقع أسيرًا في يده: إذ عاهده علىٰ ثلاثمئة ألف دينار، وخمسمئة حصان، وإطلاق سراح خمسمئة أسير مسلم، وألّا يُغير علىٰ بلاد المسلمين سبع سنين وسبعة أشهر. وعندما ضاقت مرّة ذات يده وهو يجاهد حربيًا، نصحه بعض المقرّبين إليه، بأن يستعين بصدقاته الكثيرة التي يمنحها للفقهاء والمتصوّفة والقرّاء، غضب وقال لهم: «إنّني لا أرجو النصر إلّا بأولٰئك، فإنّما

أنتم تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم.. كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنّي وأنا نائمٌ في فراشي، وأصرفها إلىٰ من لا يقاتل عنّي إلّا إذا رماني بسهام قد تصيب وقد تخطئ.. ولهٰؤلاء نصيبٌ في بيت المال، فكيف يجوز لي أن أعطيه غيرهم؟». وقد أوجد أوقافًا للأرامل أيضًا.

لقد اْهتم نور الدين بكل الشّؤون التي تريح الرعيّة؛ فقد أسقط الضرائب والمكوس غير الشرعيّة، وأبقىٰ الجِزية والخراج. وقد شبّهه المؤرّخ «اْبن الأثير» بالخليفة الأُمويّ «عمر بن عبد العزيز» ولا سيّما في تحرّيه العدل والإنصاف، فكان لا يحكم إلّا بالشرع. ويعقد مجالس العدل ويتولّاها بنفسه، ويجتمع إليه في ذٰلك، القاضي والفقهاء والمفتيّون من سائر المذاهب. وكان يجلس في دمشق كلّ ثلاثاء بالمسجد المعلّق ليحمل إليه كل من المسلمين وأهل الذمّة خلافاتِهم. وكان أوّل من اْبتنىٰ دارًا للعدل في دمشق، وكان يجلس فيها في الأسبوع مرّتين وربّما أكثر، ولا يحميه من الناس حاجب.

وقد اْهتم بالعمران المدنيّ إلىٰ جانب العمران الدينيّ، ففتح في دمشق باب الفرج، ووسّع من أسواقها، كما وسّع الطرق وبنىٰ عليها الرصافات. وشيّد الخانات علىٰ الطرقات، وأقام الأبراج للحمام الزاجل.

وكان إداريًّا حازمًا، ورجل سياسةٍ حكيمًا. فكان يأتلف أعداءه عندما كان يرىٰ ألّا قبل له علىٰ التغلّب عليهم، أو يشاغلهم بأمورٍ حتّىٰ يستطيع تحقيق مراميه. وكان يكره إهراق دماء المسلمين، ولا أدلّ علىٰ ذٰلك ما فعله مع «مجير الدين أبَق» بعد فتحه دمشق، فبدلًا من أن يقتله، وهو الذي تعاون مع الفرنجة، فإنّه أعطاه ولاية ولم يذلّه.

وهٰكذا منذ ثمانمئة عام ونيّف، تمخّض عالمنا المتفكّك عن نواة وحدةٍ عربيّة إسلاميّة، لاحق تكوينَها الأوّل، بإيمانٍ وإصرار، نورُ الدين الزنكي، وأنهىٰ تخطيطها تلميذُه صلاح الدين.

فإذا كنت، أي أخي العربيّ، تذكر دائمًا صلاح الدين، بطل الإنقاذ، وزعيم

الوحدة بين مصر وبلاد الشام، بالاَحترام والتقديس، فلا تنس أبدًا أنّ المِغبر الأوّل كان نور الدين.

فإذا مررت، وأنت تتجوّل في دمشق القديمة، قرب سوق الخيّاطين، وشارفك ضريحُ نور الدين، فقفْ بخشوع أمامه، واَذكر أنه كان حاكمًا صالحًا، وبطلًا أنقذ يومًا دمشقك، التي تمرح فيهًا بحرّية، من براثن الفرنجة الصليبيّين، وقطع عليهم بذلك، طريق اَجتياح عالمك العربيّ كلّه، وغرس بذور وحدتك، التي تجاهدُ لتحقيقها اليوم.

الملكةُ الأُسطورة

سميراميس ملكةُ بابل وآشور

حديثي معك اليوم، مستمعي، عن ملكةٍ من عالَمنا الشرقيّ القديم، ومن شرقي وطننا العربيّ بالذّات، بل ومن بلاد الرّافدين. وقد نُسجت حولَها الأساطير الكثيرة، وكانت مادةً خصبة لعددٍ من المسرحيّات الأوربيّة، وسُمّيت بأسمها حدائق، وشوارع، وفنادق، ونوادٍ وغيرها، ألا وهي «الملكة سميراميس». فقد ألّف حول حياتها الأديب والمفكّر الفرنسي «فولتير» سنة ١٧٤٨م مسرحيةً، وكان قد سبقه إلىٰ ذٰلك الأديب الفرنسيّ أيضًا «كريبيون Crébillon» (١٦٧٤ـ١٧٦٢)، وأهتمّ بها مؤرّخو التاريخ القديم الغربيّون، من أمثال «غاستون ماسبرو» الفرنسيّ (١٨٤٦ـ١٩١٦)، واللورد لايار Layard (أوغست هنري) الإنكليزيّ (١٨٧١ـ١٨٩٤)، الذي كان له متابعاته في دراسة «الآشوريّات»، وتحدّث عنها أيضًا الأثريّون الألمان. وعلىٰ الرغم ممّا أحاط أسمَها من أمور، يراها الكثيرون بأنّها من نسج الخيال، وذات طابع خرافي أسطوريّ، فإنّ التاريخ الحقّ، قد أعترف بوجودها، ملكةً من أكبر ملوكَ المرحلة الأولىٰ في حياة «الإمبراطوريّة الآشوريّة»، وأنّ أسمها الآشوريّ هو «شامورامات»، وكانت أرملةَ للإمبراطور الآشوريّ «شمسي حدد الخامس» (٨٢٤ـ٨١٠ق.م)، الذي خلف الإمبراطور الكبير «شلمنصّر الثالث». ذٰلك الإمبراطور الذي مدّ فتوحاته ونفوذه حتّىٰ بلاد الشام، وسيطر علىٰ طرق التجارة في شرقيّ البحر المتوسّط. وكانت «شامورامات» هٰذه، وصيّة علىٰ آبنها «حدد نيراري الثالث»، وحكمت خلال (٨١٠ ـ ٨٠٦ ق.م)، وإن كان بعض المؤرّخين يجعل مجموع حكمها كملكة مسيطرة، يمتدّ إلىٰ إثنين وأربعين عامًا.

وتذكر روايات المؤرّخين اليونانيّين القديمين من أمثال: «كتيزياس Ctesias» (من القرن الخامس ق.م)، و«ديودور الصقلي» (من القرن الأوّل ق.م)، بأنّها كانت ملكةً علىٰ آشور وبابل، وتذكر بتفصيل كيف توصّلت إلىٰ العرش، قائلةً: بأنّه في الحملة الحربيّة الكبيرة، التي شنّها الملك الآشوريّ، وتسمّيه الرواية «نينوس»، علىٰ منطقة «بكتريان»، في الشمال الشرقيّ من بلاد فارس، وقف الملك مكتوف الأيدي أمام مدينة «بَكْتر»، التي فرض عليها الحصار؛ إذ لم يستطع أن يخترق أسوارها الحصينة، وأبدىٰ سكّانها مقاومةً ضارية، ورفضوا بإصرار الخضوع لآشور. ويئس من فتح المدينة، وكاد يرجع أدراجه، لولا أن حدثت المعجزة فجأة، وظهر بين صفوف المحاربين فتًىٰ شجاعٌ ومتحمّس، كان يتنقل علىٰ عربته كالسّهم من أحد طرفي السور إلىٰ الآخر، ويحثّ المهاجمين علىٰ المثابرة في القتال، ورمي السهام. وكان فتًىٰ غضّ الإهاب، جميلًا جدًا ـ كما تذكر الرواية ـ، له وجهٌ صغيرٌ، لطيف القسمات، تبرز فيه عينان سوداوان يشعّان ببريق الذكاء، ويتّقدان بنار العزم والتصميم. وتمكّن هٰذا الفتىٰ أن يكشف حيل العدوّ وخططه، وأن يتغلّب عليه، فٱستسلمت المدينة لنينوس، في بحر ثلاثة أيام.

وذهل الملك الآشوري من هٰذه النتيجة غير المتوقّعة، وكان يتتبّع المعركة عن كثب. وأراد أن يتعرّف هٰذا المحارب البطل المجهول، الذي حيّاه الجند، وٱندفعوا نحوه بحبٍّ وإعجاب، وحقّق له النصر. فطلب «نينوس» من قائد جيوشه، وهو «أوانيس فولوك»، وكان قد عيّنه مؤخرًا حاكمًا علىٰ فلسطين من قبله، وطلب منه أن يرافقه في حملته علىٰ «بكتريان»، ويكون رئيسًا لجنده، أن يأتي له بذٰلك الجنديّ الشّجاع. وٱرتبك «أوانيس فولوك»، وحاول أن يتهرّب مما طُلب منه، ولكنّه ٱضطرّ تحت ضغط الإمبراطور، وتهديده له، أن يأتيَ بالفتىٰ، وقد ركب عربته الخفيفة، وتعمّم بخوذته الآشوريّة المخروطيّة التي غطّت جبهته. وأمام الإمبراطور الآشوري، ٱعترف «أوانيس فولوك» بأنّ ذٰلك الفتىٰ المحارب ببسالة، هو ٱمرأةٌ، وأنّها زوجته. وذكر له أنّه ٱلتقاها في فلسطين وتزوّجها، وأنّ ٱسمها هو «سميراميس شاموراتي» أي «الحمامة». وهنا تدخل الأسطورة تلافيف الخيال، عندما يؤكّد «أوانيس»

للإمبراطور، بأنّها ابنة للإلٰهة «عسقلون» من الراعي «سيماس»، وأنّها عاشت في الصحراء، وقامت الحمامات بتغذيتها، وأنّ ذٰلك الراعي ـ وبعضهم يقول بأنّه ليس أباها ـ هو الذي ربّاها ورعاها.

وصفّق الإمبراطور، والجنود، لهٰذه المرأة الفتيّة المحاربة، وقرر «نينوس» أن يتخذها زوجةً له، بعد أن ينزعها من زوجها «أوانيس». وتقبّلت «سميراميس» الأمر بهدوء؛ فقد قُرئ لها عدّة مرّات في طالعها، بأنها ستصبح ملكةً عظيمةً يومًا ما. فمع أنها كانت تحب زوجها «أوانيس»، إلّا أنها تركته يذهب ليهلك في معركة عسكريّة، وحقّقت هي حلمها في أن تكون ملكة.

وغدت فعلًا ملكةً لآشور، ودخلت مع زوجها الملك «نينوس»، وفي موكب نصر وأفراح، إلىٰ العاصمة «نينوىٰ»، ذات الأسوار السبعة، والمساكن الخزفيّة الملوّنة. وأُحيطت مباشرةً بأحترام العرافين، والكهنة، والسحرة، وكبار رجال البلاط، الذين رأوا فيها، لأول وهلةٍ، تلميذةً، قد تصبح طيّعةً في يدهم، ولا سيّما أنها أمرأة، وتأثيرها علىٰ زوجها كبير. وتظاهرت «سميراميس»، بدهائها، بالودّ لهم، إلّا أنّها كانت في أعماقها تحتقرهم؛ فمعرفتها أعمق من معرفتهم، وآفاقها أوسع من آفاقهم. ففي الصحراء حيث نشأت، تعلّمت معارف البابليّين المتقدّمة، ووعت مظاهر حضارتهم، تلك الحضارة التي تركت آثارها الإيجابيّة في الآشوريين، ولذٰلك فإنها لم تكن لتمنحهم الفرصة كي يسامروا الملك، أو ينصحوه، أو يشيروا عليه. وكان زوجها «نينوس» متعلّقًا بها إلىٰ درجة التّقديس، وكان يحترم فيها عقلها الراجح، وثقافتها، وفهمها لمختلف الأمور التي تعرض للمملكة، وشجاعتها في ميدان الفكر والحرب.

ولكن رغم حياة الرفاه، والعظمة، والتقديس، التي كانت تعيشها، فإنها كانت متعطّشةً كي تكون هي الحاكمة وحدها علىٰ تلك الإمبراطوريّة الشاسعة. فمع أنّها كانت تحب أبنها «نينياس» الذي رُزقته من «نينوس»، فإنّها أرسلته بعيدًا عنها إلىٰ واحةٍ في الصحراء، وسلّمته إلىٰ الراعي «سيماس» الذي ربّاها يومًا، لتلتفت إلىٰ تدبير شؤون المُلك، وشؤونها الخاصّة فيه. وفي صباح أحد الأيام، وُجد

زوجها «نينوس» ميّتًا في سريره. ولم يجرؤ أحدٌ أن يسأل أو يبحث عن سبب موته. وأقامت له «سميراميس» مراسيم جنائزيّةً فخمة، تليق به كإمبراطور، وغدت هي الملكة الوصيّة على ٱبنها الطفل. ومع أنّها كانت «ملكةً وصيّة»، إلّا أنّها كانت على العرش وحدها، ودون منافس.

وكانت «سميراميس» قد أخذت تشعر بالملل والأسر في القصر الملكيّ الكبير المفروشِ بالمرمر، وهي التي عاشت معظم حياتها الأولى حرّةً طليقةً في الصحراء، تتعلّم فنون الحرب، وتطلق سهامها نحو النجوم العوالي، وتتأمّل بحرّيةٍ لا متناهية حركات الكواكب في السماء، وتكافح صعاب الصحراء وحدها. وقررت، وقد غدت وحدها الملكة، أن تعود إلى حياتها، كمحاربة. ورأت أن تتبع خطى أباطرة آشور السابقين، ومنهم زوجها، في التوسّع في المناطق المجاورة وشنّ الحروب. وكانت تتقدّم جنودها في الحملات التي تُعِدّها. وتقول عنها مترجمتها المعاصرة «هيلين فاكاريسكو»، بأنّها كانت من أكبر المخطّطين العسكريّين في التاريخ العسكريّ القديم. وكانت تريد أن تضع تحت أقدامها جميع ملوك آسيا، وأن تُغرق في ضياء عظمتها صورهم وأسماءهم؛ ونجحت، وحقّقت ٱنتصاراتٍ كبيرةً حيثما ٱتّجهت.

ولم يكن نجاحها العسكريّ فحسب، هو الذي رفع ٱسمها عاليًا في التاريخ القديم، وإنّما الإنجازات الحضاريّة الضّخمة، ولا سيّما العمرانيّة، التي حقّقتها. فقد عملت «سميراميس» على توسيع مدينة «بابل» وتجميلها. وكانت تخاطبها قائلةً: «ستكونين، يا بابل، يا مَن سُمِّيت بٱسم «باب الإله إيل» (إنليل)، المدينةَ التي ستطنّ حصاةُ ٱسمها دائمًا في مسامع الأجيال، وسيتلاقى في شوارعك الفسيحة، الفرحُ، والبذخ، ومظاهر الحياة الممتعة.. وستنير طرقاتك الواسعة مشاعل ضخمة من الذهب، وسيشعر أهلوك بالفخر والكبرياء عندما يُذكر ٱسمك الرنّان»

وبالفعل، ٱمتلأت المدينة بأصوات المطارق والحديد، وٱستخدمت الملكة في العمل، أسرى الحروب التي ٱنتصرت فيها، من أرمن، وكلدان، وفرس. ورأى البابليّون أنّ هناك مدرّجاتٍ عديدة ترتفع في مدينتهم، وسطوحًا متعرّجة مرافقة

لها تتطاول نحو الأعلىٰ، وتُحاط حوافُّها بالمرمر، وعرفوا أنّها حدائقُ لا عدَّ لها ولا حصر تجمّل مدينتهم، وهٰذه الحدائق، هي التي عُرفت في تاريخ الحضارة بٱسم «حدائق بابل المعلّقة»، والتي عُدَّت من عجائب الدّنيا السّبع. وليس لدينا عن تلك الحدائق سوىٰ أوصاف قليلة ونادرة، ولكن من المعروف، أنّ تلك المدرّجات والسّطوح قد زُرعت بأشجار الياسمين والورد المتنوّعة. وأُغنيت في أعاليها بالغابات دائمةِ الخضرة، ومُلئت بأجمل حيوانات آسيا وأزاهيرها، فكانت الروائح العطريّة المتنوّعة تملأُ أجواء بابل، وأبراجٌ من الخضرة والألوان المختلفة تتوّج أعاليها، وتنحدر بالصّفة ذاتها حتّىٰ طرقات المدينة، حاملةً الجمال إلىٰ كلّ ركنٍ فيها، مع الرطوبة الحلوة، والأنتعاش. وفي تلك السطوح الواسعة المتدرّجة، بُثّت ينابيع الماء، المنحدرة كشلالات، لها خريرها الموسيقيّ الدائم، الذي يملأُ السمع، ويختلط بتغريد العصافير. تلك هي «الحدائق المعلّقة» التي أوحت فيما بعد لبناة قصر «برسبوليس» تقليدها، والنسج علىٰ منوالها. وبعد ذٰلك العمل الحضاريّ الرائع الذي قامت به «سميراميس»، فإنّها أتت بالأسرىٰ الكثيرين، الذين جمعتهم من حروبها، فأسكنتهم في هٰذه المدينة الرائعة.

أمّا القصور في «بابل سميراميس»، فقد غُطّيت جدرانها بالخزف الملوّن المطعم بالعاج وبالمرمر، ورُسمت عليها فريسكاتٌ خياليّة، من معارك الأبطال والآلهة، ومن كلّ صورة حيوان ونبات من مئة بلد، ومن مناظر متنوّعة عن تجمعات العذارىٰ في المساء عند الآبار، أو مظاهر من حياة السكّان. وبنت لنفسها قصر «أريزيسا» الشهير، وكست جدران قاعاته، هو الآخر، بما فعلته في القصور الأخرىٰ، وزرعت سقوفه بالنّجوم المتلألئة.

وبعد أنتهاء «سميراميس» من بناء ما بنت، صعدت إلىٰ قمّة تلك الحدائق الأسطوريّة السّاحرة، وأطلّت منها علىٰ مدينتها التي لا تضارع، بل علىٰ كلّ إمبراطوريّتها، وهي تشعر بالنّشوة لما حقّقت.

ولكنّها، وهي في غمرة فرحتها هٰذه، أُعلمت بنبأ وفاة ٱبنها «نينياس». وكانت تُحضره بين آونة وأخرىٰ، من واحة الصحراء، ليعيش بين ظهرانيها. إلّا أنّ

إهمالها له، أساء إلىٰ تربيته ونشأته؛ فقد تركته بين أيدي المربّيات الجاهلات، والندماء المغرضين، والكهنة، والسحرة والعرّافين. وكان هٰؤلاء، وهم الذين أبعدتهم «سميراميس» عن شؤون الحكم، ولم تأخذ بمشورتهم، ينقمون عليها، فكانوا ينتقمون منها في ٱبنها، فيقصّون عليه مثلًا حادثة وفاة والده، ويتّهمون من طرفٍ خفيّ والدته الملكة بذٰلك، كما يسردون علىٰ مسامعه ملفقًا، الغموض الذي أحاط وصول الملكة إلىٰ العرش، ويحدّثونه طويلًا عن كلّ الأشياء التي تجعله يبغض والدته ويثور عليها، بل ويتمنّىٰ قتلها. وحزّ في نفس «سميراميس» وفاةُ ٱبنها، ولكنّها كعادتها، تقبّلت الأمر برباطة جأش، وتابعت حياتها، إمبراطورةً قويةً، وبانية حضارة.

وقد يتساءل الباحث، مستمعي، ألَم يبق مما بنته «سميراميس» في «بابل» أو في غيرها، ما يدلّ عليها؟ وفي الواقع، لقد ٱختلط علىٰ أرض بابل السّابقة، غبارٌ بقايا ما بنت سميراميس، مع غبار بقايا من أتىٰ قبلها وبعدها. ويبدو أنّ هٰذا التساؤل، كما تذكر الروايات، قد مرّ بذهن «الإسكندر المقدوني»، الذي ضمّ إليه ما نسمّيه اليوم، بلاد العراق، وإيران، ووصل حتّىٰ السّند، وكان يحب «بابل» بالذات ويَودّ أنْ يجعل منها إحدىٰ عواصمه وأن يعيد إليها مجدها السابق. وتشير الرواية، إلىٰ أنّه وهو في قصره، في يوم من الأيام، أحضر له جنده نصبًا صغيرًا، ٱتتكل الزمن والأعشاب، والرمال، والرطوبة قسمًا منه، وقد غطّته كتاباتٌ مسماريّة. وكانوا قد كادوا يرمونه ويحطّمونه قبل أن يفكر أحدهم بضرورة إيصاله إلىٰ الإسكندر. فأمر هٰذا الأخير، بفكّ ما كُتب عليه من خطّ. وبصعوبةٍ كبيرة، تمكّن أحد أفراد الحاشية، أن ينقل علىٰ رقّ، ما كان مكتوبًا علىٰ ذٰلك الرقيم؛ وكان تعدادًا جميلًا للإنجازات التي قامت بها الملكة «سميراميس» في حياتها، وكانت كالآتي:

«أنا «سميراميس»، وعلىٰ الرّغم من أنّني ٱمرأة، فقد كنت مساويةً لأعظم الرّجال. لقد حكمت إمبراطوريّة «نينوس»، التي لامست من الغرب بلاد البخور والمرّ، ومن الشمال نهر «الهلام»، ومن الشرق بلاد سرغس Serges وسكروتس Scrotes، وآشور كلها. ومن آشور رأيتُ البحر، وتأمّلت بعينيّ الحياة في أربعة محيطات، وتوغّلتُ

في أرض السند، وشيّدتُ حصونًا، وبنيتُ أبراجًا، ومدنًا عديدةً جديدة، يشعر المرء بالدّوار إذا أراد إحصاءها. لقد شققت بالحديد طرقاتٍ، لم يكن بإمكان الوحوش المفترسة نفسها أن تمرّ بها. لقد ألزمت الأنهار علىٰ تغيير مجراها، وحملتها إلىٰ حيث جعلت الأرض أكثر خصوبة ورواءً. كنت أنا «سميراميس»، ورغم أنني اَمرأة، فقد كنت مساوية لأعظم الرجال، ومع كل تلك الأعمال التي ملأت حياتي، فقد وجدت الوقت الكافي لأصدقائي ومتعي، أنا «سميراميس»، ملكة آشور».

ولكن «سميراميس»، بعد أن قدّمت ما قدّمت في الحقلين العسكريّ والحضاريّ، وكانت سعيدةً بما فعلت، وصلت إليها الأنباء بأنّ المقاطعات في إمبراطوريّتها شرعت تتمرّد عليها. ولم تعد جيوشها تتوصّل إلىٰ النّصر الكبير الذي كانت تبغيه. وفي بلاد السند بالذّات، التي كانت حريصةً جدًّا علىٰ تثبيت قدمها فيها وسيادتها، لاقت جيوشها بعض الهزائم. وحاولت هي نفسها أن تخوض المعركة، ولكنّها اَضطرّت إلىٰ التراجع، لاَنسحابٍ مفاجئٍ قام به جندها، وكان هٰذا إيذانًا بأُفول نجمها.

وتواترت إليها الأخبار بأنّ رجلًا خرج من الصحراء، لا يُعرف اَسمه أو أصله، قد تزعّم المستائين من حكمها، واَنضمّ إليه الكهنة، ورجال البلاط، الذين لم يغفروا لها يومًا إهمالَها لهم، وإبعادهم عن مجلس مشورتها، وتحالف معهم أيضًا، القادة العسكريّون، الذين رفضت تدخّلاتِهم في شؤون الحكم؛ وكان هٰذا الرجل المجهول الهويّة، يبثّ الثّورة ضدّها، فتنتشر من مقاطعةٍ إلىٰ أخرىٰ. إلّا أنّ «سميراميس» تمكّنت من قمعها..

ولكن تلك الثورة لم تلبث أن اَندلعت في مقرّ حكمها، وفي «نينوىٰ» نفسها. وتساءلت من يكون ذٰلك الشاب الجريء القويّ، الذي يتحدّاها بهٰذه الجرأة والشّجاعة، وهي الإمبراطورة القويّة، والرائعة الجمال، والتي كان جميع ملوك آسيا وأمرائها يرتجفون أمامها؟ ووصلت الثورة إلىٰ «بابل»، وجمع الثوار حولهم، جميع الناقمين عليها، وهم كثر، وأخذت تسمع الهدير المخيف للشعب المستاء. وقرّرت أخيرًا أن تلتقي بذٰلك الشاب. وتقوّل بعض من تحدث عنها، وفسّروا إرادتها تلك،

بأنّها كانت تريد أن تربح المعركة مع غريمها، بقوة جمالها، وتأثيرها النّسويّ عليه. إلّا أنّها أحضرت درعها الفولاذيّ الخفيف، وخوذتها المخروطيّة وعربتها الحربيّة، وكل ما كانت عليه سابقًا أمام مدينة «بكتر»، عندما هزمت أعداء «نينوس»، وآستغلت بالطبع جمالها الرائع، الذي لم تُصبه السنون بأذىٰ، وركبت عربتها، وقادت بيد الخيول الثلاثة الجامحة التي كانت تجرّها، وأمسكت بالأخرىٰ قوسها الخفيف، قوس الجنديّ البسيط. وأطلّت، بصورتها هٰذه، علىٰ الثائرين المهاجمين. فصمت شعب آشور وسكّان بابل، وعادت إلىٰ ذاكرتهم، صورة اليافع المدهش الذي حقّق لهم النصر أمام «بكتر». وبدلًا من الهجوم عليها وإسقاطها، هلّلوا لها وهزجوا، ونجت «سميراميس».

نجت، ولكن كان في قلبها غيظٌ وحنقٌ، وفي حلقها غُصّة. ومع أنّها نجت، إلّا أنّها أرادت أن ترىٰ ذٰلك الثائر الشاب، لا لتُحبّه ويُحبّها، كما تقوّل بعض المؤرخين الروائيين، إذ لم تكن لتعدم المحبّين، ولكنها كانت ترغب في رؤيته لتفوّقه، وترىٰ ماذا يساوي في سوق الإنسان. وآبتسمت له عندما تقابلا، ولم تُظهر له غضبها الدفين، وغيظها العميق. وتأمّلها هو بعينٍ مُبغضة قاسية، ولم يُظهر أيّ تأثّرٍ تعاطفيّ، بما أظهرته عيناها من رقّةٍ مصطنعة. ونظرت إليه بتمعّن، وأحسّت أن في وجهه شيئًا مألوفًا لديها جذبها إليه، إلّا أنّه كان مخيفًا ومرعشًا بالنسبة إليها.. وصرخت من أعماقها «نينوس»! فذٰلك الشاب الثّائر لم يكن سوىٰ آبنها «نينياس»، صورةً من «نينوس» ومنها. وفتحت «سميراميس» الأم هٰذه المرّة، ذراعيها لآبنها، وتلاشىٰ حنقها علىٰ الثائر المخرّب لإمبراطوريتها وعظمتها.

لقد كان الكهنة الناقمون، قد خطفوا الطفل سرًا، ووضعوا بدلًا منه جثّة طفل في عمره، وأشاعوا وفاته. وربّوه في بغض ملكتهم التي هي أمه، وجعلوا منه «هاملت» آسيويًّا، عليه أن يقضي علىٰ والدته، تكفيرًا عن ذنبٍ آقترفته منذ سنوات بحقّ زوجها، بقتلها له، حسب ظنّهم. وجعلوا فيه وحشًا، لا همّ له سوىٰ آرتكاب المفاسد، والحصول علىٰ المال، وتحقيق ما يرغبون من شرورٍ وآثام.

وعادت «سميراميس» الملكةُ العظيمة، القويةُ والباطشة، تحبُّ هٰذا الوحش. فقد تسرّب حبّ الأمومة إلىٰ قلبها الحديديّ؛ فأشركته معها في السُّلطة، وسلّمته خزائنها وكنوزها، وسمحت له أن يتنقّل كمَلِك، في بلاد ميديا، وأرمينيا، وبلاد الكلدان، والفرس، والهند. وغدا عضوًا رئيسًا في مجلس حكمها، بل ويتكلّم قبلها.

إلّا أنّه كان تحت تأثير حبّ اَمرأةٍ أُخرىٰ، فقد ملكت فؤاده وكيانه، أَمَة نكرة، أقسمت أن تحكم محل «سميراميس». وفي إحدىٰ الليالي، وكانت «سميراميس» تضطّجع، مغمضةَ العينين، تحت أكمة خضراء في حديقتها، اَقترب منها اَبنها وأَمَته. وفتحت «سميراميس» عينيها لترىٰ الحركة التي قام بها اَبنها ليقتلها فدفعته بقوّة عنها. وعرفت الآن، بالدليل القاطع، بأنه قادرٌ علىٰ إثارة المدينة كلّها عليها كما فعل في السابق، بل هو قادر علىٰ قتلها، ولن يتأخر عن إنفاق الكنوز الهائلة المتجمّعة في أقبية القصر، والتي يقوم علىٰ حراستها جنودٌ أشدّاء ليحقّق كلّ مطامعه. عرفت أنّ ساعتها تقترب، ولكن لم يكن ليسرّها أبدًا أن تموت كما تموت أيّة اَمرأة، فأسطورتها يجب أن تبقىٰ، وتكتمل بصورةٍ جميلةٍ لها؛ إنها ستختفي.

وفي صباح أحد الأيام، وفي الساعة التي كان كهنَةُ «الشمس» يردّدون صلاتهم إلىٰ إلٰهتهم قائلين: «إليك أي إلٰهتنا الشمس، التي تغدقين النور علىٰ الدنيا، إليك التي تبثّين الحرارة والرفق في الكون، إليك أيّتها الإلٰهة الحنون نصلّي، والملكة معنا تشاركنا وتحييك». لم تكن الملكة في هٰذه الصّلاة، أي لم تكن «سميراميس» معهم.. وبحثت عنها حاشيتُها، ومعاونوها في كلّ ركنٍ من قصرها، فلم يجدوها.

أين هي الملكة «سميراميس»؟ ماذا حدث لها؟ واَنتشر الخبر في المدينة، والمملكة الواسعة، ويبدو أنّ الأسطورة قد نجحت في خاتمتها، كما أرادتها، وربما تكون «سميراميس» نفسها، قد نسجتها؛ لقد كان ختام حكمها نقاءً صافيًا، بعيدًا عن إراقة الدّماء، وبشاعة الاَنتقام. فقد جاءت حماماتٌ في الفجر باحثاتٌ عنها، فحملنها إلىٰ الصحراء، ومنها إلىٰ السماء. ومنذ ذٰلك الوقت، ولزمنٍ طويل

نسبيًا، ظلّ شعب آشور يعتقد، وهو يرىٰ في السماء سربًا من الحمامات البيضاء، بأنّه يحمل معه ملكتهم المحبوبة «سميراميس».

ولكنّ المسرحيّة التي كتبها عنها «فولتير»، أخرجتها قليلًا أو كثيرًا عن تلك الروايات التي تحدّثت عنها. إذ صوّرها الأديبُ الفرنسيّ، بأنّها قد قتلت فعلًا زوجَها «نينوس» بالسّم، وأنّها كانت عاشقةً لآبنها، دون أن تعرف بأنّه آبنها. إلّا أنّ هٰذا الأخير، كان يحبّ «أزيما»، التي كانت بدورها محبوبةً من الأمير «آشور»، وكان يريدها لنفسه. ويبدو أن «فولتير» قد تأثّر كثيرًا بمسرحيّة «هاملت» لشكسبير، حتّىٰ إنه يُظهر شبح الملك «نينوس» لآبنه «نيناس»، ويحثّه علىٰ قتل أمّه «سميراميس»، ويبيّن له سرّ مولده. ويقتل «نيناس» أمّه خطأً، ظانًّا أنّها الأمير «آشور»، منافسه في حبّ «أزيما». إلّا أنّ الملكة «سميراميس»، وهي في النزع الأخير، تصفح عن آبنها، وتُبارك زواجه ممّن يحبّ.

والسّؤال الآن: هل كانت «سميراميس» هي منشئة «الحدائق المعلّقة» الشهيرة في بابل؟ أم أنّ تلك الحدائق كانت مَن صنع من سبقها من ملوك البابليّين؟ أو ممّن لحقها من ملوك الآشوريّين أو الكلدان؟ هل كان كلّ ما رُوي عن إنجازاتها العسكريّة والحضاريّة، وعن حياتها، أسطورةً نسجها خيال المؤرّخين اليونان القدماء؟ أم أنّ جزءًا ممّا ذُكر كان واقعًا حقيقيًّا؟!

إنّ كونها ملكةً علىٰ آشور وبابل أمرٌ لاشكّ فيه، وقد وُجد نصبٌ بآسمها في نينوىٰ. ولكن يبدو أنّ ما نُسب إليها من أعمال يبقىٰ مشوبًا بالخيال. ولا سيّما أنّ الأدباء الغربيّين في العصور الحديثة قد أضافوا إلىٰ الخيال خيالًا.

وهٰكذا تبقىٰ الحقيقة تائهةً في تلافيف الأسطورة، وتنتظر إثبات المخلّفات الأثريّة الملموسة، ونصوصها.

الملكة المأساة

ماري ستيوارت

ملكة سكوتلاندة (إيقوسية)

أكتنف حياةَ هٰذه الملكة غموضٌ غريب، وحاول المؤرّخون والأدباء إزالة هٰذا الغموض بدراساتهم الكثيرة لحياتها، ولكن يبدو أنهم زادوه غموضًا بوجهات نظرهم المختلفة. لقد كان أمامهم شواهد ووثائق تاريخيّة عديدة، ولكن كلّما تعمّقوا فيها، ثبت لهم ضعفها، ووجدوا تحت كلّ حقيقة ضدّها، وتحت كلّ إثبات نفيه، فحاروا في أمرهم وأمرها، ورأوا أنفسهم مسوقين إلىٰ القول أخيرًا إنّ في حياة هٰذه الملكة لغز المرأة، وتعقّد شخصيتها. وهٰكذا شُوهت حقيقتها مرة أخرىٰ؛ فالبروتستان والكتاب الإنكليز بصفةٍ عامّة، لا يرون فيها إلّا مجرمةً، والكاثوليك والكتّاب الفرنسيّون يدافعون عنها، ويبرؤون ساحها ممّا اتّهمت به. وبذٰلك تناقضت الآراء في أمرها، وتصادمت، ولكلٍّ منها أدلته وإثباتاته. وفي الواقع، إن حياة هٰذه الملكة مأساة، تفاعلت فيها عواطفها كإنسان، وكامرأة، مع آمالها وتطلّعاتها كملكة، ولعبت الأهواء بها في المحيطات التي عاشتها، وتآمرت عليها قوىٰ الدول الكبرىٰ في زمنها وانتهت بسحقها.

ففي اليوم السادس من عمرها، كانت «ماري» ملكةً علىٰ سكوتلاندة. فقد رأت النور في قصر «لِنْليثغو»، في ٩ كانون الأول سنة ١٥٤٢م، ووالدها «جيمس الخامس» يعالج سكرات الموت. ولم يكن له من العمر سوىٰ واحد وثلاثين عامًا. فقد أرهقه تاج سكوتلاندة وقضاياها. وقد بيّن الظروف الصعبة التي كان يعانيها لـ«ماري دولورين» الفرنسيّة، وهو يطلب يدها قائلًا:

«سيدتي، ليس لي من العمر إلّا سبعة وعشرون عامًا، وها هي الحياة أثقلت كاهلي، والتّاج أمال رأسي. يتيمٌ منذ الطفولة. وقد فتحت عينيّ علىٰ عالمي، وإذا بي سجين الأشراف الطامعين حولي. ليس في موطني نبيل لم تجتذبه الوعود والأماني، أو لم يُغره المال. ليس هناك اَطمئنان حتّىٰ علىٰ شخصي، وليس هناك ما يحمي تنفيذ إدارتي، ولا تنفيذ القوانين العادلة. كلّ شيء يخيفني. ليس لديّ من مالٍ إلّا ما يصلني من فرنسا أو من الكنيسة. ويعتقد الأشراف النبلاء أني منافس لهم، ولا أظنّ أنني سأنتصر عليهم. ومع ذٰلك سوف أسعىٰ لتذليل كلّ الصعاب والعقبات، لأفتح أمام أمّتي طريق العدالة والسلام. وقد أصل لتحقيق هدفي هٰذا، إذا لم يكن ضدّي سوىٰ نبلاء بلدي، ولكن ملك اَنكلترة لا ينفكّ يزرع العراقيل في طريقي، فها هو يسعىٰ لنشر الهرطقة في بلادي. في كلّ زمان، اَعتمدت سلطتي وسلطة أجدادي علىٰ البورجوازيّة والكنيسة. وأنا مضطر للقول لك: هل ستدوم تلك السلطة أم لا؟».

وقبلت «ماري دولورين» الزواج منه، وأنجبت له ولدين ماتا في المهد. وأزعجه جدًا هٰذا الأمر، لأن خاله ملك إنكلترة «هنري الثامن» طامع في عرشه، ويعمل ليضمّ عرش سكوتلاندة إلىٰ عرش إنكلترة. وبالفعل حصل صدام مسلح بين الطرفين، وخسرت سكوتلاندة معركة «سولْوِه موس»، لخيانة الأشراف مليكهم، وفرار الجند منها، ووقع الملك فريسة الحمّىٰ. وتلقّىٰ نبأ ولادة اَبنته «ماري» وهو يعالج سكرات الموت، فعجّل النبأ بموته، لأنه كان ينتظر اَبنًا يرث العرش من بعده، فخاب أمله، وقال متنبئًا للطفلة الملكة بمستقبلها: «لقد أتانا العرش عن طريق اَمرأة، وسيذهب عن طريق اَمرأة».

إنه ميراث تعيس لماري، أن تكون ملكة سكوتلاندة ومن عائلة ستيوارت. إذ أنه حتّىٰ بدء حكمها، لم يعش أحد من أفراد هٰذه الأسرة سعيدًا، أو لمدة طويلة. فإثنان منها هما «جيمس الأول» و«الثالث» قُتلا، و«جيمس الثاني» و«الرابع» سقطا في ميدان القتال، وقُدِّر لماري وحفيدها من بعدها شارل الأوّل المقصلة.

لقد كان آل ستيوارت مُجبَرين دومًا على القتال: العدوّ الخارجيّ والعدوّ الداخليّ، فكلّ ما حولهم يستدعي العنف حتّى طبيعة بلادهم القاسية: فسكوتلاندة جبالٌ قاحلة جرداء، وسهولٌ لا تصلح للزراعة إلّا بصعوبة. وكان لهذه الطبيعة أثرها في طباع السكان ونمط حياتهم: فهم عنيفو الطباع، وذوو أهواء لا تُكبح، وطموحات لا تُرضى. وقامت في شعاب تلك الجبال، وحدات قبليّة متفرّقة، فسادت الحياة الإقطاعيّة، التي لفّت أوربا كلّها في العصور الوسطى. وبنى رؤساؤهم الحصون الإقطاعيّة، وعاشوا فيها كملوك، لا يعرفون عملًا لهم ولا متعةً إلّا الحرب، والتناحر فيما بينهم؛ وكان رؤساء هذه العشائر، أو بتعبير آخر: أصحاب القصور الإقطاعيّة، مطلقي السلطة على عشائرهم، تتبعهم في حروبهم، وتحالفاتهم، وخلافاتهم. وكان هؤلاء الذين كوّنوا طبقة «النبلاء»، كما وصفهم «جيمس الخامس» لزوجته، أول من يبيع ضميره بالمال. ولقد وصفهم سفير فرنسا في سكوتلاندة قائلًا: «إنّ المنفعة والمال، هما الصفّارتان اللتان يصغي إليهما السكوتلانديون. أمّا تذكير هؤلاء بواجباتهم تجاه وطنهم وأمرائهم، وتحديثهم عن الشرف، والعدالة، والفضيلة، والأعمال النبيلة، فلا يثير سوى ضحكهم». وكثيرًا ما كان هؤلاء الأمراء يتحالفون ضدّ الملك نفسه، ورغم التحالف، يبقى الحليف منافسًا قويًا، وعدوًا يجب معاقبته. وبصورةٍ مجملة، كان القتال لذتهم، والغيرة محرّكهم، والطمع مدار حياتهم كلّها، والطاعة تزعجهم، كما يقضّ مضجعهم الإخلاص. وهكذا، فسكوتلاندة التي غدت «ماري» الطفلة ملكة عليها، بلد تتمزّقه الأهواء، فقيرةٌ لطبيعتها البخيلة أولًا، ولأنّ الحرب الأبديّة كانت تهدّ كيانها ثانيًا، فتكتسح مزارعها، وتحرق مدنها، إذا كان هناك ما يسمّى مدنًا. والقسم الجنوبي منها، مزّقته إنكلترة بهجماتها الدائمة. ومعظم السكان يعيشون على الصيد والرعي وبعض الزراعة. وكانت الثروة تُقدَّر بعدد رؤوس الغنم التي يملكها الفرد. فالملك «جيمس الخامس» نفسه، كان يملك عشرة آلاف رأسٍ منها، وهي كلّ ثروته.

ولم يكن للملك جيشٌ نظامي، ولا حرس خاص، لأنه لا يمكنه أن

ينقده أجره، ولأنّ البارلمان المؤلّف من النبلاء، لا يسمح له بآتّخاذ حرس، كي لا يستخدمه لتوطيد سلطته المطلقة.

وعلىٰ الرغم من فقر هٰذه المملكة، وتأخّرها حضاريًّا عن البلاد الأوربيّة الأخرىٰ، فإنها كانت محطّ أنظار دولتين قويتين قريبتين منها: إنكلترة، وفرنسة. فالأولىٰ كانت تحاول دومًا ضمّها إلىٰ العرش الإنكليزي، ولقد قاومت سكوتلاندة ذٰلك بكلّ قوتها. ولمّا رأت فرنسا فيها عدوّة لعدوتها إنكلترة، حاولت التحالف معها منذ حرب المئة عام. ورأىٰ ملوك سكوتلاندة في هٰذا التحالف وسيلةً لتكوين مَلكيّة مطلقة، وكانت فرنسا تساعدهم بالجيوش والمال، ولكنّ النبلاء السكوتلانديين كانوا في كلّ مرة هم المنتصرين علىٰ الملوك، ولو معنويًا، إذ لم يرضخوا لهم أبدًا.

ومع أنّ الملك «جيمس الرابع» تصاهر مع ملك إنكلترة، فتزوج آبنة الملك «هنري السابع»، وسعىٰ للمصالحة مع النبلاء، إلّا أنّ الحرب عادت بين الطرفين، وفيها قُتل ملك سكوتلاندة تاركًا آبنه «جيمس الخامس»، والد «ماري»، وهو في السنتين من عمره.

ولذٰلك، لم تكن الطفلة «ماري» تتكلّم بعد، أو تفكر، أو تحرك يديها إلّا بصعوبةٍ في مهدها، حين قامت المنازعات بشأنها، أو بالأحرىٰ بشأن التاج الذي تحمله. وهٰكذا، كانت منذ طفولتها المبكرة جدًا، سجينة السياسة، ولعبة المفاوضات. ونجم النزاع أولًا حول الوصاية علىٰ العرش، وآنتهىٰ الأمر بتسليمها إلىٰ «إيرل أوف آران» من أقرباء آل ستيوارت، ولم يكن يملك من القدرات السياسيّة ما يمكّنه أن يحكم هٰذه البلاد الصعبة المراس، والتي تتنازعها القوىٰ السياسيّة الأوروبيّة الكبيرة. ولقد آصطدم أوّل ما آصطدم بمشروع ملك إنكلترة «هنري الثامن»، الذي رأىٰ أن يجعل عداوة إنكلترة في فم سكوتلاندة أقلّ مرارةً، بأن يزوّج ماري الطفلة من آبنه «إدوار»، إذ أنّ هٰذا الأمر سيقطع دابر الآنقسام والتنافر بين إنكلترة وسكوتلاندة، ويوحّد البلدين اللذين يعيشان علىٰ جزيرةٍ واحدة، وبذٰلك يتطلّعان معًا إلىٰ هدفٍ أسمىٰ من تنازعهما الدائم. وعَضَدَ

المشروع كثير من كبار نبلاء سكوتلاندة، وانتهت المفاوضات بعقد معاهدة «غرينويتش»، ومن بنودها: (١) زواج ماري من إدوار. (٢) حفاظ الشعبين على سلام دائم بينهما، حتى بعد موت أحد الطرفين. (٣) يتجنب التحالف مع فرنسا. وأضيف إليها بندٌ سريّ رابع، وهو: تصبح سكوتلاندة تابعةً لبريطانيا في حالة وفاة الملكة ماري.

وألحّ «هنري الثامن» ملك إنكلترة، أن تُنقل «الملكة ماري» الطفلة منذ الآن إلى البلاط الإنكليزيّ. إلّا أنّ أمها، وقد علمت بالشرط السريّ، خافت على ابنتها، وعلى عرش سكوتلاندة، من بطش «هنري»، وهو الذي قتل زوجتين له. وبعد مفاوضاتٍ طويلة، اتّفق على أن يتمّ الزواج عندما تبلغ «ماري» العاشرة من عمرها.

ولكنّ الحرب عادت بين الطرفين، إذ أعلن البارلمان السكوتلاندي إلغاء المعاهدة بحجّة أنّها وقّعت ضد إرادة الشعب؛ وفي الواقع كانت فرنسا وراء الأحداث، يعضدها الكاثوليك في سكوتلاندة. إذ بدأ «الإصلاح الدينيّ البروتستنتي» ينتشر في البلاد، تدعمه وتُيسّر سبله إنكلترة، بينما فرنسة تحمي الكاثوليك وتمدّهم بالعون. وأرسلت إنكلترة جيشًا، إلّا أن النبلاء السكوتلانديين هٰذه المرّة اتّحدوا وجابهوه وطردوه من بلادهم، ولكنه خلّف وراءه آثارًا لا تُمحى من الخراب والدمار، ومقتل عشرة آلاف رجل في معركة «بنكي».

في أثناء تلك الحوادث المضطربة، كانت «ماري دوغيز» (لورين) والدة «ماري ستيوارت» قد أخفت ابنتها بعيدًا عن العيون في قلعة «سترلنغ Stirling»، ثمّ في جزيرةٍ في بحيرة «مونتيث Monteith». وأخذت هي تسعى للوصاية. وكانت «ماري ستيوارت» تترعرع مرحةً، لا تعلم من أحوال بلدها إلّا حديقتها، وقصرها، وصديقاتها، ولا تعرف أسباب نقلها من قصر إلى قصر، ومن مكانٍ إلى آخر. كما لم تكن على علم بأنّ الحوادث الدامية التي تمزّق بلدها، هي من أجلها، ولا أن هناك تغيّرات دينيّة تهزّ عالمها وأوربا

كلّها، وتولّد تحزبات وعصبيات عنيفة، وأنّ بلادها قد حكمت علىٰ بعض من ينشر المذهب الدينيّ الجديد البروتستانتي بالإعدام، وأن إنكلترة عادت تحيك المؤامرات لهٰذا الغرض، وأنّ فرنسا قامت بالتدخّل العسكريّ لإنقاذ الكاثوليك المحاصَرين. ولعلّها لم تدرك آنذاك وهي في الخامسة من عمرها، أنّ أمّها قد تحالفت مع ملك فرنسا «هنري الثاني» ضد ملك إنكلترة، وقد ٱشترط هٰذا الملك ثمنًا لهٰذا التحالف، أن تُزفّ «ماري» إلىٰ ٱبنه «فرانسوا». وهٰكذا وجدت هٰذه الطفلة نفسها، تُباع وتشرىٰ، وهي لا تدري من أمور الحياة والسياسة شيئًا.

ورأت نفسها في السابع من شهر آب سنة ١٥٤٨م، ولها من العمر خمس سنوات وثمانية شهور علىٰ ظهر مركب يقلُّها إلىٰ فرنسا، ويحيط بها رجالٌ أشدّاء، يبتسمون لها ويحيطونها بالحماية والرعاية. كانت تبتسم للمستقبل وتمرح، ولا ترىٰ في هٰذه الرحلة البحرية، إلّا تحقيقًا لحلم من أحلام الطفولة. ووصل المركب بأمانٍ إلىٰ ميناء «برست» الفرنسيّ بعدَ أن تفادىٰ الأسطول الإنكليزيّ. وصل وهو يحمل السلعة البشريّة الثمينة. وهبطت «ماري» منه باسمةً، تتبعها صديقاتها الأربع اللائي كُنّ يَحملن، هنّ الأخريات ٱسم «ماري». ولعلّها كانت تتخيل نفسها ملكةً لفرنسة، التي كانت من أعظم الدول الأوربيّة آنذاك. وبهبوط «ماري ستيوارت» علىٰ أرض فرنسا، ٱنقطعت صلتها مبدئيًا بوطنها، وٱبتدأت مرحلةً جديدة من حياتها.

كان البلاط الفرنسيّ في القرن السادس عشر من أزهىٰ بلاطات أوربا، فله تجارب طويلة في الآداب العامّة، والتقاليد الرسميّة. وقد عرف الملك «هنري الثاني» كيف يستقبلِ خطيبة ولي العهد الملكة. فأصدر قرارًا قبل وصولها، يَفرض فيه علىٰ كلّ القرىٰ والمدن التي سيمرّ بها موكب الملكة، ٱستقبالها بالحفاوة والترحاب، والمظاهر اللائقة بها. وفعلًا، لم تضع ماري قدميها في فرنسة، حتّىٰ كانت كلّها قد ٱستعدت لقدومها، بشتّىٰ وسائل الفرح والسرور، والزينات، والرقص، والغناء. ووصلت «ماري» إلىٰ قصر

سان جرمان، وهنا رأت خطيبها لأول مرة. رأت فيه طفلًا مثلها، في الرابعة من عمره، نحيل الجسم، ذابل العينين، أصفر اللون. ورأت وراءه حماها «هنري الثاني»، الذي تمتم عند مشاهدتها: «الآن أصبحت سكوتلاندة دولة فرنسية» ولقد أعجبته جدًا، حتّىٰ إنه كتب في أحد رسائله يقول: «إنها أكمل طفلة رأيتها».

اندمجت «ماري» رغم طفولتها، في البلاط الفرنسيّ، الذي كان يمثل آنذاك «عصر النهضة» أحسن تمثيل: ففيه تجمّع الأدباء، والشعراء، أمثال «رونسار»، والفنّانون من موسيقيين ومصورين. وبدأت تغترف من المعارف، وكان يُشرف علىٰ تربيتها أخت الملك هنري الثاني «مارغريت دوفرانس». وفي هٰذا البلاط تعلّمت اللغات، ومنها اليونانيّة واللاتينيّة، وأجادت الموسيقىٰ، والشعر، ونبغت فيها كلّها. وقد أظهرت ذكاءً مدهشًا، وبزّت كلّ من حولها من الأميرات، وتمكّنت وهي في العاشرة من عمرها، أن تلقي محاضرةً باللاتينيّة علىٰ أشراف البلاط، بثقةٍ ودون تلعثم. وأضافت إلىٰ هٰذا التفتّح الذهنيّ، جمالًا طبيعيًا جذّابًا. وقد قال عنها الأديب الفرنسي «برانتوم» (١٥٣٥ـ١٦١٤): «كانت وهي تقترب من الخامسة عشرة، يتألق جمالها كضوء ساطع في وسط نهارٍ رائع الجمال». وكتب الكاردينال «دولورين» لأمها قائلًا: «إن ٱبنتك كاملة جدًا في كلّ شيء.. ولا يرى مثال لها في كلّ المملكة». وكان للتربية الفرنسيّة أكبر الأثر في ماري، إذ نشأت خياليّةً، تلعب بها العواطف والأهواء، وفارسةً جريئة تمتطي الخيل، وتتمنّى لو كانت رجلًا، تستطيع أن تقضي ليلةً، وهي حرّة وتحت السماء الصافية. وهٰذان العنصران، العواطف والجرأة سيقودانها في حياتها، ويطبعان أعمالها بطابع المغامرة والاستخفاف بالأمور.

وعجّل ٱكتمال شباب ماري المبكّر بالتحضير للزفاف. وهنا تلعب السياسة بها مرةً ثانية، وتنتزعها من مرحلة بدأت تشعر فيها بتكوّن كيانها، وبدء تبلور شخصيّتها، لتزفها إلىٰ طفلٍ في الرابعة عشرة من عمره. طفل مريض، أو مراهق يجر قدميه جرًّا. وقد يتساءل ولِمَ التعجيل بالزواج، وماري ملك يديهم؟

والجواب إنّ ولي العهد مريضٌ بداء لا يشفىٰ. فمنذ طفولته كان تحت رحمة الأطباء ورعايتهم، وربما عُجّل بالزواج علىٰ أثر تقريرٍ طبي يتنبّأ بقرب موته. وإذا تُوفي قبل زواجه بماري، فإنّ عرش سكوتلاندة يضيع من يد فرنسا، وهي بحاجة إليه لتدعم موقفها السياسيّ في أوربا. وتُوقِّع ماري سرًّا علىٰ ثلاث معاهدات، تبيع فيها بلدها إلىٰ فرنسة، فمن بنودها: تُعطىٰ سكوتلاندة لفرنسة. إذا تُوفيت ماري دون وريث. ويصبح «هنري الثاني» ملكًا لسكوتلاندة منذ الآن، حتىٰ تسدّد هٰذه الأخيرة تكاليف تربية ماري وتنشئتها. ويُعطىٰ التاج السكوتلاندي لولي العهد الفرنسيّ.

وٱحتُفل بالزواج في كنيسة نوتردام ٱحتفالًا رائعًا. وسارت ماري وزوجها في أزقات باريس وشوارعها توزع ٱبتساماتها علىٰ الشعب، وبدأت تعيش حياة سعادةٍ وأفراح. ولكنّ سعادتها لم تدم، إذ شرعت السماء الصافية التي تظلّل حياتها، تتوشّح بالغيوم وأخذ تاجٌ ثالث يتراءىٰ فوق رأسها فيُقلقها: ففي سنة ١٥٥٨ توفيت ملكة إنكلترة «ماري تيئودور»، وأعلن البارلمان الإنكليزي، «إليزابيت» أختها ملكة بعدها، وكان قد أقرّ من قبل عدم شرعيّتها، لأنّ أمها «آن دويولين» لم تكن زوجةً شرعيّة لهنري الثامن بحسب رأي البارلمان. وإذا لم تصبح «إليزابيت» ملكة، فإن الحقّ بالعرش يصبح «لماري ستيوارت»، إذ هي الوريث الوحيد، عن طريق جدتها «مارغريت» ٱبنة هنري السابع، وزوجة جدّها «جيمس الرابع». وكان أمام «ماري» أحد خيارين: إمّا أن تقبل هٰذا التاج، بل وتطالب به، وبذٰلك تعلن عداءها لإليزابيت، وتستعين بجيوش فرنسا وسكوتلاندة لحرب تثبّت بها هٰذا التاج علىٰ رأسها، أو أنها تسكت عن المطالبة بهٰذا التاج، وتعترف بإليزابيت، ويكون بينهما ودٌّ وصفاء. ولجأت «ماري» تحت تأثير حميها، إلىٰ حلٍّ وسط، إذ ٱكتفت بنقش شعار الملكيّة الإنكليزيّة إلىٰ جانب الشعارين السكوتلاندي والفرنسي علىٰ الشعار الذي تحمله. ولكن هٰذا كان أول خطوة في مأساتها. فإليزابيت لن تغفر لها هٰذه الخطيئة السياسيّة، إذ بعملها هٰذا، لم تهاجم «إليزابيت» وجهًا لوجه، بل أغضبتها وجعلتها تتصور دائمًا ـ كما

قالت إليزابيت نفسها ـ، «شبح ماري وراء كرسي عرشها». هٰذه الخطيئة التي تبدو صغيرة في مظهرها الخارجيّ، كانت تحمل في باطنها، وفي الواقع، عدم اعتراف ماري لإليزابيت بالعرش، وكانت أول صدامٍ بين المرأتين اللتين سيشغل صراعهما أوربا بأجمعها.

وفي العام نفسه تُوفي «هنري الثاني» علىٰ أثر جرح أصيب به، وغدت «ماري ستيوارت» ملكةً لفرنسا، إذ أصبح زوجها «فرانسوا الثاني» هو الملك بعد أبيه. وهٰكذا تقدّمت «ماري» في كلّ المناسبات الملكيّة، علىٰ حماتها الداهية «كاترين دومديتشي»، التي لم تكن لتغفر لها ذٰلك. وبذٰلك اكتسبت «ماري ستيوارت» وهي لم تتعدَّ السابعة عشرة من عمرها، عداوة امرأتين خطيرتين، سوف تسعَيان لإحباط مشروعاتها وأمانيها، في الوقت الذي منحتها الظروف كلّ شيء.

ولكن ما لبثت أن استفاقت من لذّة أحلامها، فبينما كانت تنغمس في حياة البلاط الفرنسيّ، بأدبه، وفنّه، ورحلات الصيد مع زوجها، وحفلات القصر، كان زوجها يغالب المرض، ويتظاهر بالصحّة والقوة، أمام زوجته المتفجّرة شبابًا، وحيويّة، ونشاطًا. ولم يلبث أن وقع مريضًا، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة بين يديّ زوجته سنة ١٥٦٠م. التي رغم فضائح القصر وأسراره، ظلّت وفيّة وأمينة له. ولأربعين يومًا، بحسب تقاليد البلاط الفرنسيّ، بقيت منزويةً في جناحها، وقد أُسدلت الستائر عليها لتمنع دخول أشعة الشمس، والشموع مشتعلة في غرفة نومها، ليلًا ونهارًا.

بدأت الأحزان تلفّ حياة «ماري»، فقد آلمها جدًا فقدان زوجها، الذي ألفته منذ الطفولة، وشعرت بوحدتها بعده، ولا سيّما أن أمّها قد تُوفيت قبل موت زوجها. وأُضيف إلىٰ وفاة زوجها، فقدانها مكانتها كملكة، إذ اضطرت أن تنحني ثانية لـ«كاترين دومديتشي»، ولم تعد في الواقع شيئًا في البلاط الفرنسيّ. ففكّرت في فترةٍ صغيرة أن تدخل الدير لتقضي بقية حياتها راهبةً فيه، ولكن آمال الشباب التي كان يطفح بها صدرها، كانت قويةً جارفة، تحبّب لها الحياة، وتدفعها

للمقاومة. ويتراءىٰ لها تاجا سكوتلاندة وإنكلترة، فتشدّ عزمها علىٰ أن تنالهما. وقرّرت أن تغادر فرنسة وطنها الثاني رغم محبتها له.

ويبدأ صدام المرأتين «ماري» و«إليزابيت» ولما تغادر ماري فرنسة؛ إذ طلبت جواز سفر من إليزابيت، يسمح لها بالمرور من إنكلترة، لتصل منها إلىٰ بلادها، إلّا أنّ اليزابيت رفضت منحها إياه، إلّا بعد أن تُوقّع علىٰ تنازلها عن عرش إنكلترة. وترفض ماري هٰذا الطلب، وتدعو سفير إنكلترة إليها وتخاطبه بلهجةٍ قاسية، قائلة: «خبّر ملكتك بأنني لست بحاجة لأذنها لأصل إلىٰ بلادي. وأنني أستطيع بكلّ سهولة، أن أعبر المحيط إلىٰ سكوتلاندة، دون أن يعترضني أسطولها. إذ لا تنسَ أنني أتيت لفرنسة، رغم أنّ الأسطول الإنكليزيّ كان مرابطًا في المحيط. وأخبرْها أيضًا، بأنّها هي التي تحاول إساءة العلاقات بيننا». وعندما أجابها السفير بأنّ سبب توتّر العلاقات يرجع إلىٰ وضعها الشعار الإنكليزيّ، ردّت قائلةً: «لقد وضعته تحت تأثير حميّ، ثمّ زوجي، ومنذ وفاة الأخير لم أستعمله... ورغم كلّ شيء، لا يمكنها أبدًا أن تنفي أنّ جدّتي هي أخت أبيها البكر».

وقفت ماري علىٰ المركب الذي سيقلّها إلىٰ وطنها الأول سكوتلاندة. وبدأت الدموع تنهمر من عينيها، إنها تودع الوطن الذي عاشت فيه ما يقرب من إثني عشر عامًا، كانت فيها سعيدةً. لقد وَدّعت حياتها المزهرة لتنتقل إلىٰ حياة الصخب والثورات. وقد وُدعت بحفاوة كبيرة كما اُستُقبلت، ولكن هٰذا الوداع أحزنها، وأقضّ مضجعها. كانت تشعر بالوحدة، علىٰ الرغم من أنّ أخوالها كانوا معها. وتحرك المركب، وأخذ الشاطئ الفرنسيّ يغيب عن بصرها وهي تردّد: «وداعًا يافرنسة. أظنّ أنني لن أراك أبدًا».

في التاسع عشر من شهر آب سنة ١٥٦١م، وصلت «ماري» إلىٰ ميناء «ليث» في سكوتلاندة. وكان ضبابٌ كثيف يغطّي المنطقة، وكان هٰذا نادرًا جدًّا في تلك البلاد في أشهر الصيف. ولم يكن ينتظرها أحد، بل كان هناك فقط صيّادون بثيابهم الخشنة، وبعض البائعين والفلّاحين، الذين أدهشتهم

رؤية هؤلاء الغرباء، بثيابهم الجميلة البرّاقة. وأحسّت ماري، وهي تطأ بقدميها أرض وطنها، بأنّ هٰذه البلاد فقيرةً وبائسة، وأنها بالأيام السبعة التي قضتها للآنتقال من فرنسا إلىٰ بلادها، قد آنتقلت مئة سنةٍ إلىٰ الوراء. ولا بد أن ألمًا كبيرًا كان يحزّ في نفسها للموازنة بين حياتها التي كانت وحياتها التي ستكون. فبعد عرشٍ من أكبر عروش أوربا، وبلادٍ من أزهىٰ البلدان حضارةً، يُؤتىٰ بها لتجلس علىٰ عرشٍ صغير، ولتقود أمةً متنمرة لا تزال تحيا متخلّفةً عن الركب الحضاري. وباتت ماري ليلة وصولها في أحد بيوت التّجار في «ليث»، لأنه لا قصر فيها.

وفي اليوم التالي، أتىٰ أخوها غير الشرعي «جيمس ستيوارت» لآستقبالها، ولآصطحابها إلىٰ «إدنبره»، عاصمة ملكها. ودخلت قصرها، ذٰلك القصر القاتم، الذي لم ترنّ في جنباته ضحكة ما منذ ولادتها. وربّما عادت بذاكرتها إلىٰ قصور باريس الفخمة. ولمّا علم الشعب بقدومها، أخذ يظهر فرحه، بطرقه القديمة: كإشعال النار، والعزف علىٰ الآلات الموسيقيّة السكوتلاندية تحت نوافذ قصر مليكتهم. ولعلّها شعرت ببعض الآرتياح لهٰذه النغمات البسيطة، لأنها تعبّر بعفويّةٍ محبّبة عن عواطف هٰذا الشعب الساذج.

أتت ماري إلىٰ سكوتلاندة وهي تعرف بأنها لن تعيش حياتها التي عاشتها في فرنسا. لقد أتت لتجابه عقبات كثيرة. ولم تكن قد أخذت دروسًا في السياسة، إلّا أنها آستطاعت منذ البدء، أن تجابه بتفهّم أحوال بلادها التي كان يعجز عن مواجهتها رجل سياسة ذو قبضة حديديّة. وبرهنت لـ«نوكس» المبشّر البروتستنتي الكبير في سكوتلاندة، والذي كان قد نشر كتابًا ضدّ المرأة في الحكم، بأنها قويّة وقادرة علىٰ التغلّب علىٰ كثير من المشكلات، وهي التي لما تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها. فأمامها مملكةٌ فقيرة، ونبلاءُ فاسدون، يجدون في كلّ مناسبة سببًا للثورة والحرب. ودين كاثوليكي سائد، وآخر بروتستنتي يتسلّل ويكسب أرضًا وبشرًا، والدينان يتصارعان ليتغلّب واحدٌ علىٰ الآخر، وجارة خطيرة تحيك المؤامرات، وتدس الدسائس للملكة والمملكة.

وقد يكون أهمّ ما واجهته «ماري» هو ٱنتشار حركة الإصلاح الدينيّ البروتستنتي فيها. وترجع أسباب ذٰلك إلىٰ الأسباب نفسها تقريبًا التي ساعدت علىٰ نجاحها في ألمانيا، وأنحاء أخرىٰ من أوربا. ومنها فساد رجال الدين الكاثوليك وجهلهم، وأخذ الأموال من الشعب دون حق، والأوضاع الاقتصادية السيّئة التي كانت تعيش فيها البلاد. فسكوتلاندة كانت تشكو البؤس، والحاجة الملحّة، والفقر المدقع. وقد وجدت عدّة مناشير أُلصقت علىٰ أبواب الكنائس تبيّن ما يعانيه الناس، فقد ورد في بعضها ما يلي: «إنّ المعذّبين، والمشوّهين، والأرامل، واليتامىٰ، وكلّ فقيرٍ لا يستطيع العمل، ولا يجده، يطلبون من القساوسة في هٰذه المملكة، نسيان الماضي المملوء بالأخطاء، وإصلاح الحاضر الأليم. إنّ عددنا لكبير جدًا. ولقد ضيّقتم علينا الخناق بوسائلكم الخاطئة والفاسدة، حتّىٰ إن أحدكم لا يفكّر أبدًا في شقائنا. سنستعين بأعدائنا لنعارضكم. لقد أخذتم منا أراضينا، وبيوتنا، وتركتمونا للموت. فإذا لم تنجحوا في إعطائنا ما نريد، فإنّنا سندخل بعون الله والقدّيسين كنائسكم ونستولي عليها». وكانت الكنيسة تملك نصف أراضي سكوتلاندة تقريبًا، وكان رجال الدين يرفلون في الرخاء والنعيم والترف، ولا همّ لهم سوىٰ تملّك مراعٍ لأنفسهم، ويهملون الشؤون الدينيّة، حتّىٰ إن النبلاء سيطروا علىٰ الوظائفَ الكَنَسيّة، وٱستخدموا أموال الكنيسة لصالحهم.

ويضاف إلىٰ تلك العوامل، العلاقات التجاريّة مع الأراضي المنخفضة ومع إنكلترة، معقلي البروتستنتيّة، التي ٱنتقلت معها أفكار الإصلاح الدينيّ إلىٰ سكوتلاندة، ووجدت فيها تربة صالحةً للنمو والٱنتشار.

ويجب ألّا يُغفل العامل القوميّ الذي كان يدفع بعديدٍ من نبلائها للاتّحاد مع إنكلترة، تخلصًا من تدخُّل فرنسة الدائم بشؤونهم. ومن هٰؤلاء «جيمس ستيوارت» أخو الملكة ماري غير الشرعيّ، الذي كان يعمل مع أنصاره علىٰ الإسراع بٱتّحاد التاجين البريطانيّ والسكوتلانديّ، وأن يكون ذٰلك الاتّحاد علىٰ أساس البروتستنتيّة لا علىٰ أساس دين روما. وقد دعم المبشّرون

بالبروتستنتيّة هٰذا الأتّجاه، للتخلّص أيضًا من سيطرة فرنسة المرتبطة أرتباطًا وثيقًا بالبابا والكاثوليكيّة. وفي الواقع عضد النبلاء حركة الإصلاح الدينيّ، لا حبًّا في الدين نفسه، وإنما ليستولوا علىٰ أملاك الكنيسة، كما فعل أمراء ألمانيا الإقطاعيّون، ويقضوا علىٰ الكنيسة الكاثوليكيّة مما يساعدهم علىٰ مركزة السلطة كلّها في يدهم.

وقد بدأت البروتستنتيّة تجد طريقها إلىٰ سكوتلاندة منذ عهد «جيمس الخامس» والد «ماري ستيوارت»، وأنتشرت بعد وفاته أنتشارًا كبيرًا، للأسباب المشار إليها سابقًا، ولنشاط المبشّرين البروتستان، الذين كانت تدعمهم إنكلترة، وأبرزهم «جون نوكس»، تلميذ «كالفن»، الذي ينظر إليه كمثالٍ لرجل الدين المتعصّب لفكرته، وعقيدته، والمؤمن بأنّ عقيدته هي المسيحيّة الحقّة، فمن لا يطيع إرادته هو أبن الشيطان. وكان لا همّ له إلّا أنتصار عقيدته ومبادئه، ولا عدالة بالنسبة إليه إلّا أنتصار ما كان يراه هو حّقا. وكان يكره فرنسة الكاثوليكيّة كرهًا عنيفًا، ويتلذّذ بتعذيب الكاثوليك الذين يقاومون آراءه.

وقد نجح «نوكس»، والنبلاء المؤيّدون للإنضمام للتاج البريطانيّ، في تثبيت قواعد البروتستنتيّة في سكوتلاندة، قبل مجيء ماري ستيوارت إليها، ووضعوا تشريعًا للكنيسة الجديدة «البريسبيتيريانيّة» تحت أسم «كتاب النظام». ويُعدّ أهم الوثائق في تاريخ سكوتلاندة. وهو نوع من «جمهورية أفلاطون» التي تعيش فيها الأمّة سعيدةً علىٰ الأرض، مع تهيئة نفسها لحياة السماء. وهٰذا الكتاب لا يبيّن فحسب العقيدة، بل يضع نظامًا للكنيسة، ونظامًا للتربية القوميّة، ويبين علاقة الكنيسة بالدولة، ويطالب بالعمل لكلٍّ من الغنيّ والفقير، كلٌّ بحسب مواهبه وقدراته. ويُنظر إلىٰ هٰذا الكتاب، بأنه من أكبر مكوّنات الشعور القوميّ في سكوتلاندة. وطالبت الكنيسة الجديدة بأملاك الكنيسة القديمة، إلّا أنها أصطدمت برجال الدين القدماء وببعض النبلاء، الذين كانوا قد أستولوا علىٰ جزءٍ من تلك الأملاك. ومن ثمّ فإنّ الكتاب لم يلق موافقةً إجماعية.

والآن ما موقف «ماري ستيوارت» من الدين الجديد ومما حدث؟ لقد تربّت ماري علىٰ الكاثوليكيّة في البلاط الفرنسي، وتشبّعت بآراء أخوالها «آل غيز»، وعندما عادت وعدتهم بمحو البروتستنتيّة من بلادها، وكذٰلك كان وعدها للبابا. ولكنها شعرت بعد وصولها، وهجوم البروتستان علىٰ قصرها، عندما أقامت الصلاة فيه علىٰ النمط الكاثوليكيّ، بأنه من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، أن تُنفّذ وعودها. ووجدت أنّ المستشارين الذين فُرضوا عليها هم من البروتستان، وفي مقدّمتهم أخوها «جيمس ستيوارت»، الذي سيبقىٰ وفيًا لها طالما هو الذي يسيطر علىٰ الحكم ويخدم مصالحه، وعندما تحاول أن تحكم هي، يختفي من عالم السياسة ليدبّر لها المؤامرات. أمّا الشخص الآخر الذي ٱستلم قيادة المملكة إلىٰ جانبها فهو «ميتلاند دو ليثينغتون» الذي كانت تدعوه إليزابيت «زهرة العقول». وكان يخدم ماري طالما هي ناجحة، ولكنه يتركها عندما يبدأ نجمها بالأفول. وقد ٱضطرت ماري أن تعتمد علىٰ هٰؤلاء، ريثما تجد من يساعدها في مهامها.

ولقد ٱصطدمت «ماري ستيوارت» مع «نوكس»، ولمّا تمض مدةٌ طويلة علىٰ وصولها، ودعته لمقابلتها. وجرىٰ حوارٌ حادٌّ بين الطرفين، وكانت تجيبه وتُحاجّه بقوة، وثبات، وجرأة. ولم يستطع أن يثنيها عن عقيدتها، كما لم تستطع هي بكلّ سحرها وجمالها، ومنطقها، أن تثنيه عن آرائه ومبادئه. وقد قال لها كلمته الصريحة التي يحبّذ فيها الثورة عليها، عندما سألته: «هل يحقّ للرعية أن تثور علىٰ أمرائها؟» فأجابها: «إذا الأمراء ضيّقوا الخناق عليها».

وقال «نوكس» الشديد المراس، عندما خرج من مقابلتها للمرة الثانية: «لقد ٱصطدمت في هٰذه المناقشة بإرادة لم أر مثلها في هٰذا العصر. ولم يعد لديّ ما أعمله في هٰذا البلاط، وليس لديه ما يفعله معي».

وفي الحقيقة، لم تصطدم «ماري ستيوارت» بنوكس، والإصلاح البروتستنتيّ في بلادها وحدهما، وإنما بالقوىٰ الأجنبيّة الأوربيّة الكثيرة التي كانت تعمل مع هٰذا الإصلاح أو ضدّه، لغايات سياسيّة أكثر منها دينيّة. ففرنسة لها مصالحها كما

رأينا، وكان هناك عرضٌ علىٰ «ماري» أن تتزوج من «شارل» أخي زوجها المتوفّىٰ، إلّا أن حماتها «كاترين دومديتشي» أحبطت المشروع. وملك إسبانيا «فيليب الثاني» رأىٰ في «ماري»، فيما إذا توصّلت إلىٰ عرش إنكلترة، وتزوّجت من ٱبنه «دون كارلوس»، وسيلةً هامّة لمحو الهرطقة البروتستنتيّة من العالم المسيحيّ، ولتقوية نفوذ إسبانيا الدينيّ والسياسيّ في العالم الأوربيّ كلّه. وكذٰلك كان للبابا آماله العريضة في إحلال «ماري» علىٰ عرش إنكلترة محل إليزابيت، إذ يعود للكنيسة الكاثوليكيّة هيمنتها علىٰ الجزر البريطانيّة. وهٰكذا كان كلّ ما حول «ماري» يدفع إلىٰ ذٰلك الصراع مع خصمها الملكة اليزابيت.

ولكن الملكتين كانتا تحتضنان أحقادهما، وتتظاهران بالصداقة الوهميّة، أو بالأحرىٰ لم تفكر إحداهما لكثرة مشاغلها الداخليّة أن تُفسد صفو هٰذه المودّة الكاذبة، طالما أنّ القوىٰ متوازنة. لقد تشابهت الملكتان كثيرًا بذكائهما، وطموحهما، وثقافتهما، ولكنهما تناقضتا في أمورٍ عديدة أخرىٰ: فماري وُلدت والتاج علىٰ رأسها، أمّا إليزابيت فلم تتوصّل إليه إلّا بعد لأيٍ، وها هو لا يزال يتأرجح علىٰ رأسها. لقد أُعطيت ماري كلّ شيء في طفولتها، ولم تعاكسها الظروف إلّا نادرًا، وقد أثّر هٰذا في شخصيّتها، فنشأت قوية الثقة بنفسها، مطمئنّة علىٰ عرشها، قوية الإرادة، سريعة التصميم. وعنها قال البابا بأنها «جسم ٱمرأة بروح رجل». أمّا إليزابيت فقد وُلدت وهي موصومة بعدم الشرعيّة، وقاست كثيرًا في طفولتها وشبابها، إذ سجنتها أختها «ماري تيئودور» في «برج لندن»، ورأت كيف ينتقل الفرد من العرش إلىٰ السجن، فخافت علىٰ تاجها وصولجانها، ونشأ من خوفها تردّدها وحيرتها. لقد قُدّر لإحداهما الزواج من ملك ولم تستطعه الأخرىٰ. لقد أُعطيت ماري الجمال كله، ولم تمنح إليزابيت إلّا أطياف منه. وكان لهٰذا التضاد في تكوين شخصيّتيهما الأثر الكبير في حياتيهما وحياة شعبيهما: فنشأت ماري أنانيّة لا يهمها إلّا نفسها، تريد المُلك لتكون ملكةً مسيطرة وحسب، أمّا إليزابيت فحصرت هواها في شعبها، ونهضت به ٱقتصاديًا وسياسيًا، وشجّعت الأدب والفنّ، وأخذت بالدين الجديد.

ولم تجرّب أن تعود بدولاب التاريخ إلىٰ الوراء بل سارت مع حركته نحو الأمام. وبذلك كانت سياسيّة واقعيّة، أو كما قيل عنها جسم اَمرأة بروح نمرة. بينما تمسكت منافستها بالقديم، فجرفها بتياره.

وفي الحقيقة كان لا بد للصراع أن يتفجّر وكان ذٰلك عندما قررت «ماري ستيوارت» أن تتزوّج اَبن «اللورد لونوكس» وهو «هنري دارنله»، وهو أقرب النبلاء إلىٰ العرش السكوتلانديّ من بعدها، ويمتّ بصلة النسب إلىٰ جدتها «مارغريت تيودور». ولقد وجدت فيه الزوج المنشود، فهو من مذهبها، وينتسب إلىٰ الأسرة الملكيّة، وبهٰذا يقوّي حقّها في المطالبة بعرش إنكلترة، وفي الوقت ذاته يقف حاجزًا في وجه مطامع النبلاء. وكان في التاسعة عشرة من عمره، جميلًا، متناسق الجسم، أشقر الشعر، وحريصًا علىٰ حقوقه الملكية. وردت له «ماري» أملاكه التي كانت قد أُخذت من أبيه سابقًا لقيامه بثورةٍ منذ عشرين عامًا، ووقعت في حبّه، وتمّ الزواج سنة ١٥٦٤م.

كان زواج «ماري ستيوارت» من «هنري دارنله» أهمّ عملٍ سياسيّ قامت به، إذ خافتها إليزابيت أكثر فأكثر، وحقدت عليها، علىٰ الرغم من أنها هنأتها بكلمات معسولة. وصادف توقيت هٰذا الزواج مع ظهور حركة «الإصلاح الكاثوليكيّ المضادة» في أوربا، فبدت ماري ستيوارت وزوجها اللورد الكاثوليكي وكأنهما قادة صليبيةٍ ضد الهرطقة البروتستنتيّة في الجزيرة الإنكليزيّة. وكان أول عمل قامت به ماري هو نفي النبلاء البروتستان الذين عارضوا زواجها، وكان أخوها «جيمس ستيوارت، اللورد موره» منهم. ففرّ من البلاد وعرض خدماته علىٰ إليزابيت، فكلّفته هٰذه الأخيرة بإشعال ثورة في سكوتلاندة لخلع ماري ستيوارت، بل وقتلها إذا أمكن. وكان في أعماقه يطمع بالعرشين السكوتلاندي والإنكليزيّ، ولذا رأىٰ الفرصة سانحةً أمامه لإبعاد أخته أولًا عن العرش، ثم يعمل علىٰ خلع الثانية.

وساعدت تصرفات ماري وسلوكها،إليزابيت وموره علىٰ تحقيق ما يريدان. فبعد أن أحبت زوجها، ومنحته كلّ ثقتها، أراد أن يقبض علىٰ السلطة، وأن يكون

هو المتحكّم بالأمور. وفي الوقت ذاته تبيّنت لها عيوبه الخلقيّة، ولا سيّما إدمانه على الخمرة. فبدلًا من أن يساعدها في إصلاح الشؤون السياسيّة، زادها تعقيدًا. وبدلَ أن يؤدّب المتآمرين على زوجته والعرش، فإنه شجعهم وساعدهم. إذ أستغله النبلاء الناقمون على حكم الملكة وسياستها الكاثوليكيّة، أو بالأحرى على سياسة مستشارها الإيطالي «ريكشيو Riccio». ففي ليلةٍ من ليالي لهو «دارنله» معهم في حانةٍ من الحانات، جعلوه يوقّع لهم معاهدة، من بنودها: قتل «ريكشيو»، ثم إعلان «دارنله» مِلكًا على البلاد، وإعادة النبلاء البروتستان المنفيّين، وإعادة الدين البروتستنتيّ إلى ما كان عليه. ووقّع «دارنله» هذه المعاهدة تحت تأثير الخمرة، وتأثير غيرته من مستشار الملكة. وريكشيو هذا، أتى إلى سكوتلاندة مع سفير إحدى الدويلات الإيطالية، وكان موسيقيًا بارعًا. فقربته ماري التي تعشق الفنّ إليها، وأتخذته مستشارًا. وساعدها كثيراً في زواجها من «دارنله». ولكنها لما رأت زوجها ينصرف عنها إلى لهوه وحفلات صيده، أخذت تقضي معظم الوقت مع مستشارها. وأغضب ذلك النبلاء البروتستان، الذين وجدوا في «ريكشيو» مفوضًا للبابا وجاسوسًا على أعمالهم، وأخذوا يفسرون أجتماعاته مع الملكة، بأن الإثنين يعدان المشروعات لإعادة الدين الكاثوليكيّ. وأستغلّوا هذه الخلوات لإثارة غيرة الزوج، وإشراكه في مؤامراتهم. ونجحوا بقيادة الزوج في قتل ريكشيو، وسجن الملكة. إلّا أن الزوج عندما علم بما يدبره أخوها «موره» ضدّها، ثارت نخوته، وعاد مع أتباعها الكاثوليك لإنقاذها، وإعادتها إلى عاصمتها «إدنبره»، وعمل لإقناعها على براءته من المؤامرة التي دُبرت ضدّها وضد «ريكشيو».

كانت علاقة «ماري ستيوارت» بمستشارها ذات أثر كبير عليها، إذ شوّهت سمعتها، وأُشيع أن الطفل الذي ستضعه بعد ثلاثة أشهر من مقتله، هو أبنه. وعلى الرغم من نفيها أن علاقتها بريكشيو كانت علاقةً مشبوهة، ومع أن تلك الإشاعة تنقصها الإثباتات، فإنها ظلت عالقةً بأبنها حتّى بعد أن أصبح ملكًا لإنكلترة: فكان ملك فرنسا «هنري الرابع» يقول: «كان يجب أن يسمّى سليمان لا جيمس، لأن ريكشيو كان يدعى داود».

ولكن مع كلّ ما حدث وقيل، فإن الشعب السكوتلاندي أظهر فرحةً حقيقيّة عندما وضعت ماري أبنها. إلّا أنه قوبل بجفاء وبرود في إنكلترة، ومن إليزابيت بالذات. إذ نُسب إليها أنها قالت: «ترزق ملكة سكوتلاندة ولدًا جميلًا، وأنا أبقىٰ جذعًا عاقرًا؟!». ولكن بكلّ الحنكة السياسيّة، وضبط النفس، وعدت أن تكون إشبينته.

ولم تتحسّن علاقات ماري وزوجها بميلاد الطفل، إذ تأكدت الملكة من التآمر السابق لزوجها، بعد أن أطّلعت علىٰ وثيقة التآمر، وأنغمس هو أكثر فأكثر في حياة اللهو والخمر، وأخذ يذيع أن الملكة تدبّر لقتله. فغادر العاصمة إلىٰ «غلاسقو» حيث يقيم والده.

وفي الحقيقة أخذ يبزغ في حياة «ماري ستيوارت» نجمٌ جديد. ففي سنة ١٥٦٦، يثور سكان الحدود الجنوبية في سكوتلاندة، وبتحريض من إنكلترة، ويتصدّىٰ لهم، ويخضعهم الرجل السكوتلاندي المحارب «جيمس هيبورن اللورد بوذويل». كان نبيلًا إقطاعيًا كبيرًا، ويمثّل الرجل السكوتلاندي بقسوته وعنفه، وخشونته. وكان أقبح أهل المملكة، إلّا أنه أشتهر بولائه للعرش، فخدم «ماري دولورين» والدة ماري خدمات جلّىٰ. وعندما أستلم الحكم «موره» بعد وفاة الملكة، نفاه وحرمه من أملاكه وعاش أثناء نفيه في فرنسة، وأصبح رئيسًا للحرس السكوتلاندي فيها. وهذّبته إقامته في فرنسه وثقّفته قليلًا. ولمّا تخلّصت «ماري ستيوارت» من حكم أخيها، أعادته إلىٰ بلاده، وأعادت إليه أملاكه. وأظهرت إعجابها بشجاعته، عندما نجح في قمع ثورة الجنوب، فأخذت تقرّبه إليها، وغدا مستشارها، ورفيقها في غدواتها وروحاتها..

ويطلب أخوها «موره» منها، ومستشارها السابق «ميتلاند»، التخلّص من زوجها «دارنله»، الذي غدا عبئًا ثقيلًا عليها وعلىٰ المملكة، وربما كانا يفكران في تزويجها من بروتستنتيّ. ولكن «ماري» ترفض طلبهما. وعندما يصاب زوجها بالجدري بعد حفل تعميد أبنهما، تذهب ماري لعيادته، وتنقله إلىٰ «إدنبره»،

وتُسكنه في منزلٍ قريب منها لتعتني به. وفي صباح الأحد التاسع من شباط ١٥٦٧ يستفيق الناس على صوت انفجار مروّع، وإذا بالمنزل الذي يقيم فيه «دارنله» قد دُمّر، وجثته مرميّةٌ بعيدًا في الحديقة.

من كان وراء الحادث؟ هل كان «موره» و«ميتلاند» اللذان عرضا على الملكة قتل زوجها؟ هل كان «بوذيل» الذي أجمع الكلّ على أنه المجرم؟ أم كانت «ماري» نفسها بالاشتراك معه؟ يختلف المؤرّخون اختلافًا بيّنًا حول الأمر، فمنهم من يبرئ «ماري» تمامًا من تهمة القتل، ومنهم من يشركها مع «بوذويل»، ومنهم من يرى أنها هي التي حاكت المؤامرة ونفّذها «بوذويل». إذ أنّ «ماري» قد أحبت هذا الأخير لقوّته، وإخلاصه لها وللتاج، ولذلك بدفع منه ومن عاطفتها الجديدة، قد تكون انساقت في هذه المؤامرة، ولا سيّما أن «بوذويل» وعدها بتطليق زوجه بحسب الطقوس البروتستنتيّة. ويستدل الذين يتّهمون ماري بارتكابها هذه الجريمة، بزواجها السريع من «بوذويل» بعد مقتل زوجها، وعدم محاولتها البحث عن قتلة زوجها، وعدم إظهار الحزن العميق على فقده.

إن هذه الحادثة جعلت أوربا كلّها تنظر إليها بازدراء، ولكنها لم تكترث بذلك. وقامت تجابه الأحداث بقوّة وعنف. فبعد زواجها من «بوذويل» البروتستنتيّ، الذي حُوكم ثلاث مرات بتهمة قتل زوجها دارنله وبرئ، لم تعد تنتظر العون من البابا وإسبانيا، لأنها غدت مهرطقةً مثل زوجها، زوجها الذي ذهب إلى المحاكمة مع أربعة آلاف رجل مسلح، فأخافَ بهم القضاة، ونطقوا بحكم براءته الكاملة من قتل الملك، والذي تجول على فرسه في الطرقات، وقد أشهر سيفه، متحديًا أي إنسان في المدينة، بل في العالم، يتهمه مثل هذا الاتّهام. هذا الزوج القوي، بحسب ظنها، سيكتسح كلّ شيء أمامه، ويحقق لها أمانيها.

ولكن خاب ظنّها مرةً أخرى؛ فعندما قامت الثورة في سكوتلاندة، بتحريض إنكلترة، مطالبة ظاهرًا بدم الملك المقتول، وبإنقاذ الملكة من براثن «بوذويل»، وإعادة سلطتها إليها، وهَبّت الملكة مع زوجها لمحاربة الثوار، رأت نفسها منهزمة في معركة «كاريري هيل»؛ وعرض عليها الثوار حمايتهم، على أن يغادر «بوذويل»

سكوتلاندة. وتقبل ماري الحل، ويهرب بوذويل إلىٰ النرويج أولًا، فالدانيمارك حيث أغرى فتاة دانيماركية. ثم وقع في أيدي سلطات كوبنهاغن، وبعد عشر سنوات من سجن انفرادي توفي مجنونًا.

وقرر النبلاء الثائرون سجن الملكة في قصر «لوكليفن Lochleven»، وأجبروها علىٰ توقيع ثلاثة قرارات:

١ـ تتنازل عن العرش لابنها البالغ من العمر سنةً واحدة. ٢ـ تعيين أخيها «موره»، وصيًا عليه. ٣ـ تعيين مجلس مؤلف من «مورتون» رئيس الثوار ومن بقية رؤساء الحركة، ليحكم البلاد حتىٰ وصول «موره»، أو في حالة رفضه الوصاية. وهٰكذا حقق «موره» جزءًا من مخططه للوصول إلىٰ العرش، بعد أن خاض بركًا من الدماء، إلّا أنه لم يلبث هو الآخر أن لاقىٰ موتًا عنيفًا.

وهٰكذا خلت الساحة للمرأتين «ماري» و«إليزابيت». ولقد أظهرت الثانية للأولىٰ في بادئ الأمر تعاطفها معها، بل أرسلت لها خاتمها الملكيّ «رمزاً للصداقة من ملكة سعيدة إلىٰ ملكة أخت وهي في ضيق». ولم تنطل تلك العواطف علىٰ «ماري»، وقرّرت أن تفرّ من سجنها، وبالفعل فعلت، وعادت إلىٰ تكوين الجيوش، إلّا أنها هزمت سنة ١٥٦٧. وهنا تفكر «ماري» باللجوء إلىٰ إنكلترة، ولا سيّما بعد أن قرأت المنشور الذي صدر باسم ابنها الملك الطفل، الذي يقول فيه بعد هزيمتها العسكرية، «لقد أنقذنا الله بنصرنا هٰذا، لأنه كان مشفقًا حقًا أن يرىٰ دم سكوتلاندة يسيل من أجل امرأة استعملت سلطتها لقتل أبينا».

لقد كانت إليزابيت قد دعتها إليها، ووعدتها بأنها ستجد فيها «جارة محبة، وأختًا عزيزة، وصديقة مخلصة». إلّا أنها كانت قد قررت أن تلعب معها لعبة القط والفأر. كانت تتلذّذ وهي تنتقم منها بجرعاتٍ صغيرة، وتبتسم بتشفٍ لآلام ضحيتها. كانت اليزابيت الابنة الداهية الخبيثة لأبٍ داهٍ خبيث، قتل عددًا من زوجاته، فالمفهومات الإنسانية كانت بعيدة عنها.

ووصلت «ماري ستيوارت» إلىٰ إنكلترة في ١٦ أيار ١٥٦٨ بعد عقبات

عديدة، فقد قالت: «لقد تحملت الإهانات، والمسبّات، والأسر، والجوع، والبرد، والحر، والفرار دون معرفة بالهدف، والسير إثنين وتسعين ميلاً دون توقّف، والتمدد علىٰ الأرض العارية القاسية، لا طعام سوىٰ بعض حليب، وشوفان، ودون خبز، ومبيت ثلاث ليالٍ مع الخفافيش والبوم». وتلقتها الملكة لا كضيفة لها وإنما كأسيرة. ورفضت أن تقابلها، إلّا أنها وفّرت لها الإقامة في القصور، بحجّة حمايتها من كلّ أذىٰ. ولتسعة عشر عامًا أبقت اليزابيت غريمتها في إقامة جبرية، تنقلها من قلعة إلىٰ قلعة. ولم يعدم العالم الكاثوليكيّ الأوربي وسائل الاحتجاج علىٰ ذٰلك، ولكنها لم تثمر.

وقررت إليزابيت أخيرًا أن تنهي اللعبة، وهنا دبّرت خطّة جهنميّة مكيافيليّة. لقد دبّرت مؤامرة قتل ضد نفسها، وأدخلت ماري بطريقٍ غير مباشر، لتصبح رأس هٰذه المؤامرة. وعندما وصل إلىٰ سمع «ماري» أن هناك مخططًا لقتل إليزابيت، وإيصالها هي إلىٰ عرش إنكلترة، وقعت في المصيدة، ووافقت علىٰ الاشتراك بها. وكانت رسائلها كلها المبعوثة إلىٰ المتآمرين، تصل مباشرة إلىٰ إليزابيت. وفي تلك الرسائل، طرحت المؤامرة كلها وتفاصيلها، وبيّنت أنها بمجرد فرارها من سجنها، فإنها ستعود إلىٰ سكوتلاندة، وتجمع قواها، وتجتاح إنكلترة بمساعدة قوىٰ يرسلها ملك إسبانيا «فيليب الثاني»، وستكافئ الملك بتاج سكوتلاندة، وبحقّ الوصول إلىٰ عرش إنكلترة بعدها. وأُخذت تلك الرسائل دليلًا قاطعًا ضدّها. وتمكّنت إليزابيت بوسائلها المختلفة أن تحصل علىٰ موافقتها الخطية بقتل «إليزابيت المدعية عرش إنكلترة»، والتي كانت هي الحكم الفصل في قرار إعدامها.

وكانت ماري قد تجاوزت الأربعين من عمرها، وأتعبها النضال، وحطّ من قواها. ومع ذٰلك فقد وقفت أثناء المحاكمة، رابطة الجأش، وتقبّلت بشجاعة غريبة حكم الإعدام الذي صدر ضدّها في الفاتح من شباط ١٥٨٧. وترددت إليزابيث في التوقيع علىٰ الحكم، لأن فرنسة، وإسبانية، والبابا، أرسلوا السفراء إليها يهدّدون ويتوعّدون بقطع علاقاتهم السياسيّة معها، وحتّىٰ ابنها

«جيمس السادس» بعث سفيرًا لهٰذا الغرض، إلّا أن هٰذا الأخير لم يوصل ٱحتجاجه. وأخيرًا أخذت «إليزابيت» بنصيحة مستشاريها الذين قالوا لها: «إنّ الأموات لا يَعَضّون»، فوقّعت الحكم. وبعد يومين، وفي الثامن من شهر شباط ١٥٨٧ ، نُفِّذ حكم الإعدام، بعد أن ٱرتدت «ماري» أجمل ملابسها، وصعدت المقصلة بخطواتٍ ملكيّة، وأدّت صلاتها، ومنحت عفوها للجميع، وقدّمت رأسها الجميل للجلّاد. ولم تقضِ من الضربة الأولىٰ، وإنما من الضربة الثانية. ولقد صحّت نبوءتها التي طرّزتها يداها علىٰ قطعةٍ من القماش، وقالت فيها: «في نهايتي بدايتي»، إذ خلّدها التاريخ، وجهًا من أبرز وجوهه، المناضلة من أجل العرش والسلطة. وقد خلّدها الأدب أيضًا، فكانت محورًا لعدد من الروايات والمسرحيات، أشهرها التي كتبها الشاعر الألماني «شيلر»، ووصف فيها حياتها خلال التسعة عشر عامًا التي قضتها في إنكلترة، وٱنتهت بإعدامها.

نساء أعلام في إصلاح المجتمع

- المرأة ذات المصباح : فلورنس نايتينغل
  Florence Nightingale
- بطلة كفاح : كاترين برشكوفسكي
  Katherine Breshkoweski
- امرأة وعطاء : فرانسيس فيلار
  Francis Willard
- نابليون الحركة النسائية : سوزان أنطوني
  Susan Antony
- فيلسوفة سلام : جين آدامز
  Jane Adams
- صورة من الحركية الإنسانية الخيّرة : إيفانجلين بوث
  Evangeline Booth

المرأة ذات المصباح

فلورنس نايتينغل

كانت فردًا من أولئك الأفراد الذين ٱستطاعوا أن يتمثّلوا في نفوسهم التيارات الروحيّة التي تسري خفْيةً في أعماق حضارتهم، وأن يتجسدوا القيم الإنسانيّة المبدعة، الكامنة في روح عصرهم الماديّ وبيئتهم.

ففي مثل هٰذا العام (١٩٥٢) من القرن الذي مضىٰ، كانت تجوب الجوّ الأوربيّ سحاباتٌ تنذر بحربٍ طاحنة بين شرقيّ أوربّا، ممثّلًا بروسيا، وغربها ممثّلًا بإنكلترة وفرنسا وسردينيا، وإلىٰ جانبها الدولة العثمانيّة. ولم تلبث تلك الغيوم أن ٱنقشعت، بعد عامين، عن الحرب التي عُرفت في تاريخ القرن التاسع عشر بـ«حرب القرم». وكانت حربًا أقضّت مضاجع الغرب لأنها كانت حربًا، قاسىٰ فيها جنود الطرفين في ميدان القتال، آلام الجوع، وفتك المرض، وتدمير الآلة، وفوضىٰ الحياة، وعنف البشر. وفي وسط ذٰلك الجوّ الحربيّ المظلم، الذي كانت تطوف في جنباته، أرواح القتلىٰ، وأنّات الجرحىٰ، وتأوّهات المرضىٰ، وتُزكم الأنوف بروائح الدم، والجروح المتقيّحة، برزت «فلورنس نايتينغل»، «المرأة ذات المصباح» كما أسماها «الجنود»، مع ثمانٍ وثلاثين ممرضة، في مستشفىٰ «سكوتاري» في الجبهة، تصارع الموتين، الجسميّ والنفسيّ، اللذين كانا يأتكلان أجسام الجنود وأرواحهم، وتناضل من أجل الذّبّ عن شخصية الجنديّ وكرامته وحقوقه، والتخفيف من آلامه الحقيقيّة الواقعيّة، وتثبيت المفهومات الإنسانيّة التي شرعت تضيع وسط ٱنتصار

الحضارة الماديّة. فبدل أن تتغنّىٰ ببطولات هٰؤلاء الجنود في المعارك التي خاضوها، كما فعل الشاعر الإنكليزيّ «تنيسون» عن بعد، فإنها دخلت ميدان القتال نفسه، ووقفت إلىٰ جانب أولٰئك الجنود وهم يعانون تدمير آلة الحضارة الماديّة، متحديّةً كلّ الصعاب، والويلات.

ولدت «فلورنس نايتينغل» في فلورنسة في إيطاليا سنة ١٨٢٠، ومن هنا جاء ٱسمها الأوّل، مع أنها إنكليزيّة الجنسيّة. وعندما أعلنت «فلورنس نايتينغل» لوالديها أنها ترغب في أن تكون ممرّضة، صُعقا لهول النبأ. فكيف وهي الفتاة التي تنحدر من أسرةٍ غنيّة أرستقراطيّة من كُبريات عائلات إنكلترة، تحترف هٰذه المهنة الوضيعة، التي كان المجتمع الإنكليزي ينظر إليها شذرًا؟ إذ أنها كانت مهنة طبقةٍ من النساء المومسات السكّيرات، اللائي أُعطي لهنّ الخيار، إما في دخول السجن، أو الخدمة ممرضاتٍ في المستشفىٰ. فلا عجب إذًا أن يقع الخبر عليهما وقع الصاعقة، فهما لم يُعِدّاها لعملٍ كهٰذا. فوالدها هو «وليام شور نايتينغل»، صاحب «بارك الامبله» في «هامشاير»، وكان يحلُم أن تكون ٱبنته سيدة مجتمعٍ أرستقراطيّةً كوالدتها،إذ كانت أجمل أخواتها وأكملهنّ. وقد زوّدها بتربيةٍ تليقُ بالأميرات، فعلّمها الرياضيّات العالية، والموسيقىٰ، والفنون بأنواعها، والآداب، والعلوم. وكانت تتكلّم اللغات الإيطاليّة، والفرنسيّة، والألمانيّة بطلاقة كما تتكلّم لغتها الإنكليزيّة. وكانت ضليعةً باللغات القديمة، اليونانيّة واللاتينيّة، حتّىٰ تحدّت بقدرتها هٰذه الجغرافيَّ المشهور «سير هنري دولابيش La Beche» وأفحمته. وكانت تجمع إلىٰ تلك الثقافة الواسعة، والذكاء اللمّاح، سحرًا وجاذبيّة. وقد ساحت في جميع أنحاء أوربّا، وزارت مصر سنة ١٨٤٩ـ١٨٥٠ ووصلت إلىٰ أعالي النيل، وٱختلطت بجميع الطبقات العليا والدنيا، وخاضت مع أفرادها مختلف الموضوعات، وحضرت ٱستقبالات الملكة. وكان تحت قدميها، وهي في سن الثامنة عشرة من عمرها، نخبةٌ من شباب إنكلترة يطمعون في يدها. ولكنّ هٰذه الحياة الأرستقراطيّة لم تستهوها، بل مجّتْها، فكلّ ما فيها زيفٌ وتملّق. أرادت أن تخرج من هٰذا التصنّع المذوّق، وهٰذه المظاهر

المطليّة بطلاء المداهنة، والتي تُشوّه الحياة وتفسدها. أرادت أن تلمس الحياة الأصيلة العميقة، التي تكمن مهملة في نفوس الأفراد، وأن تتغلغل في أعماق الناس لتعرفهم علىٰ حقيقتهم في أوضاعهم الطبيعيّة، وأن تعيش معهم في أوقات آلامهم. فعندما كان يطلب منها والدها أن تقرأ له في كتاب «مقاطع من حياة ٱبنة في البيت»، وهو كتاب من العصر الفيكتوريّ، يبيّن سلوك الفتاة في المجتمع الأرستقراطيّ، فإنها كانت تفضّل عليه، أن تقرأ ولنفسها «التقرير السنويّ لمؤسسة فليدنر Fliedner».

وهٰذه المؤسسة، كانت مدرسة ألمانيّة لتعليم التمريض والتدريب عليه. ويبدو أن «فلورنس» قد وُلدت وفي نفسها ميلٌ عميق لهٰذه الخدمة الإنسانيّة. ففي طفولتها كانت تلفّ الأربطة علىٰ الجراح الوهميّة للعبها، وتعمل علىٰ تنظيف جراح الحيوانات الصغيرة الأليفة في «إمبله Embley». وفي سن السادسة كانت تشعر ـ كما كتبت في مذكراتها ـ بنداءٍ ينبثق من أعماق روحها، يدفعها نحو رسالة الرحمة والتعاطف مع آلام الإنسانيّة وتخفيفها، وكلما شبّت، كانت تغدو أكثر شعورًا بتلك الشعلة التي تتأجّج في أعماقها، والتي تقف الظروف الآجتماعيّة في وجه تحقيقها. وفي سن الثامنة عشرة، قالت لصديقٍ لها وهي تقف أمام أحد غرف «إمبله»: «هل تعرف بما أفكّر وأنا أنظر إلىٰ هٰذا الصف من النوافذ؟ أفكر كيف يمكن أن أحوّل هٰذه الغرفة إلىٰ مستشفىٰ، وكيف سأرتب الأسرّة فيها».

وفي سن العشرين فكّرت في حياة الآستقرار العائليّ والزواج، ولكنها لم تلبث أن صرفت النظر عنها. فهي لم تُخلق لهٰذه الحياة؛ فالزواج ـ كما كتبت في مذكراتها ـ قد يرضي «طبيعتها الفكريّة» و«طبيعتها العاطفيّة» ولكن لا يرضي «طبيعتها الأخلاقيّة». وقد أضافت في مذكراتها سنة ١٨٥٠: «لقد بلغت الآن الثلاثين من العمر، تلك السن التي ٱبتدأ فيها المسيح بالتبشير برسالته... فلا أشياء طفوليّة بعد الآن، ولا أشياء تافهة، ولا حبٌّ أرضيّ ولا زواج».. لقد شعرت «فلورنس» في هٰذه السن، بأنّ عليها أن تتّبع خطوات المسيح في إنقاذ

الإنسانيّة من براثن العذاب. فوقفت أمام أمّها وأبيها، وقالت بجرأةٍ: «أبي وأمّي، سأكون ممرّضة». وأتهمها أهلها بخَبل العقل، فأجابتهم: «ربما أكون كما تقولان، ولكنني أحمد الله علىٰ هٰذا الأختلال العقليّ».

وكانت «فلورنس» تختلس من ساعات نشاطها الآجتماعيّ بضع ساعاتٍ، لتدرس فيها التشريح، وتزور مستشفىٰ المنطقة التي تعيش فيها. وقامت برحلةٍ إلىٰ ألمانيا، وقضت أسبوعين في «مدرسة تمريض فليدنر». ولقد خشي «هرفليدنر» أولًا علىٰ يديها الأرستقراطيّتين الناعمتين، فأعفاها من مسح دهليز المستشفىٰ، إلّا أنها أثبتت له بأنّ لها قلبًا ديموقراطيًّا، وأنها خُلقت فعلًا لهٰذه المهنة. وعُيّنت مشرفةً علىٰ «مصحّة طريق هارله» للنساء الأرستقراطيّات المريضات، وأظهرت بأنها لا تقوم بمسح الأرض فحسب، وإنما تضمّد الجراح، وما هو أهمّ من ذٰلك: تبعث الأمل. وعندما رفضت الجمعيّة المشرفة علىٰ المصحّة، أن تسمح بإدخال المريضات من الكاثوليك، أصرت أنْ تفتح المصحّة لكلّ المذاهب والأديان، ونجحت.

وقد قامت وهي في المصحّة بأعمالٍ جبارة بصفتها أول آمرأة تدير مستشفىٰ: فقد كانت تراقب الممرّضات اللاتي لم يتعوّدن الآنضباط، والنظام، والعمل الجِدّيّ، وتُوجّههنّ. ولم تكن تتورّع عن القيام بأيّ عمل فيه تحقيق لمثُلها العليا: فقد أُصيبت بكسرٍ في عمودها الفقري لحملها مريضًا إلىٰ منضدة العمليّات، وتحرّقت يداها وذراعاها لأنّها تلقّت أنبوبًا ضخمًا متلظّيًا كاد يقع علىٰ طفلٍ مريض، وسهرت الليالي الطوال إلىٰ جانب نساء مصاباتٍ بأمراض عصبيّة وعقليّة. وكان عليها، إلىٰ جانب ذٰلك، أن تدافع عن نفسها، تجاه عواطف الغَيْرة، وكلمات الآستهزاء، التي كان زملاؤها الرجال الأطبّاء يقذفونها بها. ورغم عدم تجربتها السابقة، فإنها خرجت من معمعة الحياة هٰذه، قويّةً منتصرة، حتّىٰ قالت عنها الروائيّة الإنكليزيّة، «مسز غاسكل»: «يبدو أنها سيدةٌ موجّهة تمامًا من الله، كما كانت جان دارك».

نعم، لقد كانت مدفوعةً بقوىٰ روحانيّة، لتأدية رسالةٍ إنسانيّة. وكانت

التقارير عن «حرب القرم» تصل إلىٰ إنكلترة تباعًا، وهي تصف الشروط القاسية في مستشفيات الجبهة. فأولٰئك الذين أُرسلوا للعناية بالجرحىٰ، والمرضىٰ، أهملوا واجبهم، وأثبتوا عدم كفايتهم. وكان علىٰ الجنود أن يُمرِّضوا بعضهم بعضًا.. وٱستفحل المرض، وٱزدادت الوفيّات، وٱنعدم الدواء. فلا أربطة، ولا أطباء، ولا ممرضين، ولا يد رحيمة تدغدغ النفوس المحطّمة وتبعث فيها الأمل. وقد ثارت ثائرة الشعب لهٰذه التقارير، وقام يطالب عبر الصحافة بوضع حدٍّ لهٰذه المآسي. وٱتّجه نداؤه إلىٰ «فلورنس نايتنغل»، فلبّت النداء..

وأبحرت علىٰ رأس بعثةٍ خاصّة تتألف من ثمان وثلاثين ممرضة إلىٰ «سكوتاري» في (أصطنبول) في ٢١ تشرين الأول ١٨٥٤م. وتعهّدت لوزارة الحرب البريطانيّة، أنها وأعضاء البعثة سيتكلّفن بنفقات الرحلة والإقامة هناك. وكانت الرحلة البحريّة قاسية عليها، ولا سيّما ومعها ثمان وثلاثون ممرضة لهنّ مشاكلهنّ المختلفة، والسفينة تلعب بها الرياح العاصفة، فوصلت إلىٰ سكوتاري وهي مريضة. ولكن لم يكن لديها وقت للمرض، وكان عليها أن تعمل بسرعة. وقد ٱصطدمت في المستشفىٰ بأولٰئك العاملين فيها، الذين كرهوا أن تتدخّل في شؤونهم ٱمرأة. لقد كانوا يعيشون ضمن «نظام» تتجسّد فيه الفوضىٰ، والبؤس، والموت، وكانوا يسيرون نحو المستقبل بأعينٍ مسمّرة إلىٰ الماضي. وكان مستشفىٰ «سكوتاري» صورةً ناطقة عن جحيم «دانتي»، الذي قال عنه: «إنك تفقد كلّ أملٍ في الحياة، أنت الذي تدخل إلىٰ هنا». فقد تبعثر علىٰ أرضه الباردة القذرة، المرضىٰ الملطّخون بالدماء، أو الذين ينزفون دمًا، ولم يكن هناك ما يكسو أجسامهم العارية، ولا ما يقيهم برد المرض أو برد الجو. وكانت الروائح الكريهة النتنة تتصاعد من سيالات الأوساخ، والمجاري التي تمرّ تحت المستشفى، وتختلط برائحة الدم، والقذارة، والموت. هنا كان يعيش أولٰئك الجنود، الذين ٱستبسلوا في القتال، ومجّدهم «تنيسون». كانوا يعيشون بين الجرذان، والفئران، والدود، والقاذورات. ولم

يكن في المستشفىٰ من أداةٍ لتنظيفه، ولا من أثاثٍ ليتمدّد عليه هٰؤلاء البؤساء، الذين نسيتهم أمّتهم في بحران مصالحها السياسيّة. لم يكن الفساد متفشّيًا في المستشفىٰ فحسب، بل كانت الفوضىٰ تدبّ في الدوائر العليا. فقد أرسلت الحكومة أسرّة إلىٰ المستشفىٰ، فوصلت، ولكن قوائمها كانت في مركب آخر، اتّجه إلىٰ شبه جزيرة القرم.

وسط هٰذه الفوضىٰ، والآلام، عاشت «فلورنس نايتينغل» سنتين متتاليتين. وقد قامت الممرضات برئاستها بتنظيف الأرض، ومسح الجدران وتنظيم المطابخ، وغرف الغسيل، ونُظِّم توزيع الطعام، حتّىٰ لم يبق جائعٌ في المستشفىٰ. وأضافت إلىٰ قائمة الطعام، بعض المأكولات الشهيّة والنبيذ، وكان كلّ هٰذا من إيراد «فلورنس»، الذي كان يأتيها من تبرّع بعض الرجال والنساء الكريمات. والعجيب أنّ اللورد «ستراتفورد رادكليف» سفير إنكلترة عند الدولة العثمانيّة، قال، عندما سمع عن أعمال فلورنس، وإنفاقها تلك الأموال لراحة المرضىٰ والجرحىٰ: «إنها تضيع الأموال فيما لا فائدة منه.. إنني أتمنّىٰ لو كانت تصرف تلك الأموال علىٰ عملٍ ذي قيمة، كبناء كنيسة أنغليكانيّة في القسطنطينيّة»!

وعندما سمع أحد الجنود هٰذه الكلمة قال: «إنّ هٰذا المستشفىٰ هو كنيستنا، وإنّ فلورنس هي ملاكنا». لقد قدّسها الجنود، وغدا مجرّد وجودها، في هٰذه البؤرة من العذاب والألم، شافيًا لعدد كبير من المرضىٰ، ومن الجرحىٰ، الذين يئس الجرّاحون من شفائهم. فهبطت نسبة الوفيات من ٤٤٪ إلىٰ ٢٢ بالألف. وكان الجنود يُقبّلون خيالها، وهي تقوم بجولتها الليليّة والمصباح في يدها، ولذا أطلقوا عليها اسم «المرأة ذات المصباح». وكانوا، وهم رجال المعارك، الذين يفهمون معنىٰ التعب والنَّصَب يدهشون من طاقتها علىٰ العمل، تلك الطاقة التي لا تفنىٰ. لقد كانت تعمل عشرين ساعةً أحيانًا، إلىٰ جانب الجراحين، وهي تساعدهم، وتضمّد الجراح، وتنظّفها، وتبثّ الآمال بابتسامتها المشرقة. وإلىٰ جانب ذٰلك، كانت تدير المستشفىٰ، وتحلّ مشاكله،

وتكتب الرسائل. وكان الضباط الكبار لا يُخفون تذمّرهم من معاملتها الجنود ككائناتٍ بشريّة. إذ أنّ الجنود بالنسبة إليهم، لم يكونوا سوىٰ وحوش آليّة، لا يستحقّون هٰذا العطف. وكانوا يقولون لها: «إنك تفسدين هٰؤلاء الوحوش بعطفك». فكانت تجيبهم والاَبتسامة علىٰ ثغرها: «هٰذا ما أريده في الواقع، فأنا أريد أنْ أُفسدهم لأحوّلهم إلىٰ رجال».

عادت «فلورنس» إلىٰ وطنها، وقد غدت مقعدةً لمدىٰ الحياة. ولكن عملها لم ينته، وإنما ٱبتدأ. فلم تكن «سكوتاري» المستشفىٰ الوحيد، إذ العالم كلّه غرفة مرضىٰ، تتطلّب التنظيم والعناية، والسهر. وطالبت منذ عودتها، بإنشاء مدرسةٍ لتدريب الممرّضات، حتّىٰ يفسح المجال أمام المرأة، فتنبعث قواها النفسيّة الكامنة، وعواطف السلامِ والرحمة التي هي جزء من روحها، وتصبح إنسانًا ذا قيمة في الحياة. وألّحت علىٰ إدخال إصلاحٍ واسع في المستشفيات العسكريّة والثكنات.

ولكن كانت كلّما ذلّلت عقبةً، اصطدمت بأخرىٰ. وعندما أخفقت في إقناع الرؤساء، ٱلتفتت إلىٰ مخاطبة الشعب، فنشرت كتابها: «ملاحظات عن التمريض». فأصغىٰ الشعب إلىٰ صوتها وندائها، وهي التي ناداها بالأمس في محنته، فلبّت النداء، وقدّسها لأنها فتحت أمامه أبواب عالم جديد من الرحمة والإنسانيّة: عالم صحّة، وطمأنينة، وإيمانٍ روحيّ. ورضخت الحكومة أخيرًا لضغط الجمهور، فأسّست مدرسةً للتمريض بٱسمها، ومستشفىٰ عسكريًّا، زوّدتهما بكلّ ما طلبته الممرّضة الأولىٰ.

وفي سنّ السبعين، لم تعد تقوى علىٰ الوقوف علىٰ قدميها، ولكنها لم تتوقّف عن فعّاليّاتها. فكانت تتمدّد في سريرها، وتُسدي آراءها الصائبة في الخدمة الاَجتماعيّة إلىٰ زوّارها الكُثْر، من رجال الحكومة والسياسة، وقادة الحرب، والشعراء، والفنّانين، وخاصة في قضايا محاربة المجاعة، والبؤس، والمرضِ في الهند. وبقيت، حتّىٰ سن الثالثة والثمانين، تملي مئات الرسائل، وتخطّط لآلاف المشاريع، لبناء مستقبلٍ أجمل، وعالمٍ أفضل.

وفي سنّ التسعين، كانت فلورنس قد بلغت من العمر عتيًّا، فماتت حركة يديها أوّلًا، ثم انطفأ نور عينيها، وخمد إشعاع عقلها. وفي ١٩١٠، حُمّ القضاء.

وقبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، عادت جذوة الحياة إليها، فوقفت صديقتها إلى جانبها تسألها: «هل تعرفين أين أنت يا فلورنس؟».

فأجابتها: «إنني هنا أرقب مذبح الإنسانيّة وآلامها، وألمس أوتار الحياة وحقائقها. وطالما أنا على قيد الحياة، فإنني سأناضل من أجل إنقاذ هؤلاء الرجال، الذين يندفعون إلى مذبح المصالح والشهوات بقوى عقولهم المادّيّة، واندفاع عواطفهم الثائرة».

بطلة كفاح
كاترين برشكوفسكي
(١٨٤٤ ـ ١٩٣٤)

حديثي اليوم معك، مستمعي، عن أمرأة، عن «كاترين برشكوفسكي». ولعلّ هٰذا الأسم لم يطرق أذنك كثيرًا قبل الآن، فهو ليس لأديبةٍ عالميّة يطالعك علىٰ صفحات المجلات والكتب، ولا لفنانةٍ أغدقت علىٰ العالم فيض وحيها الإبداعيّ، ولا لعالمةٍ فذّة، أنكبّت علىٰ دراسة الذرّة وأسرار الحياة، فأكتشفت قوىٰ الإثمار والإنماء، وتعرّفت طُرُقَ التدمير والإفناء، ولا هو لملكةٍ أو صاحبة سلطان، وإنّما هو لأمرأةٍ من رصيص الشعب، أمرأة كفاح، كواحدة من اللاتي عجّت بهنّ حنايا مجتمعك العربيّ في عامك النضاليّ هٰذا. فقد كانت أمرأةً عاشت بطبيعتها الإنسانيّة الحقّة، المشرئبّة لمفاهيم الخير، والإبداع، والتسامي، وقاست المرّ والعلقم في نصرة مبدئها في الحريّة ،والمساواة، والعدالة، فولّدتْ في كيان أمّتها الروسيّة، كما أوجدت «جميلة بوحيرد» و«نادية السلطي» في أعماق عُربنا، ذاك الأستعماقَ المتطاول، لمعاني البطولة، والنضال، والحريّة، والحياة، حتّىٰ أطلق عليها التاريخ المعاصر لقب «جدّة الثورة الروسيّة الكبرىٰ».

و«إيكاترينا كونستانتينوفا برشكو ـ برشكوفسكايا» ـ وإنه لأسمٌ طويلٌ جدًّا، مستمعي، علىٰ أمرأةٍ صغيرة الحجم مثل «كاتيا» ـ ولدت سنة ١٨٤٤ في أسرةٍ جمعت من طرفيها النبالة الروسيّة، والأرستقراطيّة البولنديّة. وتفتّحت علىٰ الحياة، في زمن كانت فيه بلادها روسيا، نهبًا موزّعًا لطبقةٍ من النبلاء

الإقطاعيّين، الذين يسيطرون علىٰ أرضها، ويتملّكون بَشَرها، ويسومون ـ وهم الأقليّة الحاكمة وعلىٰ رأسهم القيصر ـ ذٰلك العجيج المتلاطم من شعبٍ منهك ومُهان، سَوْمَ الحيوان. فالشعب الروسيّ، كان آنذاك، مستمعي، شعبًا مستعبَدًا، لا يمتلك حتّىٰ نَفَسِه الذي يُطلقه من فمه، أو روحه، إذا كان قد تبقّىٰ له بعضٌ من روح. وكان يُطلّ بعينين زائغتين صبورتين، أضناهما الجوع والحرمان، علىٰ تلك السهول الخضراء الشاسعة، التي تدرّ علىٰ سيّده النبيل الخير الوفير، وعليه التعب، والشقاء، والأسىٰ. وكان يتلقّىٰ السّياط المبتلّة علىٰ جسده الأعجف، إذا همهَمَ، ولو بينه وبين نفسه، أنْ ليس لدىٰ أطفاله ما يكفيهم من الخبز، أو ما يُقيم أَوَدَهم.

ففي مجتمع كهٰذا وُلدت «كاترين برشكوفسكي» وجدت، في منتصف القرن الماضي: عبوديّة، وظلم، وأرستقراطيّة، واستغلال. ولكنّ والديها لم يكونا كأولٰئك النبلاء القاسين، المتحجّري القلب، إذ كانا ينظران إلىٰ عبيدهما علىٰ الأقل، كما ينظران روحًا وجسمًا إلىٰ نفسيهما: فلا يخضعانهم لذلّ، ولا يجلدانهم بسوط. ومن ثمّ نشأت «كاترينا» نشأةً أقرب إلىٰ الديموقراطيّة منها إلىٰ الأرستقراطيّة: فقد سُمح لها في طفولتها أن تتقاسم لُعَبَها وألعابها مع أولاد الخدم والعبيد في القصر. وكم من مرةٍ أتت إلىٰ والدتها، وقد تخلّت عن معطفها لبعضهم. وعندما كانت هٰذه الأخيرة توبّخها علىٰ فعلتها، كانت تجيبها بعصبيّة وحزم: «لا تغضبي يا أماه! ألم تُريني في الكتاب المقدّس أنّ المسيح يقول: إذا كان لديك معطفان فأَعطِ أحدهما للفقير!».

وكانت أكبر مشكلة تشغل أفكار طفولتها، هي كيفيّة تحقيق العدالة علىٰ الأرض. وكانت تبحث في أحلامها عن الطريق التي يمكنها بها أن تحرّر رقيق روسيا. فقد تواتر إليها آنذاك، أنّ الذهب قد وُجد في كاليفورنيا، في أمريكا، فأخذت تتمنّىٰ لو تذهب إلىٰ تلك البقاع، وتعود محمّلة بذاك الذهب، لتشتري قطعةً هائلة من الأرض، سعتها سعة السماء، وتدع شعبها يعمل عليها بحريّة،

ويعيش أفراده في منازل محترمة كمنزلها، يتوافر فيه الكثير من الطعام ليشبعوا، والكثير من الملابس ليدفأوا. وعندما كان والداها يهزأان من أحلامها الطفوليّة تلك، كانت تنظر إليهما بتساؤل ساذج، لجهلهما ـ بحسب ظنها ـ: «أفلا يعلمان أن كلّ فردٍ يجد الذهب في كاليفورنيا؟ وأنّ أفضل طريقةٍ لصرف المال، هي أن تجعل الفقير غنيًّا؟».

وبينما كانت فتيات طبقتها ينصرفن في لياليهنّ إلىٰ الحفلات الراقصة، كانت هي تنفرد في منزلها وتقرأ. ولمّا كان والدها يسألها عن سبب آنكماشها، وعدم مشاركتها في تلك الأجواء، كانت تجيبه بصراحةٍ وقوة: «إنني أكره الآحتفالات المتواصلة هٰذه، والضحكات المصطنعة التي تقتضيها تقاليد سهرات تلك الزهرة المنحطّة من أرستقراطيّتنا. إنني أُفضّل المجتمع الحرّ الطليق، الذي لا زيف فيه، مجتمع «فولتير» و«روسو»، و«ديدرو».

وتعلّمت اللغتين الفرنسيّة والألمانيّة ،لا لتلوكهما تشدُّقًا كما تفعل فتيات طبقتها، وإنما لتقرأ بهما وتفكّر. وبذٰلك وعت الثورتين الفرنسيّة والألمانيّة سنة ١٨٤٨ بأعماقهما. وآئتلفت، مع الزمن، مع مفهوم الفكر البشريّ العام، وتنازلت ،وهي تنمو مع السنين، عن أحلام طفولتها في مناجم الذهب، إذ أنها وجدت طريقةً أفضل لتحقيق العدالة، وهي أنْ تشقّ للأفكار الحرّة في روسيا طريقها لتنتشر، وتنبثّ، وتحرق الظلم والظالمين. فأسّست «مدرسةً للفلاحين»، لتعلّمهم معاني الحياة الحرّة الكريمة، ولكنها آصطدمت بأنّ الفلاح الروسيّ مخلوقٌ جاهل جدًّا، وغافل عن إنسانيّته، ولا يمكنه أن يفكر إلّا بكوخه الطينيّ، أو قطعة الأرض التي يعيش عليها. أمّا علاقته بحكومته، فقد حدّدها بؤسه له: بأن يدفع أيام السلم ما عليه لها، وفي أيام الحرب حياته. وآتّضح لها أنّ محاولاتها كمعلّمة ليس لها كبير جدوىٰ، وأنّ تبدّلاتٍ آقتصاديّة وسياسيّة يجب أن تحدث في كلّ كيان المجتمع. ولم تكن أفكارها قد آتّضحت بعد أو تبيّنت لها نوعيّةُ تلك

التبدّلات؛ فهي تريد أن تشذّب وتُصلح، ولكنها لا تريد أنْ تقتلع وتجتثّ. وفي خضمّ تفكيرها المتلاطم هٰذا، زُفّت إلىٰ نبيلٍ شابٍّ متحرّرٍ مثلها. وظنّ والدها أنها ستركن إلىٰ حياةٍ هادئة مستقرّة، وأنّ التيّار العنيف الذي يبلبل روحها سيتحوّل إلىٰ بحيرةٍ ساكنة. ولكنّ ظنّه قد خاب؛ فقد ٱجتمعت بالثوريّ «كروبتكين»، ذاك النبيل الذي تخلّىٰ عن أملاكه وثروته ليعيش مع الفقراء. وكانت روحه كاللهب المُستعر، فأثارت في مكامن ذاتها جمرات أحلامها السابقة. فمجّت هي الأخرىٰ حياة الدّعة والاّستقرار التي تعيشها، وقرّرت أنْ تحيا بين الفلاحين. إذ لا يمكن لفردٍ أنْ يفهم آلام الآخرين إلّا إذا عاش تلكْ الآلام. وعندما رفض زوجها مرافقتها، صرخت قائلةً: «سأذهب وحدي!». وكانت حاملًا، فأودعت ولدها، بعد وضعه، لدىٰ أخيها، وسلكت طريق نضالٍ شاقّ من أجل تحرير شعبها الروسيّ من الرقّ..ذٰلك الطريق، الذي قادها إلىٰ السجن، والعذاب، والنفي. لقد أحسّت بأنه لا يمكنها أن تكون أمًّا ولاثوريّة في آن واحد، إذ كان عليها، إذا كانت أمًّا حقًّا، أنْ تُقِرّ العدل بدمها وبكلّ كيانها لأبناء المستقبل، بدل أن تكون أمًّا لضحايا الطغيان والاّستبداد.

وتنكّرت بزيّ ٱمرأةٍ قرويّة في الأربعين من عمرها، مع أنها لم تكن قد تجاوزت الثلاثين، وٱتّجهت نحو القرىٰ، تخوض المستنقعات الآسنة سيرًا علىٰ الأقدام. وكانت رحلتها، بين الضِّياع البعيدة، وهي تبثّ روح الثورة والتمرد، ملحمةً من العذاب؛ فقد ٱنتفخت أقدامها من السير، وناءت أكتافها بما تحمل، وأصابها الغثيان بما تُطعَم من بيوت الفلاحين. وكانت تنام في ٱصطبلات فُرشت أرضها بالدود، وهُوّيت بالثغرات التي حفرها فيها الجرذان. وعندما رغبت مرّة في غسل أرض غرفتها، أجابتها صاحبة الخان: «خذي بعضًا من بول البقر الساخن وٱجبليه مع روثها، فإنه منظفٌ ممتاز!».

ولا تسل عن أكواخ الفلاحين التي كانت تطرقها بعنادٍ وإصرار؛ فقد

كانت أكواخًا حقيرة مظلمة، تُظلُّ أفكارًا هزيلة مجمّدة. فقد كان من العسير إخراج الفلاح من دائرة تفكيره الضيّقة، أو تخليصه من فكرته الثابتة، بأنّ الحكومة ليست هي المسؤولة عن عذابه وإنما هم النبلاء الإقطاعيّون. فقد كان يؤمن بأنّ القيصر هو أبوه الصغير، بعد الله، الأب الأكبر، وأنه يُحبّه، وأنه يتعذب لأنّ النبلاء يخفون عنه حاله، ولو عرف لأزال عنه البؤس، فليباركه الله! وحاولت «كاترين» بشتّىٰ الوسائل أنْ توقظ هٰذه العقول من غيبوبتها فأخذت تقرأ لهم ما يكتبه الأحرار عن شقائهم، وعن الحقوق التي يجب أنْ يطالبوا بها كمخلوقاتٍ بشريّة لها حقّ الحياة الكريمة. ولكنّهم كانوا يقاطعونها قائلين: «لو أنك تقرئين هٰذا للقيصر، فإنه سيعاقب النبلاء حتمًا!». وأمام هٰذا الجمود الفكريّ، صرخت في ثورةٍ من ثوراتها، بأنّ أباهم القيصر هو الشيطان بذاته. وصعقهم كلامها، فآنسلّوا من آجتماعها واحدًا تلو الآخر، وقد قرّروا ألّا يعودوا. وفي صبيحة اليوم التالي، كانت «كاترين» في السجن المحليّ. وتصف دخولها إلىٰ تلك البؤرة السوداء قائلةً: «كان هناك وأنا أهبط السلّم مئتا سكّير يتطوّحون... ودُفعتُ إلىٰ الداخل دفعًا، وأطبق عليّ باب ثقيل، وسيطر ظلامٌ شديد. وتقدمتُ خطوةً ففقدت توازني، لأنّ الأرض كانت مترعةً بالأقذار البشريّة.. وأغمي عليّ، وعندما أفقت كان الدود يزحف علىٰ جسمي ويغطّيه». ومن هٰذه البؤرة السوداء، نُقلت إلىٰ سيبيريا، لتعمل في «مناجم كارا» خمسَ سنواتٍ كاملة.

ولم يكن ما قاسته وتقاسيه ليحطّم روحها، لأنّ ما يملأ ذاتها، ويشغلها داخليًّا، كان أقوىٰ من عذابها وشقائها. لقد كانت تدغدغ حلمًا تعتقد أنه لا بدّ أنْ يتحقّق، مهما جارت الأيام عليها وعلىٰ أمثالها. وعندما وصلت إلىٰ «مناجم كارا» آكتشفت أنه لا يُفرض علىٰ السجناء السياسيّين أشباهها العمل الشاق، وإنما فُرض عليهم ما هو أقسىٰ وأمضّ للنفس، ألا وهو الكسل الإجباريّ، والتفكير الدائم الملحّ في ذواتهم ووضعهم. وبعد إقامةٍ

قصيرة في «كارا»، نُقلت إلىٰ جحيم «بارغوزان». و«بارغوزان» هٰذه مدينةٌ متجمّدة في الدائرة القطبيّة السيبيريّة. وقد جعلوها تجتاز المسافة بين المنطقتين، وهي تزيد عن ألف ميل، سيرًا علىٰ الأقدام. وكان لا يمزّق الصمت وهي تجرّ أقدامها مع زملائها، عبر حقول الثلج البيضاءِ اللامتناهية، سوىٰ صفير الرياح الصقيعيّة. وكم من مرّة أصطدمت أرجلهم، وهم يتابعون موكبهم الجنائزيّ هٰذا، بجثث المنفيّين السابقين لهم، الذين سقطوا صرعىٰ علىٰ الأرض. وعندما وصلت «كاترين» إلىٰ «بارغوزان» كان «الترمومتر» يشير إلىٰ الدرجة الخامسة والأربعين تحت الصفر. وفي هٰذا الجليد، وفي جوّ من البطالة واللاعمل، عاشت «كاترينا» سنين طويلة. وبعد أن أضنتها تلك الحياة، وُفّقت إلىٰ الفرار. ولكن بعد مسير آلاف الأميال، عادت فتلقّفتها أيدي الشرطة، لتودعها ثانية في «كارا». والغريب أنّ خمسين بالمئة من زملائها تُوفّوا، أمّا هي فلم تُصَب بأذىٰ؛ لقد كان إيمانها القويّ بفكرتها ومبادئها، يولّد لديها طاقاتٍ عجيبةً ومتجدّدة من القدرة والحياة. لقد قالت لمراسل صحيفة أمريكيّة زارها في منفاها: «يمكن أن نموت في المنفىٰ، ويمكن أن يموت أولادنا في المنفىٰ، ويمكن أن يموت أحفادنا في المنفىٰ، إنّما لا بدّ أنّ الحريّة والعدالة، وهما قيمتان فطريّتان ثمينتان جدًّا في الإنسان، سينبثان وينتصران علىٰ الأرض الروسيّة، ليحقّقا التكامل الإنسانيّ للشعب الروسيّ».

وعندما حُرّرت من منفاها سنة ١٨٩٦، نظّمت سرًّا «الحزب الاشتراكيّ الثوريّ»، وقرّرت أن تزور أمريكا لتستدرّ عطف العالم علىٰ قضية بلادها، التي تعيش في آستعبادٍ وفقر وجهل. وكانت رحلتها في سنة ١٩٠٤، رحلة نصر؛ ففي كلّ مكانٍ كانت تُقابَل، وهي تخطب، بكتلٍ بشريّة متراصّة، تلوّح لها بالمناديل، وتبكي، وتصفّق، وتعانق. وكانت «الجدّة الصغيرة للثورة» تقابل تلك الهتافات بآبتسامة الهدوء ذاتها التي تقبّلت بها عذابها، فعيونها فقط هي التي

كانت تُفصح عن الآلام التي عاشتها. وعندما رجاها أصدقاؤها أن تقيم معهم في أمريكا، أجابتهم، بأنّ شعبها بحاجةٍ ماسة إليها. وعادت إلىٰ روسيا لتزدد نشاطًا، وليُحكم عليها بالنفي نفيًا مؤبّدًا إلىٰ سيبيريا. وعندما أظهر بعضهم عطفًا عليها، قالت لهم: «لا يُقلقكم ما بي، فقد جرّبته قبل الآن». وظنّ العسكريّون أنّ شتاءين أو ثلاثًا من تجمّدات سيبيريا وصقيعها، كافيةً للقضاء عليها. ولكنهم أخطأوا الحساب، فقد كان الزمن، وروح الكفاح يزيدانها قوّة ومراسًا. ونُقلت وهي في الثامنة والستين من عمرها إلىٰ أقصىٰ بقعةٍ في الدائرة القطبية ليتحطّم جسمها تحت نفح البرد والجليد. ولكنها، كما قالت عن نفسها، «لقد حُفظت هناك كما تحفظ الأسماك»!. وكانت علىٰ ثقةٍ تامّة أنّ يوم التحرّر قريب، وأنها لن تموت قبل أن ترىٰ خلاص بلادها من ظلم القيصر، وطغيان الإقطاعيّين النبلاء.

وفي سنة ١٩١٧ كان موعدها مع التحرير. فأندفعت إلىٰ موسكو تُحيّي وتُحيّىٰ. وعاودت نشاطها السياسيّ بهمّةٍ عجيبة. ولكن في هٰذه المرة، لا لتحثّ الشعب الروسيّ ضدّ «أسرة رومانوف» التي سقطت، وإنما ضدّ ألمانيا. وحذرت زعيم الثورة البلشفية «لينين» من سلامٍ سابق لأوانه مع الآليّة العسكريّة الألمانيّة. وقالت له بجرأة عندما وقّع صلحَ «برست ليتوفسك» مع ألمانيا: «أي لينين! لقد طرحت طغيانًا لتخُضع نفسك لآخر». ورُميت مرة أخرىٰ في المنفىٰ، وكان في هٰذه المرّة إراديًّا، في تشيكوسلوفاكيا. وأفتتحت في «براغ» مدرسةً لفقراء الأطفال. وظلّت تعمل بجدّ، وكانت سعيدة في أنها رأت حلمها في الحريّة والعدالة قد تحقق، وإنْ لم يكن كاملًا كما أرادته. فالحقيقة دومًا هي أدنىٰ من الأماني، والبناء البشريّ لا بد أن يكون ناقصًا بأستمرار، لتعمل الأجيال المتلاحقة علىٰ سدّ ثغراته وإتمامه!

وعندما أغمضت عينيها للموت سنة ١٩٣٤ في تشيكوسلوفاكيا، كانت تظنّ أنّ فجر عالمٍ جديد قد أنبثق، عالم تتّحد فيه قوىٰ الخير لدىٰ جميع الأمم لتحطّم

الطغيان والآستبداد والآستعباد. وأنّ إنسان الكفاح السابق، الذي تُمثّله بنضالها الأسطوريّ، سيرتفع بأهدافه أعلىٰ وأعلىٰ. ولكن لو كان قُدِّر لها أن تحيا حتّىٰ هٰذه الساعة، لرأت أنّ البشريّة التي تدّعي التحرر والعدالة، لا تزال تعيش في عبوديّة ذاتها ومطامحها، ومن ثمّ، فإنّ إنسانَ الكفاح من أجل القيم الفطريّة الجميلة، كالحريّة، والعدالة، والحياة الكريمة الحقّة، سيبقىٰ، بل ويجب أن يبقىٰ ما دامت البشريّة قائمة.

امرأة وعطاء
فرانسيس فيلار
(١٨٣٩ ـ ١٨٩٨)

كنّ نساءً وكانوا رجالاً... وكان الحديث يجمع بينهم في ندوةٍ خاصّة.

كانوا يتناقشون حول مشروعٍ اجتماعيّ ضخم، الهدف منه إنقاذُالمرأة من براثن الدّنس، وهديُ الخاطئات منَ النساء إلىٰ سبل الحياة الشريفة، ومنعهنّ من الاتّجار بالجسد. وانقسم المجتمعون فئاتٍ ثلاثًا: فئةٌ معارضة، لأنها وجدت في ذاك المشروع دخولًا فيما أسمته «قاذورات الحياة»، وتدنّيًا في مستوىٰ نشاطها الاجتماعيّ، فنفرت منه واستكبرت ذاتها عليه. وفريقٌ ثانٍ أحجم عن الإدلاء بدلوه فيه، لأنه أحسّ بِعظَم المسؤوليّة فتهيّب الخطو نحوه. وجماعةٌ ثالثة، وهي أقليّة، كانت مؤمنةً بالهدف النبيل، تنافح للإقناع والعمل.

وطرق المسمع صوتٌ يقول: «لا! لا يمكن للمرأة وحدها أنْ تشرف علىٰ مشروعٍ كهٰذا». ولا أعلم، والجدل محتدمٌ، والتقاعس أطغىٰ من الإقدام، لماذا ألحّت علىٰ خاطري كلمات «فرانسيس فيلار» التي تنادي: «أيّتها المرأة،لا تتامي علىٰ ما يسمّونه ضعفك، فأنت معطاءٌ وعطاء.. كافحي من أجل الإنسان فهو أنت، وبثّي الحياة في كلّ ركن، فالحياة بمعناها الخُلُقي العميق هو أنت»... وتذكّرت حديثًا طويلًا عنها، وعن فعّالياتها.

ولو سألتَني، مستمعي، من تكون «فرانسيس فيلار» هٰذه، ولماذا قرنتُها بذاك النقاش المحتدم، لأجبتُك: لعلّك لو دخلت يومًا «الكابيتول الوطنيّ» في

الولايات المتحدة الأمريكيّة، ووقفت في ردهة العظماء، تتأمّل التماثيل فيها، لاَسترعىٰ اَنتباهك التمثال الوحيد لاَمرأة. ولو سألت عنها لأجابوك بدهشة: أَوَلا تعرفها؟ إنها «فرانسيس فيلار»، المرأة التي كافحت بكلّ طاقاتها الإنسانيّة، لرفع مستوىٰ الفرد المتدنّي، وعملت من أجل الإنسان، وسعادة البيت، وعرفت كيف تكسب أعداءها إلىٰ جانبها، لا أنْ تكسب علىٰ حساب أعدائها. إنها من أسرة «ويلار»، أي أصحاب الإرادة القويّة.

ولو اَسترسلت معهم في الحديث، وقد أثارتك قصّتها، لسردوا عليك بفخرٍ مطوّلًا عن حياتها. ولذكروا لك، أنها ولدت في «تشورش فيل» من ولاية نيويورك، سنة ١٨٣٩، من أبٍ كان يعمل في متجرٍ صغير. ولكنه لم يلبث أنْ اَضطر لمغادرة مدينته وعمله، واَنتقل إلىٰ «أوهيو» ليدخلَ «كليّة أوبرلين». واَضطر لضعف ذات يده أن يعيش وأسرته في مقطورةٍ. وعندما أُصيب بمرض السل، أوصىٰ الطبيب أن ينتقل إلىٰ أقصىٰ الغرب. فأقامت الأسرة في «فيسكونسان»، وتمكّنت أن تبني منزلًا، وأن يعمل ربّ الأسرة في الزراعة، وتتحسّن أحواله الماديّة، وأن يُربّي أطفاله الثلاثة.

لم يكن لفرانسيس ـ وكانوا يدعونها «فرانك» ـ من همٍّ في طفولتها سوىٰ أن تجوب الحقول المديدة، وأن تسأل بعنادٍ عن عالم ما وراء الأفق، وكانت والدتها تجيبها بأنه عالمٌ واسعٌ واسع، وفيه بشرٌ لا يُحصون. وكانت تتساءل بينها وبين نفسها، هل يعيش أفراده جميعهم يا ترىٰ، في بيوت كبيتها؟ وهل تملأ الضحكات والأفراح والأعياد تلك البيوتات؟ وهل هي زاخرةٌ كبيتها بسلام الله، وحبّ الإنسانيّة، كما كانت تقول والدتها؟ كانت أسئلةً عويصة علىٰ تفكيرها الطفل. ولكنها عندما شبّت، علمت من والديها، أنْ ليس كلّ بيتٍ في ذٰلك العالم الواسع كبيتها. ففي كثير منها، لا يوجد إلّا النّزر اليسير من المال، وفي العديد منها بكاءٌ، وبؤس، وشقاء. وكم سألتهما عن أسباب ذٰلك، وهي آخذةٌ في التفتّح علىٰ معاني الحياة. فكان والدها يجيبها: «إنّ هناك أسبابًا عديدة يا فرانك، منها الجشع، والعار، والأنانيّة، والفساد، والغشّ، والخداع،

وشرب المسكرات، وتعاطي المخدّرات». ولم تكن تلك الكلمات تعني الكثير لفرانسيس، ولكنّ واحدة منها كانت تفهمها، وهي الإدمان على المسكرات، لأنها رأت يومًا فلاحًا عند والدها يشكو هٰذا «المرض»، وكان مرضًا فظيعًا، حوّل صاحبه إلى ما يشبه الخنزير.

ونمت الطفلة الحرون، وهي فخورةٌ بكونها ٱمرأةً، لأنها عطاء. فقد كانت تقول: «إنّ العمل الثاني الرائع للربِّ بعد خلقه الملائكة، أنه أوجد المرأة». ولكنها كما كانت تمجّد نبل جنسها، فإنها كانت تنقم على عدم مساواته مع الجنس الآخر. فقد كتبت في مذكّراتها قائلةً: «لا أنسى أبدًا اليوم الذي رافق فيه أخي - وقد شبّ - أباه إلى الانتخابات. فقد شعرتُ وهما يبتعدان، بألم غريب يحزّ في قلبي، وبالدموع تنبجس من عيني، وقلت لأختي: أما كنت تتمنّين يا ماري أن نذهب معهما؟ ألا نحبّ بلدنا كما يحبّانها؟ فأجابتني بصوت خافتٍ مرتعش: كم أَودّ ذٰلك يا فرانك، ولكن علينا ألّا نقول ذٰلك أمام أحد، حتّى لا يقال عنا أننا أصحاب عقولٍ قويّة جافّة»!

وفي المنزل، كانت تساعد والدها في عمل المزرعة، وفي الوقت ذاته كانت تطالع ما يصل إلى يدها من كتب. فقد علّمتها والدتها القراءة والكتابة، إذ كانت مدرِّسةً قبل أن تتزوّج. وكانت مُغرمةً بتلك المغامرات المتنوّعة التي تقدّمها تلك الكتب، وإنْ كان والدها بالذات يكره أن تقرأ الروايات. ففي مرة، وقد بلغت الثامنة عشرة من عمرها، رآها تقرأ قصة «آيفنهو» لـ«والتر سكوت»، فقرّعها قائلًا: «ألم أقل لك بألّا تقرئي الروايات». فأجابته بجرأة: «ولٰكنك نسيت يا والدي، في أيّ يومٍ نحن». فسألها: وأيّ يوم هٰذا؟ فأجابته: «لقد بلغت اليوم الثامنة عشرة من عمري، فأنا ٱمرأةٌ ناضجة، والمرأة الناضجة، كما تعرف، يمكنها أن تفعل ما تراه». وكاد الأب أن ينزع الكتاب من يدها بغضبٍ، ولكنها ٱبتسمت في وجهه وقالت: «إنها قصّة جميلة ومثيرة، ألم تقرأها يا أبتِ؟» فشاركها ضحكها، وقال لها: «أظنّ بأنك قد غدوت ٱمرأةً ناضجة».

وعندما أُدخلت وأختها إلىٰ «الكليّة النسائيّة في الشمال الغربي»، لم تعبأ بما يقال عن شكلها، أو ملابسها القرويّة، بل كانت فخورةً بنفسها، بل ومخلوقةً متحدّية من يتحدّاها، خفيفة الظلّ، كثيرةَ الحركة والنشاط. وفي الكليّة، ظهرت أيضًا مواهبُها الفكريّة، فآختيرت علىٰ أنها ألمعُ صفّها فكرًا، وغدت محرّرة صحيفةِ الكلّية، ورئيسةً لجمعيّة المناقشة والمناظرة، والروح المسيّرة في آجتماعات الطالبات. إلّا أنها كانت تُفضّل دائمًا الكتب علىٰ الناس، فتقول: «في الكتب تتلاقىٰ أفضل أنا في الكاتب، مع أفضل أنا للقارئ». وجاءت وفاة أختها بمرض السلّ، وهي في التاسعة عشرة من عمرها، لتعمّق شعورها الآجتماعيّ تجاه أخوّة جميع النساء.

وعملت بعد تخرّجها من الكلّيّة، معلّمةً في «كلّيّة بيتسبورغ للبنات». وسحرت من حولها بشخصيّتها القويّة الجذّابة، وتركت في نفوس من علّمتهن آثاراً لا تُمحىٰ، حتّىٰ إنّ المعلّمات في الكلية آتّهمنها بآستخدام وسائل سحريّة لجذب الطالبات إليها. إلّا أنّ السّحر الذي آستعملته هو قوّة شخصيّتها، التي نذرتها لتنمية الشخصيّات الأخرىٰ. فهدفها كمعلّمة هو «ألّا تترك الدراسة تتداخل مع التربيّة»، أي ألّا تمنح مجرّد معلومات، وإنما تبني كيانات إنسانيّةٍ متينة.

وبعد بضع سنوات من التعليم، شعرت أنّ شخصيّتها ذاتها بحاجة إلىٰ غذاءٍ جديد، ودعمٍ أقوىٰ. فطافت في أوربّا، برفقة صديقة لها سنة ١٨٦٨. وكان والدها قد تُوفّي، فرأت في جولتها تلك بعض تخفيفٍ لحزنها، وإغناءً لشخصيّتها. وأثار فضولها، وأدهشها في رحلتها تلك، القصور التي زارت، والمتاحف، وأروقة الفنّ، وثقافة الفرد الأوربّي؛ كلّ تلك الأشياء الرفيعة التي كانت تفتقدها أمريكا. وفي يوم آلتقت بفلاح من أيرلاندة، وفي حديث لها معه، قال لها: «كم أتمنّىٰ أنْ أذهب إلىٰ أمريكا، لأنها المكان الذي يعطون فيه لكلّ إنسان فرصةً أوسع للحياة». ومع أنّ ما قاله الإيرلندي لم يكن صحيحًا بالنسبة لبلدها، إلّا أنها فكّرت لماذا لا تجعل

هٰذا القول حقيقةً واقعة؟! فقرّرت أنْ تعود إلىٰ أمريكا، لتوجِد فيها الفرد الأمريكيّ المثقّف. ولم تكن لتعتقد بالمستحيل؛ فهي المرأة التي ستقوْد حركة «الآرتقاء الفرديّ الإنسانيّ عن طريق المعرفة».

وعند وصولها إلىٰ وطنها، قبلت رئاسة «كلية إيفانستون للبنات». وكان هدفها في مركزها الجديد، أن تحرّر أوّلاً نساء أمريكا من عبوديّة الماضي، وأن تفتح أمامهنّ أبواب المستقبل الحرّ. ولكنْ رئاسة كليّةٍ صغيرة لم تكن لتملأ ذات آمرأة، تودّ أن تنير أمريكا، بل العالم كلّه. إنّ طاقاتها تتطلّب عملًا أوسع وأشمل. وتبدّىٰ أمامها الطريق في الآنخراط في «الصليبيّة النسائيّة لمنع المُسكرات». وكانت هٰذه الحملة النسائيّة الهادفة إلىٰ سعادة البيوت، تلاقي صعوباتٍ كبيرة في مختلف الولايات. وكانت مظاهرات نسائها، ونشاطاتهنّ تُقابَل بالتقبيح والسّباب من قبل رجالٍ، لم يفقهوا بعد عمق تلك الحركة وقيمتها. ولكن عندما دخلت «فرانسيس فيلار» المعركة، آستمالتهم إلىٰ جانبها، بسحر صوتها الخطابيّ، ورنّته العميقة، وحججها المُفحمة. ففي مدىٰ شهرين أُغلق مئتا وخمسون صالونًا من التي تُتعاطىٰ فيها الخمرة، وذٰلك بفضل جهودها. كانت تؤمن بتلك الحركة إيمانها بوجودها، وترغب في أن تزجّ كلّ طاقاتها فيها، ولكن من أين لها الوقت؟ فقد كان عليها أن تؤمّن معاشها ومعاش أسرتها، وكانت الحركة فقيرة، لا يمكنها أن تدفع تعويضًا ماليًّا للعاملات في حقلها. ومع ذٰلك، فقد آستقالت من عملها في الكلّيّة، وآندفعت إلىٰ صفوف الحركة. وأحسّت لأوّل مرّة، بأنّها سعيدة.

وحكم عليها الناس بالتهوّر والطيش، ما عدا والدتها، التي كانت تشجّعها، وتقول لها، عندما يتناقشان حول طريقة تدبير الخبز للبيت: «ثقي بالله وتابعي عملك الخيّر». وكانت الأم الشجّاعة تنظر بآبتسامة رضا إلىٰ آبنتها، وهي تتنقّل في الطرقات، والأحياء القذرة، وتعقد الآجتماعات في البارات، والخانات المملوءة بالبراميل الوسخة، والروائح المنتنة.

وٱنتخبتها نساء الحركة لرئاسة «قسم شيكاغو». وفي حماستها، لم تذكر شيئًا عن التعويض المادّي المخصّص لها. وظنّت النساء العاملات معها، أنّ لديها وسائل معاشيّة أخرىٰ تُعينها. وكم من مرّة، كانت مجبرةً علىٰ أن تجوب المدينة من أقصاها إلىٰ أقصاها علىٰ قدميها، لحضور الآجتماعات التي تعقدها، لأنها لا تملك أجرة وسيلة نقلٍ تُقلّها. وقد تكلّمت مرّة، في بعض الأحياء الفقيرة، قائلةً لهم: «إنني صديقتكم الحقيقيّة، فأنا أعرف تمامًا ما تشعرون به، لأنّني أنا أيضًا، شكرًا لله، جائعة».

وكانت تشعر بأنّها تغتني نفسيًّا كلّما هبطت إلىٰ العالم الأدنىٰ من البشر، رغم أن نمط حياتها آنقلب رأسًا علىٰ عقب؛ فمن حلاوة حياة الأسرة السعيدة المستقرّة، إلىٰ التنقّل المستمر والتشرّد، ومن الدراسة في المكتبات إلىٰ غشيان الحانات، والمحال العامّة. وبدلًا من عِشرة الرجال المثقّفين، الرفيعي التهذيب، كان عليها أن تحتكّ برجال بيوتات القمار، والسكارىٰ، والمدمنين. لقد حطّمت الحياة في بيتها لتبني بيوتات الآخرين، وٱختارت أصعب المهمّات: فالبشر الذين تتعامل معهم، يُفضّلون سراب المخدرات علىٰ حقيقة الواقع. فكم من مرّة قالوا لها بتهكّم وسخرية: «إلامَ تريدين أن نتطلّع إذا تركنا هٰذه الحانات؟» فتجيبهم: إلىٰ سعادة البيت. فيردون مقهقهين: إصغِ إليها بربّك! فهل لأحدٍ منّا سعادةٌ في بيت؟!».

وأخذت «فرانسيس» ترىٰ أن المسكرات، والمخدّرات، ليست إلّا شرورًا ثانويّة. فجذور الشر أعمق من هٰذا. إنها تثوي في آستغلال طبقة العمال، وفي آنحطاط مستواهم الآجتماعي. وعلىٰ نساء أمريكا، وهنّ منشئات البيت الأمريكيّ، إنقاذ رجالهنّ من الأوحال، من بؤر الملذّات والحانات، وبيوت القمار، ودفعهم نحو نورالشمس: نحو بيوتٍ أنظف، وقلوب أنقىٰ، وأجور أعلىٰ. ولتحقيق الأهداف الثلاثة، طالبت «فرانسيس»، بالقضاء علىٰ مخازن الخمرة، والبارات، ومنح حقّ التصّويت للنساء، والعدالة الآجتماعية للإنسان. وٱنتخبت

لرئاسة «الاتّحاد النسائيّ المسيحيّ لمنع المشروبات الروحية» فقامت برحلةٍ إلىٰ كلّ مدينة، تعداد سكانها خمسة آلاف نسمة. وغدت حياتها تنقلًا بين وسيلة النقل وقاعة المحاضرات. وكانت رحلةً شاقّة مملوءة بالمقاومة بل وبالبغضاء، والسبّاب، وعدم الثقة، حتّىٰ من العاملات معها في الاتّحاد: فقد أخذن يقاومن بشدة حقّ التصّويت للمرأة. وفي إحدىٰ الاجتماعات، قامت إحداهنّ لتعلن علىٰ الملأ: «بأنّ الاتّحاد غير مسؤول البتّة عن تخرصات فرانسيس لأنّه ليس في نيّتنا، نحن النساء، أن نجرّ ذيول أثوابنا في وحل السياسة». فكان جواب فرانسيس، وبهدوء: «يمكنكنّ في هٰذه الحال أن ترفَعْنَها».

وتدريجيًّا، أقنعت من حولها بفكرتها، وتمكّنت أن تشيد الاتّحاد بخطًىٰ ثابتة، حتّىٰ ضمّ مليون عضوة من جميع المذاهب الدينيّة. وكان طموحها في بادئ الأمر أن تخلّص الولايات المتحدة الأمريكيّة من آفة الإدمان، وآفة الجشع، وآفة عدم التسامح. إلّا أنها أخذت تمدّ بصرها إلىٰ ما وراء أمريكا، إلىٰ العالم كلّه. فبعد أن كان شعارها: «لله، والبيت، والوطن»، أصبح «لله، والبيت، وكلّ أرض». كانت ترىٰ أنّ قدرها هو إنقاذ البشريّة من آفاتها، وتضميد جراحها، وتحقيق السلام بين شعوبها. إنها «فلورنس نايتينغل» الثانية. وهٰكذا نظّمت أمومة العالم في حملةٍ تهدف بيوتاتٍ أنقىٰ، وأوفر صحّة، وأكثر سعادة.. وأرسلت طلبًا مترجمًا لخمسين لغة، إلىٰ جميع الحكومات في نصفي الكرة الأرضيّة، تطلب منها منع المسكرات، وتجارة المخدّرات، ورفع مستوىٰ العمّال، وإيجاد قانون للعدالة، يعتمد علىٰ الأسس المسيحيّة.

وأنهك فرانسيس العمل المتواصل، والتنقّل الدائم. ورغم مرضها المتزايد، فقد زارت إنكلترة سنة ١٨٩٢ بعد أن انتُخبت رئيسة «للمجلس الوطني للجمعيّات النسائيّة في أمريكا» سنة ١٨٩٠، وكتبت قصّة حياتها في ألف ومئتين من الصفحات، وفي مدّة لا تتجاوز إثني عشر أسبوعًا. وعملت لسبع

سنوات «١٨٩٢ ـ ١٨٩٨» وحتّىٰ وفاتها رئيسةً للتحرير في مجلة «إشارة الاتّحاد». وكانت لا تفتر عن العمل، حتّىٰ إنها في رمقها الأخير كانت تتمتم: «أيْ ربّي منك الصفح.. عملٌ آخر في عالمٍ آخر».

هٰذه هي صفحةٌ من نضال المرأة للارتقاء بالمجتمع، وصورةٌ من قدرتها علىٰ التغلغل الروحيّ للقضاء علىٰ ظلمة النفس، وتنقية الإنسان. ولا إخالك، مستمعي، إلّا وأدركت الرابطة بين الجدل المحتدم، وكفاح تلك المرأة...

نابليون الحركة النسائيّة

سوزان أنطوني

(١٨٢٠ ـ ١٩٠٦)

هٰكذا أُطلق عليها في بلادها «الولايات المتّحدة الأمريكيّة»، حيث عاشت وناضلت، وقد علّق أحدهم علىٰ هٰذه التسمية بقوله: «لم يكن لها في الواقع قسوة نابليون بونابرت، ولكنْ كان لها بعضُ عبقريّته: كبراعتها المدهشة في التنظيم، وقدرتها العجيبة التي لا تفتر علىٰ العمل، وعدم إحساسها بالتعب، وثباتها أمام الهزيمة. فكلّما تراكمت الصّعاب أمامها، كانت تزداد اّندفاعًا وحماسةً في العراك والنضال».

كانت «سوزان أنطوني» هٰذه هي رأس الحركة النسائيّة في الولايات المتّحدة الأمريكيّة خلال القرن التاسع عشر، عندما كانت هٰذه الحركة في كلّ أنحاء العالم لا تزال ضعيفةً إنْ لم تكن معدومة. وهي التي نظّمت أوّل جمعيّة نسائيّة في أمريكا لمحاربة الإدمان علىٰ المسكرات سنة ١٨٥٢. وفي سنة ١٨٥٤ بدأت بالمطالبة بحقوق المرأة، وأسهمت إسهامًا فعّالًا في الجمعيّة الأمريكيّة لتحرير الرقيق الأسود سنة ١٨٥٦، وأنشأت صحيفة أسبوعيّة «الثورة» للمطالبة بحقوق المرأة سنة ١٨٦٨، وغدت نائبة الرئيسة في «الاّتّحاد النسائيّ الوطنيّ لاّقتراع المرأة». وقُبض عليها سنة ١٨٧٢ وهي تقترع في اّنتخابات الرئاسة، وتعاونت في تدوين كتاب «تاريخ حقّ الاقتراع للمرأة» الذي صدر في أربعة مجلدات بين سنتي ١٨٨٤ـ١٨٨٧، ومثّلت سنة ١٨٩٩ بلدها في «المجلس العالميّ للنساء» في لندن.

إنّ ما قامت به «سوزان أنطوني» بالنسبة للمرأة في الولايات المتّحدة الأمريكيّة يبقىٰ سجلًّا مشرّفًا، لا بدّ أنْ تعرف عنه كلّ امرأةٍ في العالم اليوم، كما يجب أن تعرف عن كلّ اللائي ناضلن في سبيل تحرير المرأة، والرفع من شأنها، في تلك المراحل الماضية. لأنّ ما وصلت إليه المرأة اليوم من تحرّرٍ وتحقيقٍ للذات، ومساواة مع أخيها الرجل، وفي كثيرٍ من المجالات، وفي معظم أنحاء العالم، لم يتمّ بالسهولةً التي قد تتخيّلها النساء في وقتنا الحاضر.

ولدت «سوزان أنطوني» في مدينة «أدامز» من ولاية «ماساشوستس» في الولايات المتّحدة سنة ١٨٢٠م. وأظهرت منذ طفولتها بأنها لم تكن كغيرها من الفتيات الطيّعات، اللاتي ينصعن لما يُؤمرن به، أو يُطلب منهنّ. فقد كان شعار مديرة مدرستها «ديبورا مولسون»: أنّ علىٰ الفتيات أن يتصرفنّ تصرّف الفتيات المتّزنات في القرون السالفة، إذ يجب دائمًا الحفاظ علىٰ التقاليد. ولكن «سوزان» لم تكن لتؤمن لا بالتقليد، ولا بالاّنضباط الصارم اللذين تطلبهما مديرتها. وكان هٰذا في نظر مديرة «مدرسة الندوة المختارة للنساء» التي كانت تتعلّم فيها، جرمًا لا يغتفر. فقد كانت التربية في هٰذه المدرسة تستند علىٰ مبادئَ ثلاثة: الأخلاق الرفيعة، حبّ الفضيلة، والتواضع. وكانت المديرة تنصح طالباتها دومًا بأنّ الأطفال يجب ألّا يظهروا كثيرًا، وألّا يُستمع إليهم البتّة. وما كان بإمكان «سوزان» أن تكون متواضعةً ومنزوية، لا تُرىٰ ولا تُسمع، فقد حاولت ذٰلك ولكنْ دون جدوىٰ. وكم وبّختها مديرتها علىٰ تصرفاتها، وأحيانًا علنًا وأمام المجموع، بل وحبستها في أماكنَ غير محبّبة. وقد أثّرت تلك العقوبات في نفسها تأثيرًا عكسيًا، فجعلتها أكثر تمرّدًا وتنمّرًا. وقد كتبت في مذكّراتها عن ذٰلك قائلة: «لقد جعلتني مواعظُ مس «ديبورا مولسون» أشعر وكأنّني دودة. ولكن هناك مرّات، فضّلت أن أكون دودةً من أن أكون طالبةً عندها. إذ يمكنني آنذاك أن أتلوّىٰ وأتحرك علىٰ الأرض بحرّية، ودون العين الرقيبة لها ولزميلاتي الدودات».

وخرجت «سوزان أنطوني» من مدرسة «مس مولسون» بأمرين: أوّلهما: أسلوبٌ تعبيريٌّ ضعيف وقاس. فقد كانت تقول: «كلّما أخذتُ قلمي بيدي لأكتب، أشعر بأنّني قد وقفت علىٰ طوّالة خشبيّة». وثانيهما: عَدمُ آحترام للتقاليد الهشّة التي هي أشبه بكثيّبات النمل. وفي الحقيقة، ورثت تمرّدها من أبيها، الذي تحدّىٰ قواعد مذهبه الدينيّ وهو «الكويكرز»* بزواجه من «معمدانيّة» أي من الفئة التي تؤمن بأنّ التعميد يجب ألّا يجري في الطفولة، وإنما بعد البلوغ، وبعد الإيمان بالمسيحيّة، والتوبة، ويكون بالغمر في الماء، لا بالطريقة المتّبعة في الكنائس. ولم تكن زوجته هٰذه «لوسي ريد» معمدانيّةً متعصّبة: فقد كانت مُغرمةً بكلمات الإطراء، والملابس الجميلة، وكانت تغنّي وهي علىٰ مغزلها، وهٰذا أمرٌ كان يُنظر إليه آنذاك علىٰ أنه عمل طائش، ومخالفٌ للعرف والأخلاق. وكانت ترقص حتّىٰ الساعة الرابعة صباحًا، قبل بضعة أيام من زواجها. وكان هٰذا أيضًا،

* الكويكرز Quaquers: الكلمة آتيةٌ من الإنكليزيّة ومن فعل «to Quaquer» أي «يرتجف». وينسب آستخدام الكلمة إلىٰ أحد زعمائهم في القرن السابع عشر «جورج فوكس»، الذي قالها للقاضي «بنيت»: «بأنّ عليه أنْ يمجّد الله وأنْ يرتجف أمام كلمته». وكانت هٰذه الجماعة تُدعىٰ «جمعيّة الأصدقاء»، وهي التي كوّنت في أمريكا سنة ١٦٣٨ مستعمرة «رود أيلاند». ومُشرّع الجماعة هو «وليام بن» الشهير، الذي تنسب إليه ولاية «بنسلفانيا» في الولايات المتّحدة. وهم يدعون إلىٰ ما يلي: السلطة العليا للكلمة العليا، لروح القدس، فهي التي تقود المسيحيّ في جميع ظروف الحياة (فالكتاب المقدّس ليس هو أساس العقيدة) ـ إلغاء جميع الأسرار ـ إنكار حقّ الدفاع الشرعيّ ـ إلغاء الإدارة المنظّمة الكهنوتيّة ـ معارضة أفكار كالفن الخاصة بالقدر المطلق ـ التسويغ بالإيمان وحده ـ المخاطبة بضمير المفرد.. إلىٰ غير ذٰلك من أمور. وآزداد عددهم في القرن السابع عشر، وآضطُهدوا في بادئ الأمر، ثمّ خفت مقاومتهم. وأدّت مدارسهم العديدة، وتفكيرهم الليبراليّ، وحماستهم للعمل إلىٰ آنتشارهم ورخائهم. ولكن موقفهم المعاديّ للحرب في الثورة الأمريكيّة سنة ١٧٧٦ أضعف مركزهم. إلّا أنهم لعبوا دورًا هامًّا ضدّ الرقيق، وفي نشر حركة التعليم العام، وإصلاح السجون. وغدت حركتهم عالميّة في الحرب العالميّة الأولىٰ، وفي سنة ١٩٤٧، نالت جمعياتهم الإنكليزيّة والأمريكيّة جائزة نوبل للسلام. ويُعدّون اليوم (٢٠٠٠٠٠) مئتي ألف فرد في العالم، تربطهم لجنة عالميّة.

في العقد الثاني من القرن التاسع عشر، خطيئةً لا تُغتفر. ومع ذلك، فقد غدت زوجةً نموذجيّة، وأمًّا مرهفة الحسّ، وربّة بيتٍ مُثلىٰ. وقد ورث أولادها الثمانية حساسيتها الشديدة، وتمرّد أبيهم، وكانت «سوزان» الثانية في التّعداد بين الأولاد.

وقضت سوزان سنيها الأولىٰ في جوّ «مشقة مريح»، فأبوها كان يملك محلجًا صغيرًا للقطن، وكان الأطفال الأكبر سنًّا، وهي منهم، مشغولين دائمًا بمساعدة والدتهم، لا في العناية بالأطفال الأصغر سنًّا فحسب، وإنما في العناية أيضًا بأولٰئك الذين يعملون في المحلج وإطعامهم. ففي إحدىٰ الصيفيّات كان علىٰ «مسز أنطوني» أن تعتني بأحد عشر ضيفًا، وطفلٍ رضيع بين ذراعيها. فلم يعد لديها الآن وقت لتُغنّي علىٰ مغزلها، ولا للأطفال وقت كي يلعبوا. فهناك ساعاتٌ طويلة يجب أن تُكرّس للغسيل، والكيّ، والحياكة، والخياطة، والطبخ، والخبز. فقد أشارت «سوزان» في إحدىٰ صفحات مذكّراتها، بأنه كان علىٰ والدتها أنّ تصنع واحدًا وعشرين رغيفًا من الخبز يوميًا... وإنّ الراحة من عناء العمل لم يكن لها وجودٌ في عالم المرأة آنذاك. كان عملهنّ يتلخّص بالأمور الثلاثة: «القيام بتدبير المنزل، والخشية من الله، وحفظ ألسنتهنّ».

ولكنْ «سوزان» لم تكن ممن يحفظن ألسنتهنّ، فعندما خسر محلج أبيها في المرحلة المسمّاة في تاريخ الولايات المتّحدة بـ«مرحلة الذعر» سنة ١٨٣٨، للكساد الذي أصاب الأسواق، اضطّرت أنْ تساعد ميزانيّة الأسرة بالدولارين اللذين كانت تكسبهما أسبوعيًا كمعلّمة مدرسة. إلّا أنّ عقدها لم يُجدّد بعد انتهاء الفصل الأول، لأنّ كلامها، وعملها كانا يتّسمان بكثيرٍ من الحريّة والنقد. ولقد نُبّهت مرّاتٍ ومرّات، وحُذّرت بألّا تعرّض وضعها للخطر باشتراكها مع «زنوج» المجتمع، إلّا أنها أجابت علىٰ تلك التحذيرات بتحدّيها الصّاعق قائلةً: «مذ كنت في المدرسة وحتّىٰ اليوم، أشعر برضا نفسيّ لا يوصف بالكلمات، عند زيارتي أربعة أفراد ملوّنين وشربي الشاي معهم».

وبقدر ما كانت تشعر بالشفقة والحزن على «القطيع الأسود» من العائلة البشريّة، فإنها كانت تشعر بالحنَق، والاَحتقار للمتنمّرين البيض. وقد اَنتقلت للتدريس في مدرسةٍ ثانية، ولم تكن هي الأخرى سوى مقرّ للظّلم والفوضى. فقد طُرد منها معلمٌ لإخفاقه في أنْ يكون لا نظاميًّا، أو لا منضبطًا. فقد اَنتسب لهذه المدرسة طلابٌ مشاغبون، لم يأتوا لرغبةٍ في العلم أو الدراسة، وإنما لممارسة رياضة تعذيب المعلّمين وضربهم. إلّا أنهم لم يلبثوا أنْ رأوا أنّ «مس أنطوني» لم تكن تلك المعلمة التي تُعذّب وتُضرب. إذ قطعت قضيبًا ثخينًا من شجرة البتولا، وجَلَدت به زعيم المشاغبين، وأوصلته إلى درجةٍ من الذلّ والخنوع جعلت جميع مَنْ في المدرسة يقدّم لها فروضَ الاَحترام اللائق، حتّى قالوا عنها: «إنها اَمرأةٌ لها عَصَب رجل».

وكان لها في الواقع أيضًا عقلُ رجل! فعندما عُيّنت مديرةً لقسم البنات في «أكاديميّة كاناجوهاري» Canajoharie في نيويورك، تركت أثرًا عميقًا في مواطني هٰذه القرية. حتّى قال عنها أحد كبار مسؤولي المدرسة: «إنها أبرع رجلٍ أتى إلى كاناجوهاري».

وقد عَرض عليها عديدٌ من كبار الشخصيّات المحليّة الزواج. وفي الحقيقة، لم يجذبهم إليها أنوثتها، أو عقلها وحكمتها، بقدر ما جذبتهم قوّتها، ومراسها، وجَلَدها على العمل. فقد قال أحدهم، وكان يملك ستّين بقرةً في مزرعته: «إنها اَمرأةٌ لطيفة، ويمكنها أن تقوم بعملٍ ممتاز في حلب البقرات الستين». ورفضت «سوزان» بالطبع عروض الزواج تلك بأدبٍ وإصرار، وقالت لهم: «لا! شكرًا لكم، أنا لا أريد أن أكون خادمةً شرعيّة لأيّ رجل».

لقد فضّلت أن تكون مخلصةً لاَستقلالها، إذ كان قلبها وكتفاها قويين لتحمّل أعباء حياتها. ولكن كانت تتساءل دائمًا: ما هي حالُ ملايين النساء اللائي لم تكنّ قوياتٍ القوّةَ الكافية، ولا شجاعات، ليقفْن في وجه مظالم العالم، ذٰلك العالم الذي صُنع للرجال فقط؟! ففي يومٍ من أيّام صيف

١٨٤٨، سمعت عن «مؤتمرٍ نسائيّ» آنعقد في «سنيكافولز Seneca Falls» في نيويورك، لمناقشة «حقوق المرأة الآجتماعيّة والمدنيّة والدينيّة». فأثارتها الفكرة، وحفّزتها لدراسة وضع المرأة الآجتماعيّ والمدنيّ في الولايات المتّحدة. ويا هول ما آتّضح لها من أمور: فالقانون المدنيّ في الولايات المتّحدة الأمريكيّة مثلُه، مثل القوانين المدنيّة في كثير من بقاع العالم آنذاك، قد جعل المرأة في وضع متدنٍّ وغير مشرِّف. فبحسب هٰذا القانون: كلّ آمرأة هي قاصر، ولا يُمكنها أبدًا أن تصل إلىٰ مرحلة النضوج القانونيّ. فإذا كانت متزوّجة فهي ملكٌ لزوجها، وإذا بقيت عازبةً، فإنها كانت ملزمةً علىٰ تسليم أملاكها إلىٰ حارسٍ من الرجال، ولا يجوز لآمرأةٍ متزوّجة أن تقاضي في المحكمة لفسخ عقدٍ، أو للآحتفاظ بأجورها التي تكسبها من عملها، أو لحصولها علىٰ تعويضٍ مقابل أذىٰ أصاب به أحدهم شخصها أو شخصيّتها. ففي كلّ حالةٍ، الزوج هو دائمًا المستفيد. وهو لم يكن المتحكّم الوحيد في قَدَرِها، وإنما مالكُ أطفالها أيضًا. فيمكنه أن يتصرّف بالأولاد دون موافقة الأم؛ وحتّىٰ إذا ثبت بأنه متخلّفٌ عقليًّا، أو مدمنٌ علىٰ المسكرات، فإنه هو الوصيّ الوحيد علىٰ الأولاد في حالة الطلاق. وكان يُسمح للرجل بضرب زوجته، وأطفاله، وكلبه. ولا يجوز للمرأة أن تطلّق زوجها حتّىٰ في حالة قسوته تجاهها. فكلّ آمرأةٍ أمريكيّة كانت بآختصار، عبدة.

فعندما حاولت النساء أنْ يحطّمن قيود عبوديتهنّ، قوبلن في كلّ مكان بنباحٍ من السخرية والآستهزاء: فَوُصفت المؤتمِرات في «سنيكافولز»، «بأنهنّ ملحدَاتٍ، ومخنّثات، وحيّات بأثواب طويلة». إلّا أنه مع ذٰلك وجدت بعض الأصوات المشجّعة، التي تجرّأت وأعلنت موافقتها علىٰ «إعلان آستقلال النساء». وأحد هٰذه الأصوات كان صوت والد «سوزان»، «دانييل أنطوني». فهو وهو يعمل في حلج القطن، كان ينظر إلىٰ عماله علىٰ أنهم كائنات بشريّة سويّة، بينما كان أرباب معامل الحلج الأخرىٰ ينظرون إليهم كآلات، وبصفةٍ

خاصّة للنساء منهم. فقد كانوا يعطون النساء واحدًا وثلاثين سنتًا مقابل أربع عشرة ساعةٍ من العمل، والأجر نفسه علىٰ كلّ الأعمال الأخرىٰ المفتوحة أمام المرأة. فهي تحصل علىٰ أربعين سنتًا في خياطة معطف، و(١٢) سنتًا في خياطة بنطال؛ والأسوأ من كلّ ذٰلك، أنّ العاملات المتزوّجات لا حقّ لهنّ في أجورهنّ، وإنما كنّ ملزماتٍ بالقانون، أن يقدّمن كلّ سنتٍ يتقاضَيْنه لأزواجهنّ. وعديدٌ من أولٰئك الأزواج كانوا يصرفونها علىٰ تعاطي الخمرة، أو علىٰ نساءٍ أُخريات.

وكان «آل أنطوني» يناقشون هٰذه الأمور وهم علىٰ مائدة العشاء. وذكر «دانييل أنطوني» مرةً لآبنته عن مؤتمرٍ لحقوق المرأة، عُقد في «روشستر» وحضره هو. وسرد عليها قصّةً مسلّية جرت في ذٰلك المؤتمر، فقد قام أحدُ رجال الدين المتزوّجين، وهاجم إحدىٰ المؤتمِرات المحاضِرات وهي «مسز إليزابيت كادي سانتون» ـ وكانت من زعيمات الحركة النسائيّة ـ بقوله: «إنّ الحواريّ «بولس» أوصىٰ النساء بالصّمت، فَلِمَ لا تتذكّرين ذٰلك وتعملين به؟» فأجابته «مسز سانتون» بسرعة: «إنّ الحواريّ بولس نفسه أوصىٰ رجال الدين أيضًا بعدم الزواج، فلمَ لا تتذكّر أنت أيضًا ذٰلك؟». وأعجبت الأقصوصة «سوزان أنطوني»، كما أعجبتها «مسز سانتون»، وأرادت أن تلتقي بها.

ولكنها لم تلتقِ بها إلّا بعد سنوات، لأنّ سوزان كانت منشغلةً أثناء مؤتمر «سنيكا فولز» بإصلاح الرجال أكثر من آنشغالها بتحرير النساء. فهي ثائرةٌ كأبيها علىٰ الأوضاع الآجتماعيّة السيّئة، ومن ثمّ آنضمّت إلىٰ جماعة الداعين لإلغاء الخمرة، لا منعها فحسب؛ فمثلما كانت هناك لعنة الرقّ الأسود والعبوديّة الزنجيّة في الولايات المتّحدة، كان هناك داءٌ خطر مستشر، وهو «الإدمان علىٰ الخمرة». فشُربُ المسكرات والإدمان عليها كانا منتِشرَيْن آنتشارًا خطيرًا؛ فكلّ فردٍ تقريبًا كان يشرب حتّىٰ الثّمالة، ودون وعي. ففي

دعوةٍ أُقيمت علىٰ شرف إحدىٰ الشخصيّات الكبيرة، وكانت تضمُّ ألفًا ومئتين من المدعوّين، ٱستُهلكَ ألفانِ وأربعمئة زجاجةٍ من الشمبانيا، كمقدّمة لفتح الشهيّة لمشروباتٍ كحوليّة أُخرىٰ، أيّ بمعدل زجاجتين لكلّ فرد. كان الآنغماس في تعاطي الكحول ـ بحسب بعض التفسيرات ـ هو ردُّ فعلٍ للحركة البوريتانيّة في ذٰلك العصر. فضمير أمريكا كان يمنع الشعب من اللّعب. ولكنّ الشعب ٱنتقامًا منه، أغرق نفسه في فيضانٍ من الويسكي. ويمكن القول، إنّ جميع السّكان من الرجال، من العمال في المصانع، إلىٰ القضاة في المحاكم، كانوا يعاقرون بنت الحان بشكلٍ دائم.

هٰكذا كان الحال، عندما قررّت «سوزان أنطوني» أن تنتسبَ إلىٰ حركة «محاربة الإدمان علىٰ الخمرة» ولم تكن تفكّر آنذاك في حقّ التّصويت للمرأة، ولا في تصويت الرجل. فقد رُبّيت في مجتمع «الكويكرز»، وهٰؤلاء فوضويّون متفلسفون، لا يعتقدون بالتصويت، ولكن آل «أنطوني» يعتقدون بما تقوله أفكارهم فقط، وبصفة خاصّة منهم «سوزان». ففي يوم، وهي في «مؤتمر مقاومة الإدمان» في «ألباني»، سنة ١٨٥٢، وقفت لتلقي كلمة. وإذا برئيس الجلسة يُسكتها فجأة، ويقول بفظاظة: «إنّ علىٰ النساء أن يُصغين ويتعلّمن ويعمَلْن فقط، ولكن يجب ألّا يتكلّمن». فحنقت «سوزان»، وثارت ثائرتها علىٰ فظاظة «جنس الرجل» المسيطر، وغروره، وتجبّره، فخرجت من القاعة ناقمةً وقد صمّمت علىٰ أمرٍ هام: فإذا رفض الرجال أن يعطوا النساء الآحترام ذاته المُعطىٰ للرجل، فعلىٰ النساء أنْ يبدأن بالمطالبة بحقوق متساوية معه. وفي ذٰلك اليوم وُلدت «الحركة النسائيّة المناضلة».

وبمجرد أن ٱلتحقت «سوزان» بالحركة النسائيّة، غدت إحدىٰ زعيماتها؛ فكلّ من كان في الحركة من النساء ٱعترف بشخصيّتها الحركيّة، وفكريّتها المتفوّقة وغير العاديّة. ومع ذٰلك كانت تعرف حدودها ولا تشتطّ. كانت منظّمة كبيرة ومُجيدة، ولكنها لم تكن كاتبةً بليغة، ولا خطيبةً فصيحة. فعوّضت ما ينقصها منهما

بزميلتين لها، كانتا أيضًا من قادة هٰذه الحركة. فنظّم ثلاثتهنّ ما يسمّىٰ «بالثلاثيّ النسائيّ» علىٰ نمط الثلاثيّ من الرجال أثناء الحكم الرومانيّ. وقد تقاسمن العمل، كلّ واحدةٍ بحسب قدراتها ومواهبها: فسوزان تقدّم مخطّطات المعركة، وزميلتها الأولىٰ تصيغ تلك المخطّطات بالكلمات المناسبة، وزميلتها الثانية، تلقي بقدرتها البلاغيّة الخطب الضروريّة، حتّىٰ سُميت بـ «ملكة منصّة الخطابة». وقد تصادقت النساءُ الثلاث، رغم البون في أوساطهنّ الاّجتماعيّة، إذ جمعهنّ الهدف الكبير الواحد.

وقامت الثلاث معًا بالرحلة في أنحاء البلاد: ينظّمن الاّجتماعات، ويشجّعن النساء، ويهاجمن عنجهيّة الرجال. وكان نضالًا طويلًا وشرسًا. وفي بادئ الأمر لم تُبد الصحافة أيّ اكتراث بما كان يجري: «فمن كان يهتمّ بقراءة ما تقوله هٰؤلاء النساء المخبولات الصاخبات؟!». ولكن شيئًا فشيئًا، بدأ محرّرو الصحف يهتمّون، وحاولوا أن يُغرقوا الحركة بطوفان من الغمز، واللمز، والسّخرية، والتهكّم الرخيص. فقد كتبت جريدة «هيرالد» في نيويورك، في ١٢سبتمبر ١٨٥٢: «ماذا تريد قائدات منظّمة حقوق المرأة؟ إنهنّ يردن أنْ يشغلن الوظائف التي يطمح بها الرجال؟ إنهنّ يردن أن يكنّ محامياتٍ، وطبيبات، وقباطنة مراكب، وجنراليّة حرب! فكم يبدو مضحكًا أن نقرأ في الصحف أنّ «لوسي ستون» (وهي من قادة الحركة) قد جاءها ألم المخاض وهي تترافع في المحكمة! أو أنّ الواعظة المحترمة «أنطوانيت براون» توقفت عن موعظتها للسبب نفسه! أو أنّ «الدكتورة هاريوت هنت»، وجدت من الضروري أنْ تستدعي طبيبًا علىٰ عجل ليولّدها بتوأمين، وهي تعالج مريضًا مصابًا بناسور الشرج»!!

ولكن عندما رأىٰ محرّرو الصحف، أنّ الحركة تكسب أنصارًا، تحوّلوا من التهكّم والسخرية، إلىٰ الهجوم والشّجب. فقد كان من جملة مطالب «الثلاثي النسائيّ»، «طلاق المرأة من المدمن علىٰ الخمرة»، و«تنظيم الأسرة لنساء

المدمنين». فكتبت جريدة «سيراكوز ستار» تقول: «إنّ مثل هٰذه الهرطقات، تجعل شياطين جهنّم ترتجف من سماعها». فحتّىٰ المتعاطفين مع مبادئ هٰذه الحركة الإنسانيّة، أذهلهم، بل وأغاظهم، أن يروا المرأة تتكلّم أمام الجمهور. فقد قال أحد الصحفيين المشهورين، بعد آستماعه إلىٰ بعض خطب «الثلاثي المناضل»: «لقد كان خطابًا رائعًا، ولكنني أفضّل أنْ أرىٰ زوجتي، أو آبنتي في التابوت، من أن أسمعها تتكلّم أمام آجتماعٍ عام»!

وتضافر مع الصحفيين في الحملة ضدّ «الحركة النسائيّة»، السياسيّون. فعندما تقدّمت «سوزان أنطوني» بمطلبٍ يوضح حقوق المرأة إلىٰ «مجلس التشريع في نيويورك»، أخذ أعضاؤه يستشهدون في رفضهم للمطلب بما ورد في الكتاب المقدّس. فقد قال أحد أعضاء المجلس: «هل لنا يا سيدي أن نؤيّد مثل هٰذه المطالب المنافية للعقل، والمخزية، بل والمجرمة؟ هل لنا أن نضع دمغة الحقيقة علىٰ هٰذه الخرافة بأنّ الرجال والنساء متساوون؟ نحن نعلم أنّ الله خلق الرجل ممثّلًا للجنس البشريّ علىٰ الأرض، وبعد خلقه، خلق من ضلعه المرأة. وهٰكذا أصبح الإثنان جسمًا واحدًا وكائنًا واحدًا، ولكنّ الرأس هو للرجل». وتابع هٰذا العضو قائلًا: «وإذا أصرّت النساء علىٰ المطالبة بما يسمونه حقوقهم، فلن يكون هناك من طريقة لحفظ شرف الرجل إلّا بسجن النساء وراء القضبان والمزلاج».

ولكنّ النساء بالطبع، رفضن هٰذا المنطق، ودخلت أعدادٌ من النساء المتميّزات في الحركة، وكرّسن أفكارهنّ وجهودهنّ للقضيّة. بل وآتّخذن مواقف عمليّة ليثبتن للرجل بأنهنّ مستعداتٌ أن يغيّرن من كلّ نمط ملابسهنّ ومظهرهنّ من أجل المساواة: فقصصن شعورهنّ، وآرتدين البنطالات الطويلة، والملابس الفضفاضة. وكانت جراةً كبيرة آنذاك أن تتخلّص المرأة من سبع طبقاتٍ من اللباس الداخليّ، لترتدي الزيّ الجديد فقط، فبهٰذا الزيّ غدت المرأة حرّةً كالرجل.

وتابعت النساء بإصرار مطالبتهن بالحريّة وبحقوقهنّ. وكانت أشدّهنّ حماسة «سوزان أنطوني» حتّىٰ أسموها ـ كما ذُكر سابقًا ـ «نابليون الحركة النسائيّة». وقد جعلتها ممارستها الدائمة للخطابة، خطيبةً بارعة، علىٰ الرغم من اَرتباك أسلوبها السّابق. فأخذت تجوب البلاد من أقصاها إلىٰ أقصاها، محرّكةً للجماهير، ومعلّمة لها، ومنظّمة.. كلّ شيءٍ بنفسها. وعندما سقطت زميلتاها في منتصف الطريق، وشعرنا بالسّرور للراحة من عمليهما، فإنها ثابرت علىٰ خطوها بحماسةٍ أشدّ واَندفاع أقوىٰ. وكانت قدرات تحمّلها الجسميّ إحدىٰ معجزات القرن، حتّىٰ غدا هيكلها الجسميّ الطويل والنحيل أسطورة، وهي تخوض مسرعةً وسط الثلج المتراكم، وتحت المطر المتدفّق، وتحارب الزمن والطّقس، وتغوص في طبقات الجليد الكثيفة، وتصارع الرياح والعواصف الهوجاء، وقلقٌ دائم بين جوانحها يستحثّها لإيصال رسالتها من قريةٍ إلىٰ قرية، ومن مدينةٍ إلىٰ أخرىٰ. وفي إحدىٰ المرّات، توقف القطار الذي يُقلّها فوق جبال الروكي، وسط ثلوج يبلغ سمكها أحد عشر قدمًا، ومع ذٰلك فقد وجدت الوسيلة من جهدِها، وفكرهاَ، وعرقها لتحافظ علىٰ موعد محاضرتها التالية.

ولكن مرّة بعد مرّة تهاوت صحّتها، ومع ذٰلك، فقد كانت تقف علىٰ منصّة الخطابة، وقد تثلّجت قدماها أو اَنحنىٰ ظهرها نصفين من الألم. وقد أُجبرت مرّة في الشتاء علىٰ أخذ «علاج الماء». وقد أخذته بصبرٍ وتحمّل عجيبين: «فقد كانت نوعًا عجيبًا من الأرواح السبارطيّة البطوليّة» ـ كما قال عنها أحدهم ـ: فقد كان عليها أن تتحمّل الشراشف الرطبة، والإقامة فترات علىٰ مساحات من الجليد، وأخذ حمّامات نصفيّة تتبعها دوشات شديدة باردة، مع رياضةٍ مجهدة للقلب. وكان هٰذا العذاب يكرّر أربع مرات في اليوم.

ظلّت «سوزان أنطوني» في طليعة الحركة النسائيّة ورائدتها لنصف قرن. وكانت تُرىٰ غاديةً رائحة في أنحاء البلاد، جامعةً الآلاف من الدولارات للقضيّة، ومكتفيةً هي بأجر إثني عشر دولارًا أسبوعيًّا. وقد أخذ أصدقاؤها المعجبون بنشاطها، ينظرون إليها كإنسانٍ خالد، قُدّر عليه الفقر، وداء المفاصل، إلّا أنه بقي شعلةً متوهّجة ومشعّة.

وعلىٰ الرغم من كلّ فقرها وآلامها، فإنها ظلّت محتفظةً بروح نكتتها، فلسانها، علىٰ الرغم من أنها سعت ما أمكنها ألّا يكون لاذعًا، فإنه كان لا يتوانىٰ عن اللسع في بعض الظروف. ففي إحدىٰ المقابلات التي كانت تجريها مع الصحافة، سخر منها أحدهم قائلًا: «مس أنطوني، إنك تدركين، أليس كذٰلك، بأنّك إذا حصلت علىٰ حقّ التّصويت فعليك أن تستعدّي أيضًا للحرب فكريّة الاقتراع متلازمة مع كرة الرصاص». فأجابته علىٰ الفور: «من المؤكّد يا سيدي، ولِمَ لا، كما حاربت أنت في «الحرب الأهليّة!».

عاشت «سوزان أنطوني» لترىٰ زهرة جهدها متفتّحة ولكنها لم تر الثمرة. ومرّة كانت تحاول أن تَنْتَخِب قُبض عليها وسجنت. إلّا أنها لم تعد أبدًا محطّ هزءٍ وسخرية، وإنما موضع تقديرٍ واحترام. لقد عملت النساء علىٰ تقديسها، وحتّىٰ الرجال أخذوا ينظرون إليها كواحدةٍ من صانعات التاريخ الأمريكيّ الكبير. وفي الواقع، صنعت جزءًا رئيسًا من هٰذا التاريخ: فنتيجةً لحركتها، فُتحت الأبواب للتعليم العالي النسائيّ سنة ١٨٨٥ وبمناهج تفضل مناهج كليات الرجال. وفي العقد التالي تبنّت أكثر من أربع عشرة جامعة من جامعات الولايات نظام التعليم المختلط. وفي سنة ١٨٨٠ زاد عدد الكليات للجنسين معًا عن (١٥٤) مئة وأربع وخمسين كلية.

وأخذت النساء، وقد صَلُبَ عودهنّ بالتعليم العالي، يدخلن مختلف المهن. ففي سنة ١٨٥٠، كان هناك بعض النساء يقمن بالتعليم في المدارس، وفي ١٩٠٠ غدا ثلثا معلمي المدارس في الولايات المتّحدة من النساء. وأخذت المرأة مكانها في ميادين الفنّ، والطبّ، والأدب، والإلٰهيات، والقانون. وفي سنة ١٨٧٩ سُمح للمرأة بأن تترافع أمام «المحكمة العليا».

وكان أهمّ من كلّ ذٰلك، تحرّر النساء من القيود القانونيّة المفروضة سابقًا. ففي نهاية القرن التاسع عشر، أُلغيت المعوقات ضد المرأة المتزوّجة، وأعطي لهنّ حقّ الملكيّة، وحقّ التصرف بما يملكن، وحق إقامة الدعاوىٰ، والاحتفاظ

بمكاسبهنّ من أعمالهنّ، وعقد العقود وحلّها، وممارسة الوصاية علىٰ أولادهنّ. ولم يعد الزواج استعبادًا للمرأة، وإنما غدا عقدًا بين شريكين متساويين.

عاشت «مس أنطوني» حتّىٰ رأت كلّ تلك الإصلاحات الجذريّة، ولكنها لم تر الثّمرة النهائيّة النّاضجة لعملها. فعلىٰ الرغم من أنّ بعض الولايات القليلة سنّت قانونًا يمنح حقّ التّصويت للمرأة، فإنّ تعديل الدستور لهٰذا الغرض لم يتمّ إلّا في سنة ١٩٢٠، بعد أربع عشرة سنة من وفاة «سوزان أنطوني».

ومع ذٰلك، ظلّت حتّىٰ آخر يوم مِن حياتها، تعمل لتجعل النّصر النهائيّ قريبًا، واحتفظت بحيويّتها حتّىٰ النهاية ولا سيّما الفكريّة. فقد كتبت عنها جريدة «هيرالد» شيكاغو سنة ١٨٩٥، قائلة: «لقد غدت أكثر نحولًا ولكنها أكثر توهّجًا من الناحية الذهنيّة. فبيديها الشفّافتين، ووجهها النحيل، وعينيها الذكيتين المشعّتين بالنور، بدت وكأنها البابا «ليئو الثالث عشر». فكلّ كيانها الجسميّ تحوّل إلىٰ نفسيّة أثيريّة شفّافة وهائلة».

وعلىٰ الرغم من نحولها، فإنّ قوّتها الجسميّة المكابرة والخفيّة، مكّنتها من أن تقوم بكلّ الأعمال: أن تسافر إلىٰ أوربّا، وتصعد جبل فيزوف، وفي سنّ الرابعة والثمانين، حضرت مؤتمرًا نسائيًّا في ألمانيا، وحاضرت، وكتبت، وتحدّثت، وناقشت، وكأنها نبع شبابٍ فوّار لا ينضب. وقد سُئلت مرة: كيف تحتفظين بطاقتك؟ فأجابت: «بأن أكون قائدةً لقضيةٍ غير شعبيّة».

وفي ألمانيا، وأثناء المؤتمر النسائيّ حدث لها ما عكّر مزاجها. فقد أرسلت رسائل إلىٰ أصدقائها في أمريكا، وفيها كلماتها المعروفة المؤمنة بها: «لا يمكن أن تؤلّف حكومةٌ عادلة دون موافقة المحكومين»، «إنّ فرض الضرائب دون تمثيل نيابيّ طغيان».. فأعيدت إليها تلك الرسائل مع الملاحظة التالية: «إنّ عواطف مثل هٰذه لا يمكن أن تمرّ عبر البريد الرسميّ الألماني».

توفيت «سوزان أنطوني» وهي في السادسة والثمانين من عمرها، وهي في تمام عدّة العمل؛ فقد كان هناك احتفال في واشنطن بعيد ميلادها، وكانت قد أصيبت بشلل، وأمرها الأطباء بالبقاء في السرير، ولكن «سوزان» ضحكت وقالت: «إذا كانت مطرقة منصّة الخطابة ستسقط من يدي، فلتسقط وأنا على قدمي». وكان هٰذا ما حدث بالفعل، إذ ذهبت للاحتفال، ووقفت لتقول كلمتها الأخيرة وهي: «إنّ ما أسأله ليس المديح والثناء، وإنّما العدالة. وإنّ العدالة لا بدّ آتيةٌ في نهاية المطاف، فالإخفاق مستحيل».

وتوفيت مباشرةً وهي في طريق عودتها إلى بيتها. وتمّ دفنها وسط عاصفةٍ ثلجيّة جارفة، وكأنها كانت تريد أن تذكِّر أنّ البطلة كانت طيلةَ حياتها تغوص في تراكمات الثلج وتقاوم عواصفه لتحقّق هدفها الأكبر.

فيلسوفة سلام

جين آدامز

(١٨٦٠ ـ ١٩٣٥)

في نهاية القرن الماضي، وقد أخذت قوىٰ المادة تصطرع وتطغىٰ، وأشباح الحرب تبدو وتتلاشىٰ، ونفوس الأفراد قلقةً حيرىٰ، وطبقةٌ من الناس تعيش في بؤر المصانع تكدح وتشقىٰ، وتنغمس في حياة آليّةٍ بوهيميّة سفلىٰ، وتفقد بالتّدريج أسسها الأخلاقيّة ومفاهيمها العليا، ٱنطلقت قوىٰ الروح تذبّ عن بناء الحضارة الغربيّة الحديثة تيّارات البؤس الطّاغية، التي ٱنفلتت من مكامنها، وكادت تحطّم مُثُلَ الحياة وقيمة الإنسان. ومن تلك القوىٰ التي ٱنبعثت تنير لمدنيّة الغرب، طريق التماسك، والسموّ الإنسانيّ، الفيلسوفة الٱجتماعيّة الأمريكيّة «جين آدامز». فقد ٱبتدعت هٰذه المرأة أسسًا جديدة تستند إليها الديموقراطيّة الحديثة في تقدّمها، وكرّست حياتها وما تملك، لنشر السلام العالميّ، وفتح باب الحياة الكريمة لتلك الطبقة العمّاليّة المنبوذة من المجتمع الرأسماليّ.

ولدت «جين آدامز» سنة ١٨٦٠، و«أبراهام لنكولن» بطل تحرير الرقيق في الولايات المتّحدة يتسنم رئاسة جمهوريّتها. وفقدت عطف الأمومة بعد سنتين، و«حرب الٱنفصال» بين الشمال والجنوب، دائرةٌ رحاها، فٱحتضنها والدها. ونشأت وقد ملأ ذٰلك الوالد الفذّ حياتها؛ فقد كان شخصيّةً مرموقة في ولاية «إيلينويس»، وعضوًا في مجلس الشيوخ، وثريًّا من أكبر أثرياء المنطقة، وأكثرهم نبلًا وكرمًا. وقد كتبت فيما بعد قائلةً عنه: «أنا أشعر بفخرٍ وكبرياء

لأنني ٱبنته.. فلقد رسم لي سلّم القيم عاليًا، وتحاور مع كبار رجال المبادئ والفكر وآمن بمثلهم الإنسانيّة. ولا أنسىٰ يومًا أتيت فيه المنزل وكنت في السنة الثالثة والنصف من عمري، فرأيت معلقًا في أعلىٰ الساحة الأماميّة علمًا أسود، فسألته عن ذٰلك، فقال لي: لقد تُوفي، أي ٱبنتي، أعظم رجلٍ في العالم. فسألته عن ٱسمه فقال: «أبراهام لنكولن». ومرّةً أخرىٰ رأيته حزينًا، صامتًا، فسألته عن سبب حزنه، فأخبرني، تُوفي اليوم الثّائر الكبير، ومحبّ الإنسانيّة، «جوزيف مازيني» الإيطالي». وهٰكذا قدّست «جين آدامز» أباها مثلًا أعلىٰ، وٱنصاعت لتقليده في جميع حركاته وسكناته، حتّىٰ إنها كانت تضغط إبهامها الساعات الطوال لتجعلها مفلطحةً، وعريضة، كإبهامه. وكانت تحسّ أمام شخصيّته الجذّابة الطاغية، أنها مخلوقٌ حقير الشأن، ضئيل الذات. فكانت تختبئ أثناء الٱجتماعات، في الزوايا حتّىٰ لا تُقارن به. وكم بكت في صلواتها، لأنّ الله لم يرزقه الولد الذكر الذي يليق به. ولكنّ والدها لم يترك مركّب النقص هٰذا يهدم شخصيّتها. فبثّ الثقة في نفسها، وأبدىٰ فخره بها، وإعجابه بتفكيرها. فٱنطلقت من ٱنكماشها تبحث عمّا يرضيه، ويرفع قدرها في عينيه. وٱنكبّت علىٰ دراسة الكتب التي قدّمها لها، ومنها تراجم المؤرّخ اليوناني «فلوطارخ»، وتراجم الشخصيّات الأمريكيّة التي أعلنت وثيقة الٱستقلال، وغيرها كثير. ٱنكبّت علىٰ الدراسة بروح متشوّقةٍ عطشىٰ، وخرجت من مطالعاتها الكثيرة هٰذه في سن السابعة عشرة، وهي توزّع إعجابها، وتقديسها، بين أبيها، ويسوع المسيح، والفيلسوف «إمرسون». إمرسن الذي نقلها بفلسفته عن وحدة الإنسان والوجود، والحريّة الفرديّة، والتّسامح العالميّ، والتّعاون بين الأمم والشعوب، إلىٰ عالمٍ لا متناهٍ من العواطف الأثيريّة المُثلىٰ. وقد بلغ تقديرها لحكيم الكونكورد، حدًّا جعلها تنحني، وهي ٱبنة أبيها، وٱبنة الثّراء والجاه، لتمسح حذاء أحد تلاميذه الذي كان يُلقي محاضرةً في مدرستها. كانت تشعر عندما تقرأ كلماته، وكلمات المسيح في الكتاب المقدّس، أنّ في روحها دافعًا إلىٰ تضحية حياتها، وتكريسها

لإزالة المآسي وتخفيف الآلام. فأندفعت وراء الطبّ علّها تداوي عن طريقه آلام البشريّة. فأنتسبت بعد تخرّجها من «الندوة النسائيّة» في روكفور، إلىٰ «كليّة الطبّ للنساء» في فيلادلفيا سنة ١٨٨١م. ولكنّ المرض أقعدها عن متابعة دراستها، فرحلت إلىٰ أوربّا للأستجمام. وفي لندن رُسم طريقها في الحياة: ففي منتصف ليلة من الليالي، و«الأمنيبوس» يشقّ بهدوءٍ وبطء «النهاية الشرقيّة» من لندن، أو ما يُسمّىٰ «بالأعماق السفلىٰ» من المدينة، شاهدت عربةً كبيرة تقف في منعطف الطريق، وتندفع نحوها جموعٌ من النساء، والرجال، بوجوهٍ مغبرّةٍ، وعيونٍ غائرة، مادّةً أيديها النحيلة المعروقة إلىٰ داخل العربة، لتتلقّف ما فيها من خضراواتٍ متفسّخة... إنها فضلاتٌ من الخضراوات تتناولها «العائلة البشريّة». وتمكّنت يدٌ من تلك الأيدي، بعد لأيٍ، أنْ تستولي علىٰ قطعةٍ من الملفوف، أنتحىٰ بها صاحبها السّعيد الحظّ، وأخذ ينهشها بنهم وشَرَه، وهي قطعةٌ أذبلتها الأيام، وأكلتها الديدان.. وبقيت الأيدي التّعِسة الأخرىٰ، تترقّب دورها، وما هو أقلّ قيمةً منها. وكتبت «جين آدامز» عن ذٰلك الحادث قائلةً: «لم أكن أشعر في النهاية، أنّ ما يتجلّىٰ أمامي هو وجوهٌ قذرة، وثيابٌ رثّة، وإنما كنت أرىٰ فقط سربًا من الأيدي، شقّقها العمل، وأضناها السؤال، سربًا يبدو أبيض تحت المصباح الباهت، يطلب غذاءً لا يصلح للطعام».

لقد حوّلها هٰذا المشهد من فتاةٍ وهبت نفسها للطبّ إلىٰ فيلسوفةٍ أجتماعيّة: فقد تذكّرت أمامه عبارات «إمرسن»، و«أقوال المسيح»: «أيها الفرد أهبط من علياء غرورك، وخذ مكانك بين زملائك، وأنخرط جنديًا في الصّفوف الأماميّة للألم». لقد نذرت نفسها بعد هٰذه الرؤية، بأنها ستعمل بعد عودتها من أوربّا، لإنقاذ أولٰئك البشر، الذين لفظتهم أُمهم، ودفعتهم إلىٰ هٰذا الأتون من البؤس والشقاء. وزاد إيمانها بعد أن حضرت في «مدريد»، حلبة مصارعة الثيران، وتجسّدت أمامها قسوة الإنسان. إنّ إنقاذ البشر من

قسوة البشر، عملٌ مضنٍ ومخيف. ولكن «جين» صمّمت علىٰ تحقيقه، رغم الخوف الذي كان يعتورها. وقرّرت أن يكون ميدان عملها مدينة «شيكاغو».

وكان عدد سكان هٰذه المدينة قد اْرتفع من ثمانية آلاف نسمة في سنة ١٨٤٤، إلىٰ مليون نسمة سنة ١٨٨٩م. وكان ثلاثة أرباعهم مهاجرين من أوربّا. فكانت شيكاغو في نهاية القرن التاسع عشر، صورةً مصغّرةً عن العالم، ضمّت في جوفها شتّىٰ الجنسيّات الأوربيّة الشرقيّة والغربيّة، وحمل أفراد هٰذه الجنسيّات معهم، اْختلاف دولهم وتعصّباتها، واْحتضنوا في صدورهم آمال أممهم وأحلامها، فنبوا عن المجتمع الأمريكيّ، وعاشوا متنافرين متباغضين. فكّرت «جين آدامز»، وهي المخلوق الضئيل، أنْ تجعل أولًا من هٰذا المجتمع المنقسم البائس، الذي جمعته لقمة العيش علىٰ صعيدٍ واحد، مجتمعًا إنسانيًّا منسجمًا. فإذا تمكّنت أنْ تعلّم هٰذه العناصر المتنافرة كيف تتناسىٰ أحقادها وأهواءها، وكيف توحّد آمالها، فإنه سيتحقّق لديها المجتمع الأمريكيّ المتآلف. ذٰلك المجتمع الذي ستسوده الحريّة والمساواة، ويكون نواةً لمجتمع عالميّ إنسانيّ منسجم. ولتحقيق هٰذا الحلم البديع، الذي كان حلم «إمرسن» أيضًا، اْبتدعت «جين» فلسفةً جديدة، هي «فلسفة الخدمة الاْجتماعيّة». فالعالم لا يحتاج إلىٰ تقدير الأمريكيّين لهٰؤلاء المهاجرين، ولا إلىٰ اْحترام الطبقات العليا للسّفلىٰ فحسب، وإنما هو بحاجة إلىٰ تعاونٍ متبادل بين الغريب والمواطن الأصليّ، بين طبقةٍ وطبقة، وسيربح من هٰذا التعاون، الغنيّ والفقير علىٰ السواء: فالغنيّ بحاجةٍ إلىٰ عطفٍ أوسع، والفقير بحاجةٍ إلىٰ لقمة عيش، ورفاهيةٍ أكبر.

ولوضع هٰذه الفلسفة المجرّدة علىٰ أساس من الواقع الملموس، اْستأجرت «جين آدامز» منزلًا صغيرًا في «هالستد ستريت Halsted Street»، حيث تعيش الطبقة العاملة الفقيرة، وحيث تتلاطم العواصف الصناعيّة الهوجاء، وتشتدّ الحاجة الماديّة، إنها صحراء شيكاغو! وأسمت واحتها هٰذه

«هلّ هاوس»، نسبةً إلىٰ أسم مهندسه وساكنه الأوّل. وهو منزلٌ جميل، بقاعاتٍ واسعة، ومصطلياتٍ مفتوحة، وساحاتٍ فسيحة تمتدّ في جنباته الثلاث. وزوّدته بأثاثٍ فخمٍ وفي الوقت ذاته بسيط: مناضدُ جميلة، ومكتباتٌ، وصورٌ علىٰ الجدران، وتحفٌ في كلّ مكان، أتت بها من أوربّا، وبكلمةٍ موجزة زوّدته بكلّ ما يُزوّد به شخصٌ ثريّ منزله الخاص. ثم فتحت أبوابه علىٰ مصراعيها، ودعت جمهورَ الحيّ لزيارته. «فكلّ من كان جائعًا فليأتِ ويأكل، وكلّ من كان تعبًا ليأت ويسترح».

ولكنّ عملها، لم يلاق في بادئ الأمر قبولًا، إذ نظر إليها سكّان تلك المنطقة الذين يعيشون في الاصطبلات القذرة، والأكواخ الخربة، والمظلمة الموحلة، وفي الحانات الموبوءة، نظرة ريبة وشكّ. ما الذي تريده منهم هٰذه المرأة الأرستقراطيّة؟ لا بد أنها تدبّر أمرًا، وأنّ وراء الأكمة ما وراءها. فأبتعدوا عن المنزل.

إلّا أنّ بعض الأفراد المغامرين منهم دخلوا ليروا فيه مخلوقًا بشريًّا مثلهم، وجارةً رقيقة ومرحّبة تحدب عليهم. ومن ذٰلك اليوم، تدفّق الزوار علىٰ المنزل: زوّارٌ أعياهم المرض، وحطّمهم التعب، وحطّت من قيمهم مشاكلهم الاجتماعيّة. فقدّمت «جين آدامز» لكلّ هٰؤلاء الضيوف، الطبّ، والدّواء، والمال. فغدت صديقةً متفهّمة، وكانت لا تتورّع عن أيّة خدمةٍ لهم. فلم تشرف علىٰ المنزل فقط، ولم تقدم العون لأبناء الحيّ فحسب، وإنما أفتتحت دار حضانةٍ للأطفال، الذين تعمل أمهاتهم في المصانع. وكانت تطعم هٰؤلاء الأطفال، وتعتني بهم، وتوفّر لهم وسائل التسلية، مقابل خمسة سنتات عن الطفل. وأقامت «روضة أطفال» للأطفال الأكبر سنًّا، وكانت تطعمهم، وتسلّيهم، وتعلّمهم، بخمسة سنتاتٍ في اليوم أيضًا.

ودرست حاجاتِ الأمهات والآباء أيضًا، فوجدت أنهم يشكون من جوعٍ مضاعف: ماديّ وروحيّ جماليّ. فأوجدت في المنزل مطبخًا عامرًا، وصالةً للعرضِ

الفنيّ. ورغم سخرية صديقاتها الغنيّات منها، فإنها لم تدهش حينما رأت أنّ صالة عرضها الفنيّة، قد لاقت قبولًا وإقبالًا أكثر من مطبخها. فاللاجئون الأوربيّون لم يأتوا بحثًا عن لقمة العيش فقط. وبالتّدريج، نما المنزل الصغير إلىٰ مركزٍ اَجتماعيّ كبير. واَنتشرت فكرة سياسة «الجار الطيّب» في المدن الأخرىٰ، وأقيمت مؤسساتٌ عديدة في كلّ أنحاء الولايات المتّحدة تدعو إلىٰ «الأمريكيّة العالميّة»: «بيوت صداقة» في كلّ حيّ، وزُوّدت بغرفٍ للمطالعة، واللعب، والعمل. وفي تلك الغرف، كانت تتقارب القلوب وتتفاهم. وكانت «جين آدامز» تقول: «لو تفهّمت أجناس البشر بعضها بعضًا، لاَنعدمت البغضاء والحروب. إنّ الإنسان واحدٌ في كلّ مكان، إذ أنّ روحه جزءٌ من الله، وحياته تتطلّب دومًا الصّداقة والحبّ. الصّداقة التي ليست هي هوًىٰ من الأهواء، وإنما عملٌ من أعمال الروح الإلٰهيّة، فيه أخذٌ وعطاء». وفي غرف البيت أقامت «جين آدامز» حفلات التّعارف بين الجنسيّات المختلفة، وبعضها متباغضةٌ ومتنافرة، وهدفها تمازجهم. وبالفعل، فقد تفاهم هٰؤلاء بلغة القلوب، بلغة الإنسان الواحد، لا بلغة الأمم المتنازعة. وأخذ ذٰلك الستار الحديديّ من الحقد والكراهية يسقط، وتتهاوىٰ عوامل التعصّب والأهواء. ونجحت «جين آدامز» إلىٰ حدٍّ كبير. وبذٰلك كانت أول من حاول بصورةٍ عمليّة، صهر اَختلافات مئات الأمم الشرقيّة والغربيّة، في بوتقة مثلٍ ديموقراطيّ واحد أعلىٰ، وأول من وضع أسسًا صالحةً لبناء التّفاهم بين الأجناس.

لم تنته خدمة «جين» عند هٰذا الحدّ، بل اَنتقلت إلىٰ المرحلة الثانية من البناء الاَجتماعيّ الإنسانيّ، الذي خطّطت له: كانت تريد أن ترىٰ «جنسًا» من الأطفال أكثر سعادةً، و«جنسًا» من البشر أكثر سلامًا. ولذا شرعت تعمل لتحقيق أمرين: تحريم عمل الأطفال في المصانع، وإقامة السلام العالميّ.

ففي سنة ١٨٩٠ كان عملُ الطفل في المصنع، وصمةَ عارٍ في جبين الحضارة الغربيّة. فقد قامت الرأسماليّة الأمريكيّة بقسمها الأكبر علىٰ أكتاف الأطفال

النحيلة، وقد كان الأطفال في المراكز الصناعيّة يُرهقون بالعمل، ولا يتقاضون مقابل ذٰلك سوىٰ أجورٍ زهيدة؛ أطفالٌ في سنّ السابعة، يعملون أحيانًا أربع عشرة ساعة يوميًا بأربعة سنتات في الساعة. بل كان هناك أطفال يساعدون آباءهم في مصانع النسيج، وهم في الرابعة أو الخامسة من أعمارهم. وكم هناك من الأطفال الذين ذهبوا ضحيّة الآلة التي أُلزموا علىٰ تسييرها، وهم لم يبلغوا بعد السنّ الملائمة التي تمكّنهم من ذٰلك.

تبنّت «جين آدامز» قضيّة الطفولة هٰذه، وقامت بدراسات مستقصية في مشكلات عمل الأطفال، حتّىٰ غدت المصدر الوحيد الموثوق في هٰذا المضمار. ونجحت في آستصدار قانون سنة ١٩٠٣، يُحرّم آستخدام الأطفال الذين تقلّ سنّهم عن السادسة عشرة قبل الساعة السابعة صباحًا أو بعد السابعة مساءً. ويُحرّم أيضًا آستخدام الأطفال الذين تقلّ سنّهم عن الرابعة عشرة، قبل الساعة السادسة صباحًا، وبعد السادسة مساءً. وآشتهر آسم «جين آدامز» في أنحاء الولايات المتّحدة الأمريكيّة، وغدت المرجع الأوّل لكلّ الولايات في تشريع الأطفال.

ولم تُخرج «جين آدامز» الأطفال من المصانع فقط، وإنما عملت علىٰ إخراجهم من الأزقّة والطرقات والأماكن الموبوءة. فبنت لهم الملاعب العامّة ونظّمتها. ولا يزال أطفال شيكاغو، يذكرون القدّيسة «جين» حتّىٰ اليوم بآحترام وتقديس. وقد نبّهت «جين آدامز» الأذهان في كتابها العميق، والمشوّق «روح الشباب» إلىٰ تلك النار المقدّسة، التي تشتعل في قلب كلّ طفل. «فإما أننا نقف ببلاهةٍ ننظر إليها وهي تتحوّل إلىٰ نارٍ لاهبة من الخطايا والمفاسد، أو نحوّلها إلىٰ لهبٍ مشتعل منير، يضيء عالمنا القذر ويطهّره». وتمكّنت في آلاف الحالات، وهي فردٌ واحد، أنْ تأخذ بيد أطفالٍ من عديدٍ من الجنسيّات، أتوا إليها في «منزل هل». فقسمٌ منهم قادتهم عبر الجامعات إلىٰ المهن والعمل، وآخرون أوجدت لهم العمل الملائم. وكلّهم غدوا مواطنين أكثر سعادة وتفهّمًا.

لم تكتف «جين» بإنقاذ الطفولة التّعِسة، وإزالة الفوارق الجنسيّة بين المواطنين، وإنما سعت بإصرارٍ وإلحاح، لإيجاد التّفاهم بين عائلات المجتمع الأكبر، وإحلال السلام، وتحقيق الإنسانيّة الواحدة المنسجمة والمتناغمة. وكان عملها صعبًا جدًا، وقد بدا ألّا أمل منه. ولكنها لم تفقد الأمل، حتّىٰ ولا في سنة ١٩١٤، عندما كان العالم يقف علىٰ فوهة بركان، متلظّيًا بأحقاده، غارقًا في بغضائه. ولم يتزعزع إيمانها في السنين التالية، عندما شاهدت بدء أفول الحضارة الغربيّة وظهور الدكتاتوريّات الطاغيّة. لقد كان لها صبر الفلاسفة، وكانت تعلم أنّ طريق التّفاهم الإنسانيّ، والتآلف بين البشر، طويلٌ وشاق، ولكنْ لا بدّ أنْ يأتي يوم، يتعلّم فيه العالم الدرس في نهاية المطاف، تحت تأثير قيادةٍ حكيمة. لأنها كانت مؤمنةً بعمق، بآستمرار البشريّة وآرتباط بعضها ببعض. ولكي يشاطرها قومها إيمانها، أخذت تتنقّل من مكانٍ إلىٰ مكان، تلقي المحاضرات، وتندّد بأنصار الحرب وممّوليها، وكان ذٰلك والحرب العالميّة الأولىٰ دائرةٌ رحاها، ولمّا تدخلها بعد بلادها الولايات المتّحدة الأمريكيّة. وقد وصفتها إحدىٰ صديقاتها في إحدىٰ محاضراتها قائلةً: «إنها آمرأةٌ صغيرة الحجم، قاتمة البشرة، لطيفة المحيّا، ذات صوتٍ ناعم ورقيق.. لقد كانت ترتدي طقمًا أزرق رماديًّا.. وقفت أمام الحضور، ويداها خلف ظهرها وقفة طفلة. كان وجهها حزينًا، رغم بريق عينيها، وآستعداد شفتيها للآبتسام.. وعندما قدّمها مقدّم الحفل بقوله: المواطنة الأولىٰ في شيكاغو، المواطنة الأولىٰ في أمريكا، المواطنة الأولىٰ في العالم، أسكتت بيدها التصفيق، وقالت: «أنا آسفة، لا بدّ أنّ السيّد المقدم أراد شخصًا آخر».

لقد نادت في محاضراتها بضرورة بقاء أمريكا بعيدةً عن المعمعة، وتنبّأت أنّ دخول الولايات المتّحدة الحرب لن يؤدّي إلىٰ السلام العالميّ الدائم، كما يدّعي كثيرون. فآنفكّ أصحابها عنها، وتجسّسوا عليها، وآتهموها بموالاتِها للألمان. وشعرت «جين» في تلك المرحلة، أنها في منفىٰ روحيّ، وأنها غريبةٌ في وطنها.

ولكنّ الوحدة الروحيّة لم تُقعدها عن عزمها، بل أخذت تبشّر بحماسةٍ، بالقيم الإنسانيّة الجديدة. فأفقدها ذلك شعبيّتها أكثر فأكثر، إلّا أنها كانت تؤمن أنّ الحرب التي دخلتها من أجل الدفاع عن مبادئها، لا تقلّ قدسيّةً عن الحرب التي يخوضها الجنود في الميدان. فهؤلاء كانوا مستعدّين للموت من أجل الحرب، أما هي فكانت مستعدةً للتألّم بل والموت، في سبيل السّلام. إنّ شجاعة الجندي يتقاسمها مع زملائه، أمّا عملها فهو بطولةٌ وٱستشهاد تتحمّله وحدها. وكوّنت «الحزب النسائيّ الأمريكيّ للسّلام».

وعندما ٱنتهت الحرب العالميّة الأولىٰ، وصفا إلىٰ حدٍّ ما الجوّ العالميّ، عادت «جين آدامز» لتجمع الخيوط التي تفرّقت، في نسيج جديد أوسع وأقوىٰ. فقد تلاقىٰ «الحزب النسائيّ الأمريكيّ للسلام» مع «الجامعة النسائيّة العالميّة للسلام والحريّة»، وغدت «جين آدامز» رئيسةً لها، والروح المسيّر لها. وٱتّخذت شعارًا لها: «أيها الناس إنّ الطغاة سيدفعونكم إلىٰ الحرب، أمّا نساء العالم فسيوفّرون لكم السّلام والحريّة». وقد تحقّقت الفقرة الأولىٰ من نبوءتها هٰذه وشعارها، أمّا الفقرة الثانية فكانت تؤمن أنها ستصبح حقيقةً واقعة في القريب العاجل. وفي سنة ١٩٣١ ٱستحقّت «جائزة نوبل» للسّلام العالميّ، مناصفةً مع «نيقولا بتلر N. Murray Butler»، فأهدت حصّتها كاملةً وقدرها (١٦٠٠٠) ستة عشر ألف دولار، إلىٰ «الجامعة النسائيّة العالميّة للسلام والحريّة» لتُصرف علىٰ إيجاد التّفاهم الإنسانيّ، الذي يجعل الأمم تعيش بسلامٍ وطمأنينة.

وفي سنة ١٩٣٥، لفظت «جين آدامز» نفسها الأخير، بعد عمليّة جراحيّة أُجريت لها. وقد أحاطت بها عائلتها الكبيرة، التي كانت تزيد عن خمسين ألفًا، من مواطني أمريكا والمهاجرين إليها. ووقف الجميع خاشعين أمام جثمانها، جثمان «أمّ البشر» كما أسموها. وتداعت دموعهم، وتمتمت نفوسهم قائلةً: «لم يكن شعبها شعبًا واحدًا، ولا دينها دينًا واحدًا، إنّ شعبها هو الشّعوب كلّها مجتمعةً، ودينها، الأديان كلّها متّحدةً ومتوافقة».

ولا بدّ من البيان في آخر المطاف، بأنّ «جين آدامز» على الرغم من مشاغلها العمليّة الكثيرة، ألّفت مجموعةً من الكتب أهمّها: «الديموقراطيّة والمُثُل الأخلاقيّة» (سنة ١٩٠٢) - و«مثلٌ عليا جديدة للسّلام» (١٩٠٧)، - و«روح الشّباب» (١٩٠٩)، - و«عشرون سنة في منزل هلّ» (١٩١٠) - و«ضميرٌ جديد» (١٩١٢)، - و«الطريق الطويل في ذاكرة امرأة» (١٩١٦) - و«العشرون سنة التالية في هلّ هاوس» (١٩٣٠).

صورة من الحركيّة الإنسانيّة الخيّرة

إيفانجلين بوث

(١٨٦٥ ـ ١٩٥٠)

وإنها لآمرأة!

لقد خرج عالمنا البشريّ من أتون الحرب العالميّة الأولى، وقد أثقلت أوزار تلك الحرب ضميره الإنسانيّ، وسحقت محنها العديدة مقوّماته الماديّة والمعنويّة، وشرع أفراده الأحياء الباقون، يشكّون بإنسانيّتهم، إنسانيّتهم العميقة الخيّرة، التي رأوها تتفتّح لأوّل مرّة في عمر التاريخ، بهذه القوة والدفق، قاضيةً على عوامل الخراب والموت، بانيةً للإنسان الحياة الزاخرة الحقّة، محقّقةً له ومنه مفهوم الخير الأسمى. وهكذا كنت تراهم في سنة ١٩٢٠ وقد تطاولوا على وجودهم البائس، الذي فقدوا فيه الحبّ والإيمان، بنظرةٍ كليلة تحمل اليأس، والحقد، والتشفّي، وأطّلوا على ذاتهم المحطّمة الجائعة.. بسخريةٍ وتوان. وحاول رجال السياسة العالميّة الكبار، الذين كانوا يوزّعون آنذاك الأرض فيما بينهم شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، هدهدة هذه الأعراض السّاحقة لمفهوم الإنسانيّة الحيّة. ولكنّ مبادئ بعضهم المثاليّة الراكدة، وتشريعات بعضهم الآخر الديموقراطيّة البطيئة، لم تضع للأزمة العالميّة النفسيّة حلًّا. وظنّ الناس أنهم سينحدرون سراعًا إلى العدم، وقد تخلّت عنهم قيادتهم البشريّة كما تخلّى عنهم الله. وفي وسط هذا التّيه الذي كان يبحث فيه الإنسان عبثًا، ومن جديد، عن قيم وجوده، وعن إنسانيّته الخيّرة المفقودة، وقفت آمرأةٌ تكافح إلى

جانب عمالقة السياسة، «كلويد جورج»، و«كليمنصو»، و«ودرو ويلسون»، لتضيء الطريق للإنسان الضّال، لا بالتشريعات والقوانين، والوعود والمعاهدات، وإنما بالحبّ المباشر العفويّ، والتعاون العمليّ، ونجحت في طريقها... فقد وقفت، وإلىٰ جانبها يشدّ أزرها، جيشٌ جرّار من الأرواح المؤمنة بالحبّ والخير وعطائهما، وهو ما نسمع عنه تحت آسم «جيش السلام والإنقاذ». وهو أكبر جيشٍ في تاريخ البشريّة جنّد نفسه تطوّعًا لخدمة هدف السّلام والمحبّة؛ فقد كان يضمّ بين ظهرانيه ثلاثين ألفًا من «الضبّاط»، يعملون لا في تهيئة الخطط العسكريّة، وإنما في الإشراف علىٰ إطعام الجائع، ومساعدة المعوز، في ست وثمانين دولة، وينشرون الحبّ، والتعاون، والثقة، في أرجاء العالم، ويتفاهمون مع البشر فيها بثمانين لغة. ولم تكن هٰذه المرأة التي تزعّمت هٰذا الجيش الضخم، إلّا «إيفانجلين بوث»، الآسم الذي صار علىٰ شفة كلّ مواطن غربيّ بعد الحرب العالميّة الأولىٰ، و«الملاك الأبيض» كما أسماها أتباعها، والصورة الحيّة للإنسانيّة الخيّرة العميقة، في حياتها الحركيّة الفعالة، تلك الإنسانيّة التي لن توقفها أو تجرفها أيّة أزمةٍ ما، كما أكّد بإيمان «ديل كارنيجي».

ويضيف «ديل كارنيجي» إلىٰ ذٰلك، في حديثه عن «إيفانجلين بوث» كنجمةٍ لامعة وسط تلك الأزمة، قائلًا: «إنها أمثل آمرأة في قرننا ـ لقد صُدمتُ عندما آلتقيت بها لأوّل مرّة. فأنا أعلم أنها عجوز مسنّة، إلّا أنّ شعرها الأحمر الداكن كانت لا تتخلله سوىٰ بعض شعيراتٍ بيضاء، وبشرتها الصافية لا تثنّيها التجاعيد إلّا في نقاط، وعينيها الزرقاوتين لا تطلّ منهما إلّا نظرات الحبّ الصّافي والشباب.. كانت مملوءةً بالحياة، متّقدة بالحماسة وكأنها آبنة الثامنة عشرة... تتدفّق الكلمات من فيها الغضّ وكأنها سحرٌ، بل كأنّها موسيقا.. وأكثر ما يدهشني فيها، وأنا الرجل، أنه تقدّم لخطبتها ألفٌ من الرجال، بينهم المليونيريّة، وصيّادو الأسماك، والمزارعون، والفقراء... وكلّنا

يعرف، أنّ أميرًا من أكبر العائلات المالكة الأوربيّة لاحقها لأشهرٍ عدة، مُلحًّا عليها بالزواج منه، ولكنها رفضت كلّ تلك الطلبات.. وذكرت لي سكرتيرتها، أنّها وهي في هٰذه السنّ العتيّة، لا تزال طلبات الزواج تترىٰ عليها دون انقطاع.. فكأني بها تُمثّل الحياة نفسها بأستمرارها، وحركتها الحيّة، وشبابها، وفيضها...».

وقد أنضمت «إيڤانجلين بوث» هٰذه إلىٰ عالم البشر في لندن، في ليلة عيد الميلاد من سنة ١٨٦٥م. وكانت الطفل السابع الذي يلد لـ«وليام بوث» رجل الدين. وفي عام مولدها اتخذ والدها أخطر قرار في حياته؛ فقد أختلف مع «الطرائقيين» (الميتوديست)*، وكان منهم، حول الطريقة المثلىٰ لإنقاذ أرواح الضّالين من البشر. فأستقال من منصبه، وتخلّىٰ عن كنيسته، وتاه في قفارٍ من التأمّل الروحيّ، ثم خرج منها وقد أوجد جيشًا من المريدين، يحمل رسالةً إنسانيّة، وهدفه التبشير بها، لا بين جميع أفراد المجتمع اللندنيّ، وإنما بثّها فقط بين أفراد عُشر هٰذا المجتمع، المتردّي في الرذائل. وقد جعل نصب عينيه، وهو يتبنّىٰ هٰذه الرسالة، أعمال الإنجيليّين والرسل، الذين كان همّهم البحث عن الإنسان الغارق في الخطايا وتطهيره تماماً من أدرانها، وتحويله إلىٰ إنسانٍ خيّر، يتفاعل إيجابيًا مع الحياة ولصالح ما هو طيّب فيها. وآمن أنّ الطريقة الوحيدة «لإنقاذ» الخاطئين هو إطعامهم أولًا، إذا كانوا جياعًا، فمبدؤه الواقعيّ هو: «لا يمكننا تغذية معدةٍ فارغة بالدين فقط». وثانيًا، بتوفير العمل لهم؛ وثالثًا، بتحويلهم منذ اللحظة التي يبدأ فيها إصلاحهم إلىٰ باحثين عن خاطئين آخرين، وفي الوقت ذاته، منقذين لهم ومخلّصين. وتطبيقًا لذٰلك، نظم «وليام بوث» المطابخ

* (الميتوديست) هي حركة إصلاح دينيّة بروتستنتيّة إنكليزيّة قامت في القرن الثامن عشر بصفةٍ خاصّة، وهدفها نشر قواعد الحياة المسيحيّة بين طلاب جامعة أوكسفورد أوّلًا، ثم مدّها إلىٰ جميع أنحاء العالم الأنغلو ـ ساكسوني. وكان همّها التبشير بأصول المسيحيّة ولا سيّما في الأوساط العمّاليّة، وتحقيق الإيمان القلبيّ بصفة خاصّة.

لإطعام الجياع، وبحث عن مبشّريه ومعاونيه بين المغلوبين على أمرهم، والخاطئين التائبين، وربط هؤلاء جميعًا بعضهم ببعض، بتنظيم هو صورة طبق الأصل من تنظيم الجيش البريطانيّ. ورافق دعوته هذه، بقرع الطّبول في الطرقات، كما يحدث في الاستعراضات العسكريّة.

ولم يتلق في عمله هذا من الأمة البريطانيّة سوى السّخرية، والهزء، والمقاومة؛ فقد طلب من الغني أنْ يقدّم له هباته فأشاح بوجهه عنه، وسأل الفقير أنْ يتبعه في عمله فرماه بالحجارة، وضربه بالسياط. وبشّر في الحانات، فاستخدم أصحاب الحانات ضدّه جميع الوسائل القانونيّة، والتشريعيّة لطرده منها. فقد أزعجهم وأقضّ مضاجعهم وعظه ضدّ الشراب المسكر والإدمان عليه، ويلبلهم هذا الجيش من المتسوّلين، الذي يجوس الطرقات بشجاعة، محركًا الأعلام، قارعًا الطبول، مناديًا بإنقاذ البشر الخاطئين. وهكذا منعت السلطات اجتماعاته، وزجّته في السجن المرّة تلو الأخرى. وهكذا لم يحارب دعوته أصحاب الحانات فقط، والسلطات الحاكمة فحسب، وإنما هاجمتها أيضًا الطبقة المثقّفة من الأمّة، فنظرت إلى الدموع المغدقة، وتلك الصلوات المبتهلة الحارة، وذلك الإيمان القلبي المبالغ فيه على أنها مهرجانات تهين الفكر الإنسانيّ المتّزن.

ولكن لم توهن تلك المقاومة من عزيمة «وليام بوث». فقد كان كقائدٍ لحملة ضدّ الخطيئة، يعرف بأنه لا بدّ أن يلقى مثل تلك الحرب، ومن ثمّ فإنه كان يتلقّى تلك الضربات بصمودٍ ومرح، وكلما كانت الشرطة تهاجم اجتماعاته، فإنه كان ينادي بأعلى صوته، مخاطبًا مستمعيه ومريديه: «لقد حان الوقت يا إخواني لتلتقط صورنا للصّحف الصباحيّة»!.

وهكذا ترعرعت «إيفانجلين» في هذا الجوّ من المُثُل والأعمال المفيدة للإنسانيّة، التي كان يملأ بها الوالد منزله. فقد كانت تراه يندفع للعمل وهو مدمّى الوجه، وكانت تسمع الناس يقولون عنه، بأنه يعمل ثماني وأربعين ساعةً في الأربع والعشرين ساعة. وكم كانت تستثيرها تلك اللحظات التي كان يقف

فيها واعظًا أناسًا، لم يطرقوا يومًا باب الكنيسة، ولم يلتفتوا أبدًا إلىٰ الله. فكانت تجمع ما لديها من لعبٍ ومكانس المطبخ، ووسادات البيت، في «مؤتمر»، وتتسلق المنضدة، وتخطب فيها مقلّدة أباها، حتّىٰ تتدفق الدموع من مآقيها. فهٰذه الأشياء كانت لا تعرف هي الأخرىٰ الله! وكم كانت تشعر بالسعادة وهي تغنّي لها أناشيد السلام والإنقاذ.. فالسّلام ـ كما كانت تراه من خلال محيطها ـ صفةٌ تلازم الروح، وعليها أن تتحمّل من أجله كلّ الآلام. ولهٰذا تنازل أخوها عن مهنة الجراحة، التي كان يعدّ نفسه لها، والتحق بوالده في عمله، ولحقت به أخواتها الخمس، وكانت والدتها هي الأخرىٰ مع ذٰلك المجموع. وكانت تنظر إلىٰ أفراد أسرتها، وهم يضعون علىٰ صدورهم الأشرطة الحمراء، ويرتّلون الأناشيد، ويقرعون الطبول، ويجوبون الشوارع، ونفسها تتحرّق لتكون منهم، إنما صغر سنّها كان يقف عائقًا دون تحقيق أمنيتها. وكم من مرّة دفنت رأسها في صدر والدتها وهي تقول: «أيْ أمي! أريد أن أعيش الحياة التي تحيون». ولكن إذا كان صغر سنها قد منعها من مشاركة إخوتها عملهم، وهم يجمعون أشلاء نفوس المحطّمين من البشر. ويسعون لإعادة تركيبها، فإنه لم يكن هناك ما يمنعها من تقليدهم في منحىٰ عملهم. فكانت ترفع شعرها الأحمر الغزير إلىٰ الأعلىٰ، وتضع يافطةً علىٰ صدرها كتب عليها: «لعب للإصلاح». وتطوف منازل جيرانها تطلب من أطفالهم إحضار لعبهم، التي فُقئت عيونها، أو فقدت أنوفها أو أقدامها، لتصلحها لهم. وكانت تعمل، وهي الطفلة، ساعاتٍ طويلة، وبصبرٍ وجلد غريبَيْن، لتعيدها لهم وكأنها جديدة. وكانت هٰذه هي أولىٰ حملاتها لإعادة الحياة إلىٰ المحرومين منها.

وعندما بلغت «إيفا» مرحلة الصّبا، اندمجت في عمليّة «الإنقاذ» بكليتها: فأخذت هي الأخرىٰ تبحث عن البؤس أينما وُجد، وتحمل علىٰ رأسها شعرها الأحمر الجميل إلىٰ أحطّ شوارع لندن. وكانت تلبس ملابس تلك الأحياء الوضيعة، وتبيع فيها علب الكبريت، والأزهار... ولما انتهت مرحلة تدريبها، أي جولاتها بين معاني البؤس وأشكاله، وغدت أكثر تفهّمًا له، شرعت تعتني بالمريض المدنف، وتوقظ الثمل، وتحمل الطعام علىٰ كفها إلىٰ أدنىٰ البشر. ولم يلبث

والدها أن رفعها إلىٰ مرتبة «كابتن» في جيش الإنقاذ. وٱتّفق سكان «النهاية الشرقيّة» من لندن، وهم من البؤساء الضائعين، علىٰ أن يحموها. ففي مرّة، هاجمها أحد رجال الشرطة وهي تعظ، وأراد أن يقبض عليها، إلّا أنّ أحد «حرّاسها» ضربه ورماه أرضًا، وأصابه إصابةً بليغة... فعملت «إيفا» علىٰ إنقاذ حياته، وحملته إلىٰ المستشفىٰ، وٱكتسبت في جيش الإنقاذ رجل شرطة، ظلّ يبعث إليها برسائل المودّة حتّىٰ وفاتها.

ووجّهت «إيفا» جيشها إلى مختلف أحياء لندن الغنيّة والفقيرة، ولكن المجتمع بمجموعه كان يكره ذٰلك الجيش، فسعىٰ لإيجاد تشريعاتٍ قانونيّة ضدّها وضد زحفها، فطرحت قضيّتها علىٰ البارلمان، وكافحت بمرارةٍ لتنال حقّها في الوعظ العام، ونجحت. وطافت بعد نصرها ذاك، بؤر العمّال الآسنة، كالمناجم، ومعامل الفولاذ. وهبطت إلىٰ أعماق تلك المناجم، التي كان يتردّد في الوصول إليها الرجال الأقوياء، والشديدو المراس. وٱنتزعت بنبرات صوتها القويّة، والهدف الأسمىٰ الذي يُطل من ٱهتزازات ذٰلك الصوت، إعجاب أكثر الناس تحدّيًا لها، وسخريةً منها، ومنهم المصلح الٱجتماعيّ «جون برايت»، الذي كان يبحث عن حلٍّ لمشاكل المجتمع الإنكليزيّ عن طريق السياسة، لا عبر التبشير، حتّىٰ إنه قال: إنها تستحق ٱسمها، «إيفا» (أي حوّاء «أم البشر»).

وفي الثالثة والعشرين من عمرها، أَسند إليها والدها قيادة «جيش الإنقاذ» برمّته في لندن. وٱبتسم الحظّ أخيرًا للحركة؛ فقد شعر كثير من البريطانيّين، أنه بينما كان البرلمان يتناقش ويتداول في أفضل الطرق لإطعام الجائع، وإصلاح الفاسد، كان «جيش الإنقاذ» يعمل بإيمانٍ، ومثابرة، وإلحاح، لملء بطون ثلاثة ملايين جائع. ففتحوا صناديقهم وجيوبهم مستجيبين لنداءات «إيفا» الحارة، المخلصة.

وعندما هاجر عددٌ من المنقَذين المنقِذين إلىٰ «العالم الجديد» أمريكا، ٱنتقلت «إيفا» إلىٰ كندا لتقود الجيش هناك. ولمّا ٱتّجه قسمٌ من المغامرين إلىٰ «ألاسكا»، بحثًا عن الذهب سنة ١٨٩٨، ٱلتحقت بهم مع منظمة من قبلها، لتتقاسم صعوباتهم، وتهديهم سواء السبيل، في تلك الأصقاع السّحيقة الباردة.. وقد

تمكّنت أن تجذب إلىٰ معسكر ترنيماتها الروحيّة، خمسة وعشرين ألفاً من الرجال الجائعين، والمقرورين، والحاقدين، والشّريرين، وحتّىٰ المجرمين، وأن تطلق أرواحهم صافيةً من أدران الحياة، عبر تلك الليالي القطبيّة المتجمّدة، وجعلتهم يركعون إلىٰ جانبها، ويصلون بحرارة تحت أشعّة شمس منتصف الليل الخافتة، وفي ظلّ الصّنوبر الشماليّ.

وانتقلت «إيفا» إلىٰ مصائد الأسماك في «الأرض الجديدة»، لتخفّف في هٰذه البقعة القاسية شظف العيش علىٰ ساكنيها، كما فعلت في «ألاسكا». وعندما فرّ بعض اللاجئين من أرمينيا، وهبط قسمٌ منهم في «تورونتو» في كندا، كانت بينهم، تُوفّر لهم سبل الحياة.

وفي سنة ١٩٠٤، اجتازت الحدود الكنديّة إلىٰ «الولايات المتّحدة الأمريكيّة»، لتقود «جيش الإنقاذ» فيها. ولم تلق في بادئ الأمر قبولًا من شعبها. ولكنها صمدت كأبيها سابقًا، وثبّتت قدمها تدريجيًّا، لتزاول عملها في هٰذا العالم الجديد، المتخم بالأهواء البشريّة، والآمال الواسعة، والعبقريّات الماديّة القاسية؛ فحيثما تسير الإنسانيّة، تترك وراءها دائمًا بقعًا من الأوحال. وأقامت «إيفانجلين» في الولايات المتّحدة، علّها تحوّل مادة البشر الخام إلىٰ مادةٍ إنسانيّة حقيقيّة؛ فأنشأت عددًا من الجمعيّات، بعضها للسجناء وأطلقت عليها اسم «نحو يوم مشرق»، وبعضها للأمّهات غير المتزوجات وأسمتها «عصبة المبعدات عن الحب»، وأوجدت مكتبًا «ضد الانتحار»، هدفه إنقاذ حياة أولٰئك الذين يفكّرون بالقضاء علىٰ أنفسهم، بعد أن سُدّت أمامهم مسالك الحياة. واتخذت كلّ فكرةٍ من أفكارها شكلها الحسيّ المجسّم بسرعةٍ غريبة. وكانت تقول: «إنّ العالم زاخرٌ بأناسٍ يبشّرون بالعقائد، ولكن الحياة لا تنتظر نتيجة هٰذا التبشير. إنّ عملنا نحن ليس موعظة فحسب، وإنما هو علاجٌ للحياة الإنسانيّة المقلقلة، الحياة وهي في حالتها الخطرة. فهناك ملايين من البشر، تحتاج حياتهم إلىٰ إسعافٍ سريع، فالخطوة الإنسانيّة الحيويّة هي إنقاذهم «الآن» و«بسرعة».

والتحق بدعوتها، وخدمة جيشها آلاف الأمريكيّين. وكان كلّ من يدخل في

الخدمة، لا يشرب الخمر، ولا يدخن، ولا يشترك في أيّ لهوٍ عام، ويهدف ـ كما كانت تنادي زعيمة الجيش نفسه ـ إلىٰ لمّ شعث حياة البشر، ورأب صدوعها، وإعادتها طبيعيّة مسلسلة. وكان كلّ من ينخرط في هٰذا السلك، يؤمن ويجب أن يؤمن، بأنّ المخلوق البشريّ قابل للتبدّل والتغيُّر بتغيير نمط الحياة التي يحياها.

وفي سنة ١٩١٧، خلعت «إيڤا» عن رؤوس مريداتها في «جيش الإنقاذ» قبّعاتهنّ الحريريّة، ودفعتهنّ إلىٰ ميدان الحرب العالميّة الأولىٰ بخوذٍ فولاذيّة. وآخترقن خطوط النار، وشاركن الجند جهنم المعارك، وبثثنَ في نفوسهم الأمل والشجاعة. وعلّق رئيس الولايات المتّحدة الأمريكيّة «ودرو ولسون» علىٰ صدر «إيڤانجلين بوث» «ميداليّة الخدمة الممتازة».

ولكنّ حرب «إيڤا» لم تنته، ولن تنتهي، لأنه لا نهاية في الحياة للكفاح: فالبشر جياعٌ ماديًّا ومعنويًّا، في معظم بقاع الأرض. فنظّمت حملاتٍ عديدة لخلاصهم، وإعادة الثقة إلىٰ نفوسهم. وتنقّلت لهٰذا الغرض، بين إنكلترة، والنرويج، والدانيمارك، والسويد، وفرنسا، واليابان، والهند. وتفقّدت في جميع تلك الأماكن أفراد جيشها العديدين.

وفي سنة ١٩٣٩، وقد بلغت من العمر أربعًا وسبعين عامًا، آستقالت من عملها، وآنسحبت إلىٰ منزلها في نيويورك، حيث قابلها «ديل كارنيجي».

وعادت الحرب تطرق أبواب العالم من جديد، فنادت «إيڤا» جيشها قائلةً: «آعمل كما هو مبدؤك دائمًا، لا علىٰ قتل غريزة الكفاح في الإنسان، وإنما في تحويلها نحو أعدائه الحقيقيّين، أعداءِ الإنسانيّة الخيّرة. جنّدها لإنقاذ البشريّة من البؤس والشقاء، جنّدها للحياة، ولا تُجنّدها للموت».

وتُوفيت «إيڤانجلين بوث» بعد آنتهاء الحرب العالميّة الثانية بخمس سنوات، أيْ في سنة ١٩٥٠، وكانت حياتها صورة من صور الحياة الإنسانيّة الحركيّة الحقّة. فهلّا خرجت جميع الجمعيّات التي تسمّي نفسها خيريّة، من وراء المكاتب، لتعمل مباشرةً وفي الواقع وعلىٰ الواقع!

كتب للمؤلفة

التأليف:

١. المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني:
دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٧٣

٢. المرأة في التاريخ العربي، في العصر الجاهلي:
دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٧٥

٣. دراسة في منهجية البحث التاريخي:
دمشق، جامعة دمشق، ١٩٨١

٤. تاريخ العرب الحديث والمعاصر:
دمشق، جامعة دمشق، ١٩٨٠، ١٩٨١

٥. معالم تاريخ أوربا في العصر الحديث:
دمشق، جامعة دمشق، ١٩٨٠، ١٩٨١

٦. من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول:
المؤرّخ المحبّي وكتابه «خلاصة الأثر»
دمشق، الشركة المتّحدة للتّوزيع، ١٩٨٦

٧. الجاليات الأوربية في بلاد الشام في القرنين السادس والسابع عشر:
بيروت، مؤسّسة الرسالة، ١٩٨٩

٨. تقديم، وتعليق، وتحقيق، لكتاب «المنح الرحمانية في الدولة العثمانية»:
للمؤرّخ المصري «محمّد بن أبي السرور البكري الصديقي»،
دمشق، دار البشائر بالتعاون مع مركز «جمعة الماجد» دبيّ، ١٩٩٥

كتب صدرت بإشراف
جمعيّة الندوة الثقافيّة النسائيّة بدمشق

١. **سابقات العصر:**
وداد سكاكيني، دمشق ١٩٨٦

٢. **ديوان عزيزة هارون:**
إعداد: عفيفة الحصني، دمشق، دار سامي الدروبي للنشر، ١٩٩٢

٣. **قلها وامش:**
خواطر وشهادات على العصر، شوقي بغدادي، دمشق ١٩٩٢

٤. **الأمّ:**
شعر: موريس كاريم، نقله عن الفرنسيّة: سعد صائب، دمشق ١٩٩٢

٥. **الحبّ بين المسلمين والنصارى في التاريخ العربي:**
عبد المعين ملّوحي، بيروت، دار الكنوز الأدبيّة، ١٩٩٣

٦. **الشجرة التي غرستها أمّي:**
سيرة ذاتيّة، الدكتور بديع حقّي، دمشق
إشبيلية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، ١٩٩٣

٧. **دمشق، ذاكرة الإنسان والحجر:**
الدكتورة ناديا خوست، دمشق، دار دانية للطّباعة والنشر، ١٩٩٣

٨. **شخصيّات وصور أدبيّة:**
الدكتور إبراهيم الكيلاني، دمشق، ١٩٩٣

٩. **رسالة المرأة:**
عفيفة الحصني، دمشق، ١٩٩٤

١٠. **أديبات عربيات:**
سير ودراسات، عيسى فتّوح، دمشق، ١٩٩٤

١١. حكي برتقالي:
قصص، جمال عبّود، دمشق، ١٩٩٤

١٢. الحبّة والسنابل:
نجاة قصّاب حسن، دمشق، دار الأهالي، ١٩٩٤

١٣. دراسات في التّاريخ الإسلامي:
الدكتورة نجدت خمّاش، دمشق، دار طلاس للدّراسات والتّرجمة والنّشر، ١٩٩٤

١٤. إيماءات:
قصص قصيرة جدّاً، ضياء قصبجي
دمشق، إشبيلية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، ١٩٩٥

١٥. أوراق تربويّة:
في مشكلات الأطفال والناشئة، عفاف لطف الله
دمشق، إشبيلية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، ١٩٩٥

٦١. دفاع عن المرأة:
قضايا ومواقف، سعد صائب
دمشق، إشبيلية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، ١٩٩٥

١٧. أسمار وأحاديث:
الدكتور إبراهيم الكيلاني
دمشق، إشبيلية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، ١٩٩٥

١٨. نساء ورجال:
في الأدب والسياسة وإصلاح المجتمع، الدكتورة ليلى صبّاغ
دمشق، إشبيلية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، ١٩٩٥

نساء ورجال في الأدب والسياسة وإصلاح المجتمع /
الدكتورة ليلى الصبّاغ . ـ ط ١ . ـ
دمشق : الندوة الثقافيّة النسائيّة ، ١٩٩٥ . ـ
تنفيذ : إشبيلية للدّراسات والنّشر والتّوزيع . ـ
١٩٢ ص ؛ ٢٤ سم .

١ ـ ٩٢٠ع ص ب ا ن ٢ ـ ٨٠٨,٥ ص ب ا ن
٣ ـ العنوان ٤ ـ صباغ
مكتبة الأسد الوطنيّة

الإيداع القانوني : ١١٦٢ ـ ١٩٩٥/٨

إشبيلية : تنفيذ ٧ (ط ١) ـ ١٠٠٠ ـ ١٩٩٥/٤

صناعة الكتاب

التحضير الطّباعي والطّباعة:
دار الشام ، دمشق، هاتف ٢٢٢٧٩٩٢

التّجليد:
دار الشرق ، عبيدي، دمشق، هاتف ٢٢٣١٣٥٤

تمّ إخراج الكتاب في دار إشبيلية بدمشق على برنامج
العربي للنشر

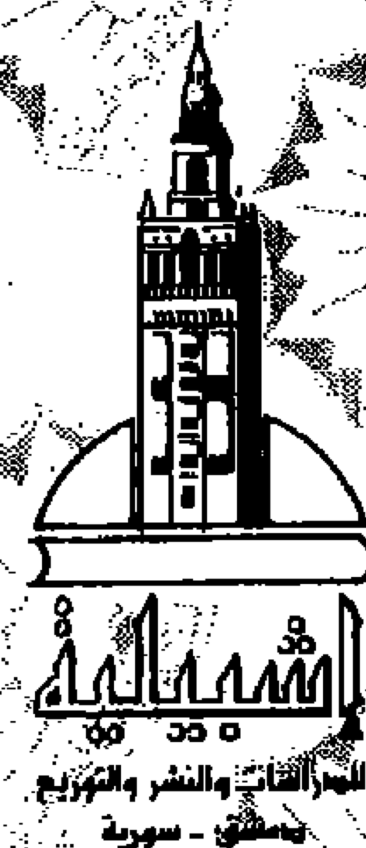
يضمّ هٰذا الكتاب بضع عشرة مقالةً ودراسة في الأدب والتاريخ والسياسة وإصلاح المجتمع، وضعتها **الدكتورة ليلىٰ الصبّاغ** الأستاذة بجامعة دمشق، وقدّمتها محاضراتٍ، أو تحدّثت بها عبر الأثير في بعض الإذاعات العربيّة.

وتعمَد الدكتورة ليلىٰ الصبّاغ، **أستاذة التاريخ**، في تنوّع ثقافتها وامتداد فكرها، إلىٰ معالجة قضايا تتّصل بالأدب والتربية بقَدْر ما تتعلّق بالسياسة والتاريخ.

فبعد أن تحدّثنا عن المَلِكة الآشوريّة ـ البابليّة «سميراميس»، تتقدّم خُطواتٍ عَبر التاريخ لتتناول عظَمةَ الخليفة «عبد الملك بن مروان» ـ في محاضرة تُلقيها علىٰ طلّاب الكليّة العسكريّة في الجزائر الشقيقة غداةَ تحرُّرها ـ ثم خُطوةً أُخرىٰ فتكون في عصر أشهر خلفاء الدولة العربيّة «هارون الرشيد»، ولا تفوتها الإشادةُ بالاستعدادات التي اتّخذها القائد المحنّك «نور الدين زنكي» لمواجهة الصليبيّين.

وهي لا تكاد تُغادر هٰذه الأجواء، التي تموج بعَبَق التاريخ، حتّى تكون الرّيحُ قد حملتها إلىٰ الهند، فتقرّب بَعيدَ شاعرها «رابندراناث طاغور»، وتُفتّح مكنونَ عبقريّته، في دراسةٍ مستفيضة، فيتحوّل إعجابُ قارئه به إلىٰ مزيدٍ من الفهم والحبّ.

ثمّ تتلفّت حواليها، وتُلقي بنظرها كرّةً أُخرىٰ بعيدًا، فتكون لها ـ وهي المرأةُ التي يُؤرّقها ما تُعاني بناتُ جنسها ـ وقفاتٌ مع بعض رائدات الإصلاح الاجتماعي في العالَم، فتنتخب منهنّ أُنموذجاتٍ من روسيا وإنكلترا وأمريكا، حيث يطّلع القارئ علىٰ صفحاتٍ من نضالهنّ، فيأسىٰ لمعاناتهنّ، ويفرح لكلّ ما تحقّق لهنّ من أسباب النجاح.



إنّ كتاب «**نساء ورجال**» ـ الذي تقدّمتْ في عنوانه المرأةُ علىٰ الرجل لغَلَبة الدراسات التي تدور حولها ـ هو كتابٌ متنوّع، تاريخيٌّ، أدبيٌّ، تربويّ، قد كُتبتْ فُصوله الإثنا عشر **بفكرٍ نيّرٍ، وديباجةٍ مُشرقة، وحسٍّ عربيٍّ إسلاميٍّ إنسانيّ**.. وهو، لذٰلك كلّه، يُمتِع قارئه، ويُغْني النفسَ التوّاقة إلىٰ قِيم الحقّ والخير والجمال.

فاضل السّباعي